رسائل السلام
(٨)

أكوان الله

القراءة العرفانية للكون برؤية قرآنية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

هذه الرسالة تدعو إلى النظر إلى الكون نظرة جديدة تنطلق من قراءته باسم الله، وتنتهي بصحبته في الله.

وقد حاولت حصر أوصاف الكون ــ انطلاقا من النصوص المقدسة ـ في أربعة أوصاف كل واحد منها معراج من معارج السلام، ورقية من رقى السعادة.

وهذه الأوصاف الأربعة هي: الحياة، والعبادة، والتسخير، والمقروئية.

فمعرفتنا بالكون الحي تشعرنا بالأنس، وتملؤنا ينشوة الصداقة الحميمة، فلا يمكن أن نصادق جمادا.

ومعرفتنا بالكون العابد تعرفنا بوظيفتنا، وتجعلنا نلهج بالتسبيح في حلقة ذكر الكون الواسع.

ومعرفتنا بالكون المسخر تجعلنا نتناول الأشياء من يد الله، لا من يد الطبيعة، ونتناول الأشياء بالله، لا بأيدينا.

ومعرفتنا بالكون المقروء تعبر بنا من الكون إلى المكون، وتزج بنا في رحاب الحضرة المقدسة، فنبصر من خلال الأشياء مشيئ الأشياء، فنصادق مع قطرات الندى، وتفتح الزهر، وهبوب النسيم، رب الكون ومبدعه.

رسائل السلام

(8)

أكوان الله

القراءة العرفانية للكون برؤية قرآنية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

2015 – 1436

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة **5**
أولا ـ الكون الحي **9**
1 ـ الإدراك: **12**
2 ـ المشاعر: **15**
الخشوع: 16
الغضب: 19
الشفقة: 20
الرحمة: 22
التعظيم: 25
3 ـ التعبير **28**
4 ـ التحضر: **43**
التنظيم: 45
العمران: 47
الأخلاق: 57
ثانيا ـ الكون العابد **68**
1 ـ القنوت : **69**
2 ـ السجود: **77**
3 ـ التسبيح: **84**
4 ـ الدعاء: **112**
ثالثا ـ الكون المسخر **116**
1 ـ الربانية: **117**
الملكية: 118
التدبير: 130
2 ـ السلام: **142**
3 ـ الحكمة: **162**
الجمال: 164
التنوع: 168

تنوع الأحياء: 170
تنوع الألوان: 178
التوازن: 182
الانتفاع: 189
4 ـ الطهارة : 192
رابعا ـ الكون المقروء 199
1 ـ الفناء: 201
2 ـ البقاء: 213
3 ـ القراءة: 216
4 ـ اليقين: 244

المقدمة

من مظـاهر الصـراع الـتي أفرزتهـا غفلـة الإنسـان وكبريـاؤه: الصـراع مـع الكـون.. مـع السـماء والأرض.. والنبات والحيوان.. والرياح والأمطار.. وكل الأشياء.

وهـذا الصـراع يكتسـي لبوسـا مختلفـة، ويتـوزع على مظاهر متنوعة، ولكن الأساس في جميعها واحد، وهو أننـا نتعامل مع أكوان ننسبها إلى الطبيعة، أو ننسبها إلى الآلهة الجاثمـة على عـروش قلوبنـا وعقولنـا، أو ننسـبها إلى اللاشيء الذي تفرزه الغفلة، وننسـى في هـذا الخضـم أن ننسبها إلى الله.

فالأكوان أكوان الله، والأشياء جميعا خلقت بيـد اللـه، وصورت باسم الله، وهي تتوجـه إلى اللـه قبـل أن تتوجـه إلينا.

وهذه النظرة هي مبدأ السلام مع الكون، ومنطلقه.

فكما أن بداية السلام مع المستعمرات، هـو اعـتراف المستعمر لها بحريتها، وبحقها في تقرير مصيرها، ليتعامل معها بعد ذلك تعامل المسالم لا المحارب، وتعامـل النـد لا المتعالي، وتعامل الصديق لا العدو، فكذلك يكـون السـلام مع الكون.

فأي سلام نحلم به مع الكـون، ونحن لا نعـترف بـه؟.. أو أن اعترافنا به مجرد معـنى محصـور في زاويـة خاملـة من زوايا العقل، لا نتأثر لها، ولا نهتم بها.

وهذا المنطلق الذي يحدد تعاملنا مع الكون هـو الـذي يشـعرنا بالسـعادة والأمـان، ويـنزع عنـا حجب الوحشـة والضيق، ويزرع في قلوبنا الابتسـامة، ويـنزع من صـدورنا الحزن.

***

وانطلاقا من هذا نحاول في هـذه الرسـالة أن ننظـر

نظرة جديدة للكون، تنطلق من قراءته باسم الله، وتنتهي بصحبته في الله.

ودليلنا في هـذا أقـدس كلام، وأشـرف كلام، وأصـدق كلام، كتاب الله تعـالى، فهـو الكتـاب الـذي يجعلنـا نشـعر بصداقة حميمة مع الكون، تجعلنا نراه كتابا تقلب صـفحاته ليتجلى من خلالها أعظم محبوب، وأجمل محبوب، وأكمـل محبوب، فنصادق من خلال الكـون رب الكـون، ونعـبر من الكون إلى المكون.

وهذه الصحبة الشريفة للكون، والتي تتعامل معه كما تتعامل مع الإنسان، هي التي كان عليها رسول الله ﷺ .

وقد صور لنا بعض الصحابة بعض هذه الصحبة فقـال: (أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر قال فحسر رسـول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر فقلنـا: يـا رسـول اللـه لم صنعت هذا؟ قال: لأنه حديث عهد بربه تعالى)(1)

وهذه الصحبة تستدعي نظـرة شـاملة للكـون بجميـع أنواعه، وبجميع خصائصه ووظائفه وصفاته، فبحسب سمو المعرفة يكون سمو التعامل.

وقـد حاولنـا حصـر أوصـاف الكـون ــ انطلاقـا من النصوص المقدسـة ــ في أربعـة أوصـاف كـل واحـد منهـا معراج من معارج السلام، ورقية من رقى السعادة.

وهــذه الأوصــاف الأربعــة هي: الحيــاة، والعبــادة، والتسخير، والمقروئية.

فمعرفتنا بالكون الحي تشعرنا بالأنس، وتملؤنا ينشوة الصداقة الحميمة، فلا يمكن أن نصادق جمادا.

ومعرفتنا بالكون العابد تعرفنا بوظيفتنا، وتجعلنـا نلهج بالتسبيح في حلقة ذكر الكون الواسع.

ومعرفتنا بالكون المسخر تجعلنا نتناول الأشياء من يد الله، لا من يد الطبيعة، ونتناول الأشياء بالله، لا بأيدينا.

ومعرفتنـا بـالكون المقـروء تعـبر بنـا من الكـون إلى

1) رواه مسلم وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد.

المكون، وتزج بنا في رحـاب الحضـرة المقدسـة، فنبصـر من خلال الأشـياء مشـيئ الأشـياء، فنصـادق مـع قطـرات الندى، وتفتح الزهر، وهبوب النسيم، رب الكون ومبدعه.

وهذه الألقاب الأربعة لأكـوان اللـه هي الوحيـدة الـتي تملؤنا بالأنس، وتشعرنا بالسلام.

السـلام الشـامل الـذي يسـتغرق جميـع طاقاتنـا، لا السلام الذي يتغـنى بـه الغـافلون عن اللـه، والـذي يجعـل أسمى غاياته أن يحفظ تماسك هذا التراب الـذي تمتطيـه أرواحنا.

وننبه في هذه الرسالة ـ كما نبهنا في سائر الرسائل ـ إلى أن ما في هذه الرسالة من حقائق نوعان:

أما النوع الأول، فهو حقائق مطلقـة لا ينبغي لأحـد أن يجحـدها، لأن كـل شـيء يـدل عليهـا ابتـداء من النصـوص المقدسة.. وهذه الحقائق لا نقبل مناقشة أحد فيهـا.. ولن نجيبـه إن ناقشـنا، لأنـه لا يمكن أن يجـادل أحـد في البديهيات.

وأما النوع الثـاني، فهـو آراء وقـع فيهـا الخلاف.. وقـد اخترنـا في الخلاف مـا رأينـاه راجحـا.. ولا حـرج علينـا في ذلك.. ونحن في هذا النوع من الحقائق نتقبل كل مخالفة، ونخضع لكل توجيه، ونـتراجع عن كـل خطـأ.. ونـدعو اللـه لكل من نبهنا لذلك، فلا عصمة إلا لمن عصمه الله.

أولا ـ الكون الحي

هل تدب الحياة فيما حولنا من أشياء؟
وهل تعقل هذه الكائنات الكثيرة التي تحيط بنا نفسها وحقيقتها ووظائفها؟
وهل تعقل غيرها، وعلاقتها به؟
وهل تحزن وتئن، وتفرح وتسر؟
وهل تبغض وتحب، وتحلم وتأمل؟
وهل في قدرتها التعبير عن مشاعرها وأفكارها؟
ثم ما علاقتها بنا، وما علاقتنا بها؟
وهل نحن وسط كون حي ينبض بالحيـاة، أم نحن في لجة كون جامد لا روح فيه ولا مشاعر له؟
وما تأثير هذه المعارف على أنفسنا وأنماط حياتنا؟
هل هي مجرد قضايا فلسفية وتـرف عقلي قـد يعـني الخاصة، ولا علاقة لـه بالعامـة، أم أن لـه ارتباطـا بنـا نحن العوام والبسطاء والدهماء؟

إن هذه التساؤلات من القضايا الأساسية التي تشـغل بال الإنسان ويهتم لها، ويرسل في سبيل معرفة جزء منها المركبات الفضائية، ليسبر أغوار الكون، ويبحث عن أحيـاء فيه، ويتساءل بحماقة وغـرور: هـل هنـاك حيـاة على غـير الأرض؟

ولكن الحقائق الكـبرى ــ الـتي تبينهـا الوثيقـة الإلهيـة التي تنطوي على حقائق الوجود وأسراره ــ تخـبر أن هـذا الكون لا يحوي أحياء فقـط، بـل هـو نفسـه حي، بكـل مـا تحمله هذه الكلمة من معاني.

أما ما نتصـوره نحن من حيـاة فهـو صـورة فقـط من صور الحياة، وهي صـورة ارتباطـات ماديـة حيويـة بعضـها ببعض.

وكما أن العلم الحـديث يقـر بوجـود حيـاة في الخليـة

الواحدة، سواء كانت ضمن نسيج واحد أو كـانت مسـتقلة منفردة، فكذلك تنبئنا النصـوص المقدسـة أن الكـون كلـه حي جملة وتفصيلا، وكل ذرة فيه أو ما دونها كائن حي لــه حقيقته التي اسـتدعت وجـوده، كمـا أن لـه صـورته الـتي نعرفه من خلالها.

قال بديع الزمان النورسي مبينا هذه الحقيقــة وأثرهـا النفسي:(فالكونُ بجميع عوالمه حيّ ومشع مضـئ بـذلك التجلي، وإلاّ لأصبح كل من العوالم - كما تراه عين الضلالة - جنازة هائلة مخيفة تحت هـذه الـدنيا المؤقتـة الظـاهرة، وعالماً خرباً مظلماً)(1)

* * *

ولكن الإيمـان بهـذه الحقـائق إيمانـا ذوقيـا شـهوديا يستدعي مرآة صافية، وقلبا محررا من أوثاق الهوى.

هذا في الدنيا، أما في النشأة الآخـرة فـإن الإنسـان ـ مؤمنا كان أو كافرا ـ بعد انحسار حجاب الغفلة يدرك هذه الحقـائق، كمـا قـال تعـالى: لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَـةٍ مِنْ هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (قّ: 22)

فمن معاني الغفلة في الآية تعطل الطاقـات عن أداء وظيفتها بسبب إهمالها وعدم استعمالها.

وقد أخبر ﷺ عن هذا الإدراك في أحاديث كثـيرة لعـل أشهرها ما أخبر به عن معرفة أهل الجنة والنار للموت مع أنه جاءهم في صورة حسية، قال ﷺ:(يجاء بـالموت يـوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنـار، فيقـال: يا أهـل الجنـة هـل تعرفـون هـذا؟، فيشـرئبون وينظـرون، ويقولون: نعم هذا الموت، ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هـذا؟ فيشـرئبون وينظـرون ويقولـون: نعم هـذا المـوت، فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النـار خلـود فلا مـوت، ثم قـرأ رسـول اللـه ﷺ قولـه تعالى: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ

1) الكلمة العاشرة - ص: 120.

وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (مريم:39) وأشار بيده إلى الدنيا)[2]

فهـذا الحـديث يكـاد يصـرح بالقـدرات الهائلـة لأهـل النشأة الآخرة في التعرف على هذه الحقائق، يستوي في ذلك مؤمنهم وكافرهم، وأهل الجنة وأهل النار.

بل إن القرآن الكريم صـرح بـذلك حين ذكـر قـدرتهم على سماع جوارحهم، وهي تخـاطبهم، قـال تعـالى: يَـوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (النور:24)

***

انطلاقا من هذه المعاني سـنتحدث في هـذا الفصـل عن بعض الغيب الـذي كشـف لنـا عن بعض دلائـل الحيـاة ونوعها فيما نراه من كائنات سواء كانت جامدة لا حظ لها من الحيـاة والعقـل، أو حيـة نعطيهـا صـورة من صـورة الحياة، وهي صورة الحركة والنمو، وننفي عنها أهم ما في الحياة من العقل والوعي والشعور والاختيار.

وسـنكتفي بأربعـة مظـاهر للحيـاة تكفي أي عاقـل ليحكم من خلالها بالحيـاة لمن اتصـف بهـا، وهي: الإدراك، والمشاعر، والتعبير، والتحضر.

1 ـ الإدراك:

الإدارك هو أهم صفة من صفات الحياة، بـل هـو ركن الحياة الركين، حتى أن من القدامى من عـرف الحي بأنـه المدرك النامي، أو عرفه بأنه المدرك فقـط، فمن اكتمـل له الإدارك كان له من الحياة حظهـا الأوفـر، ومن كـان لـه بعض الإدراك كان له من الحياة ما كان له من الإدراك.

ويراد بالإدراك توفر الواسـائل المتيحـة للتعـرف على العالم الخارجي.

وربما يكون هذا الحد هو الحجاب الذي جعلنا، أو جعل أوهامنا تعتقد موت ما نراه من أشياء.. ذلك أننا لا نرى لها عيونا ترى بهـا، أو آذانـا تسـمع بهـا، أو جلـودا تلمس بهـا..

2) رواه البخاري ومسلم.

فنحكم من خلال غياب الوسيلة على غياب الغاية.

وهذا حكم خاطئ ابتداء.. ومن السهولة التعرف على خطئه.

فقبل قرنين من الزمان فقط كان اللسان شرطا من شروط القدرة على الكلام.. ولكنا الآن، وبفضل ما توفر لنا من تقنيات أزحنا هذا الشرط.. فأصبحت الشريحة الصغيرة التي لا تكاد ترى تتحدث بلسان فصيح، بل تترنم بألحان دونها كل الحناجر مع أنه ليس لها لسان ولا حنجرة ولا هواء يدخل أو يخرج.

وهكذا القول في شئون كثيرة كان الوهم المتلبس بلباس العقل يحكم فيها بأحكامه على العقل.. ولكن الحقائق التي أتاحها العلم مكنتنا من التعرف على محل الوهم.

وهكذا ينبغي أن نتعامل مع ما لم نعلم علمه بعد.. وإلا وقعنا فيما وقع فيه أهل القرون السالفة من الأوهام المتلبسة بلباس العلم.

بعد هذا الخطاب البديهي للعقل، والذي قد لا نستفيد منه شيئا غير كون كل ذلك ممكنا، نرجع إلى المصدر المعصوم للمعارف لنتعرف على ترجيحه لأحد وجهي الإمكان.

والنصوص المقدسة تخبرنا عن هذا الوعي والإدراك بأساليب مختلفة، ربما تكون هذه الرسالة جميعا، أدلة عليها.

ولكنا سنقتصر هنا على بعض ما ذكرت النصوص من نماذج على هذا الشرط من شروط الحياة.

فمن مظاهر الإدراك مثلا إدراك المدرك للعواقب، فلذلك يحترز منها بصنوف الاحترازات.. فنعرف من خلال احترازه على مدى إدراكه.

ومما يذكر هنا من باب التنكيت أن بعضهم زعم الصمم، ليتخلص من وظيفة كلف بها، فاحتال عليه

المسؤول بأن صاح فجأة فيه:(احذر.. فإن عقربا تريـد أن تلدغك).. فابتعد الرجـل مسـرعا.. وانطلت الحيلـة عليـه.. وعرف أن إدركه سليم بسبب احترازه.

وهذا الدليل نسـتطيع أن نفهم منـه قولـه تعـالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَـةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْإِنْسَـانُ إِنَّهُ كَـانَ ظَلُومـاً جَهُولاً (الأحزاب: 72)، فالحياة العاقلة المدركة للعـواقب هي التي منعت هذا الكون من قبول أمانة التكليف.

ولـولا مـا في الكـون من طاقـة الإدراك والاختيـار مـا عرض عليه هذا العرض الخطـير، ولولاهـا مـا أجـاب هـذه الإجابة الواعية.

ومع صراحة النصـوص الدالـة على هـذا المعـنى نجـد بعض المفسرين يجنح بها إلى التأويل الذي لا يحتـاج إليـه، فقد ذهب بعضهم ـ كمـا يـذكر القرطـبي وغـيره ـ إلى أن العـرض في هـذه الآيـة ضـرب مثـل، (أي أن السـموات والأرض على كبر أجرامها، لـو كـانت بحيث يجـوز تكليفهـا لثقل عليها تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب، أي أن التكليـف أمـر حقـه أن تعجـز عنـه السـموات والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل)[1]

وقال قوم: إن الآية من المجاز، أي إنا إذا قايسنا ثقـل الأمانــة بقــوة السـموات والأرض والجبــال، رأينــا أنهــا لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت.

وهذا التأويل البعيد للآية تغليب للعقـل المحـدود على الوحي المطلق، وهو نتيجة لصحبة العقـل المسـلم للفكـر المادي، ولهذا كـان السـلف الـذين لم يتلوثـوا بمثـل هـذه الصحبة أشـرف فهمـا، وأعظم إيمانـا، وقـد روي في هـذا عن عبدالله بن مسعود قال: لما خلـق اللـه الأمانـة مثلهـا صخرة، ثم وضعها حيث شاء ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها، وقال لهن: إن هـذه الأمانـة، ولهـا ثـواب

1) تفسير القرطبي:14/225.

وعليها عقاب؛ قالوا: يا رب، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قبل أن يدعي فقال للسموات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقنا منها ولم نطقها؛ قال: فحركها بيده وقال: والله لو شئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لازددت؛ قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حقويه، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لازددت؛ قالوا: دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا: مكانك! إن هذه الأمانة، ولها ثواب وعليها عقاب وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقنا منها، وحملتها أنت من غير أن تدعي لها، فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلوما جهولا(1).

2 ـ المشاعر:

المشاعر الوجدانية هي روح الحياة.. ومن لا مشاعر له لا حياة له..وقديما قال الشاعر يسخر من الذي لم يذق قلبه طعم الحب:

إذا لم تذق في هذه الدار صبوة فموتك فيها والحياة سواء

وقال الآخر معبرا عن قصور حياة من لم يذق طعم هذه المشاعر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعير في الفلاة سواء

وقال الآخر يرميها بالجمود:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

وقال الآخر يرميها بالبهيمية:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فقم فاعتلف تبنا فأنت حمار

---

1) انظر: القرطبي:14/257.

وكل هؤلاء ـ ما عدا أولهم ـ عـبروا حسـب معـارفهم، وحسبما دلتهم عليه مداركهم المحدودة.. أما الحقيقة التي تنص عليها النصوص المقدسة.. فتخـالفهم في ذلـك تمـام المخالفة..

فالنصوص المقدسة تنطق بكل لسـان على مـا لهـذه الموجودات ـ سواء كـان منهـا مـا ينتمي إلى العـالم الـذي نسميه جمادا، أو العالم الذي نعطيه بعض أوصاف الحيـاة، وننزع منه أهمها.

وسننطلق من النصوص المقدسة لنتعرف على بعض أسرار المشاعر التي تمتلئ بها قلوب الكائنات:

الخشوع:

فمنها الخشوع، وهو مجموعة مشاعر سـامية يختلـط فيها الحب بالهيبـة وبالخشـية وبالرجـاء.. وهـو لا يمكن أن يكون إلا لمن امتلأ بالحياة الحقيقية..

قال تعالى واصفا تأثير نزول القرآن على الجبل: ﴿ لَـوْ أَنْزَلْنَـا هَـذَا الْقُـرْآنَ عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِـعاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:21)

بل إنه من فرط الخشوع للتجلي ينـدك، قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ (لأعراف: 143)

بل ينهد لسماع شرك المشركين، قـال تعـالى:﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَـدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ (مريم: 90 ـ91)

وقد ذكر العلماء ـ انطلاقا من هذه الآية ـ الأثر الشديد الـذي خلفـه الشـرك في الأشـياء، فـذكر عن بعضـهم أنـه قال:(إن الله تعالى لمـا خلـق الأرض وخلـق مـا فيهـا من الشجر لم تك في الأرض شجرة يأتيهـا بنـو آدم إلا أصـابوا منها منفعة وكان لهم منها منفعة فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة بني آدم تلك الكلمة العظيمـة وهي قـولهم: ﴿ اتَّخَـذَ الـرَّحْمَنُ وَلَـداً﴾ (مـريم:88)، فلمـا قالوهـا

اقشعرت الأرض وشاك الشجر)[1]

وكان ابن عباس يرجع ما في الأرض من الأذى بسبب هذا قال: (اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار والبحار وما فيها من الحيتان فصار من ذلك الشوك في الحيتان وفي الأشجار الشوك)[2]

ونحن وإن كنا لا نجزم بهذا، ولكنا مع ذلك ندرك أن الصور والخصائص التي نراها للأشياء لها علاقة كبيرة بانفعالاتها التي يسببها سلوكنا، ولذلك قد نستلذ طعوما أو مناظر في بعض الأيام، ثم نستقبحها أياما أخرى، وقد نعزو ذلك إلى نفوسنا فقط ونعزل الكون من هذا الأثر المتناقض للأشياء.

وقد ورد في الآثار ما يدل على سرور الأشياء، والذي قد يسري إلى الناظرين ليشعرهم بالأنس والسعادة، فقد روي أن الجبل يفخر إن مر عليه ذاكر لله تعالى، فعن ابن مسعود قال:(إن الجبل ليقول للجبل: هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله؟ فإن قال: نعم،سُرَّ به) ثم قرأ عبد الله قوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (البقرة:116) قال: (أفتراهن يسمعن الزور ولايسمعن الخير)[3]

وعن أنس بن مالك قال:(ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضا، يا جاره هل مر بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك، فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها)[4]

وقد أخبر القرآن الكريم عن مشاعر الخشية من الله التي تجعل الحجارة تهبط أو تتفجر أو تتشقق.. قال تعالى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

1) رواه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.
2) القرطبي: 11/158.
3) ابن أبي شيبة: 7/110.
4) رواه ابن المبارك في (دقائقه)، انظر: القرطبي:10/267.

يَتَّـقَّقُ فَيَخْـرُجُ مِنْـهُ الْمَـاءُ وَإِنَّ مِنْهَـا لَمَـا يَهْبِـطُ مِنْ خَشْـيَةِ اللَّه[1])(البقرة: 74)

وقد زعم بعضهم أن إسناد الخشوع إلى الحجارة جاء من باب المجاز، كما أسندت الإرادة إلى الجـدار في قولـه تعـالى: فَوَجَـدَا فِيهَـا جِـدَاراً يُرِيـدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَـهُ (الكهف: 77)

ولا حاجة إلى هذا كما ذكرنا، والنصوص الكثـيرة الـتي أوردناها تدل على هذا.

الغضب:

ومن المشاعر التي ورد في النصـوص الحـديث عنهـا الغضب..

فقد أخبرنا القـرآن الكـريم أن جهنم ــ مثلا ــ ليسـت تنورا للعذاب لا عقل له، وإنما هي كائن ككينونـة الإنسـان لها عقل ووعي ومشاعر.

بل إن مصدر عذابها وشدته نابع من غضبها للـه، فهي مغتاظـة على الجاحـدين، كمـا قـال تعـالى: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (الفرقان:12)

وقد صور بعض السلف شدة هذه الزفرة النابعـة من الغيظ بقوله:(إن جهنم لتزفر زفـرة لا يبقى ملـك مقـرب ولا نـبي مرسـل إلا خـرَّ لوجهـه، ترتعـد فرائضـه، حـتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي)[2]

ومثل زفير استقبالها لأهلها، يصورها القرآن الكـريم بصورة الجلاد الحي الذي يتفنن في التعذيب، وهـو مـدرك ماذا يفعل ولماذا يفعل، قال تعـالى: كَلَّا إِنَّهَـا لَظَى نَزَّاعَـةً لِّلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى (المعـارج:15 ـ 18)

فـالقرآن الكـريم عـبر عمـا يحصـل فيهـا من نـزع

---

1) انظر: ابن كثير: 1/114 فقد رد على هذا الزعم بالنصوص الكثيرة.
2) رواه عبد الرزاق.

للشوى[1]، بصيغة (نزاعة) للدلالـة على أن شـخص جهنم الحي هو الذي يؤدي هذه المهمة، بل يخـبر أنهـا تـدعو من أدبر وتولى.

وهذا الغيـظ الـذي تبديـه جهنم لأهلهـا ليس ناتجـا من قسوة طبعية، بل هو كما توضـح النصـوص نـابع من غـيرة إيمانية، وقد قـال ابن عبـاس:(إن الرجـل ليجـر إلى النـار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الـرحمن: مـا لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقـول أرسـلوا عبـدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقـول: فمـا كـان ظنـك؟ فيقـول: أن تسـعني رحمتـك، فيقول: أرسلوا عبدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فتشــهق إليه النار شهقة البغلـة إلى الشـعير، وتزفـر زفـرة لا يبقى أحد إلا خاف)[2]

والقرآن الكريم يخبرنـا بـأن جهنم ــ لشـوقها لأهلهـا ـ تدرك بما أعطاها اللـه من البصـيرة أن هنـاك من لا يـزال خارجها، فلذلك تطالب بالمزيـد، قـال تعـالى: يَـوْمَ نَقُـولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (قّ:30)

والجنـة في القـرآن الكـريم، وكمـا توضـح الأخبـار والآثار المفسرة له ــ مثـل جهنم وكـل مكونـات العـالم الآخر ـ كائن حي مدرك متكلم، له مشـاعره الوجدانيـة، جعله الله تعـالى محلا لرحمتـه، ومجلى لصـفات فضـله وكرمه.

وقد ورد في الآثار ما يدل على شـوق الجنـة لأهلهـا شـوقا لا يقـل عن شـوق أهلهـا إليهـا، قـال ﷺ:(قـالت الجنة: يا رب قد أطردت انهاري وطـابت ثمـاري فعجـل على بأهلي)[3]

الشفقة:

---

1) قال ابن عباس: جلدة الرأس، انظر: الطبري: 29/76، ابن كثير: 4/422.

2) ذكره ابن جرير في تفسيره وقـال ابن كثـير: إسـناده صـحيح، انظـر: الطـبري: 18/187، ابن كثير: 3/312.

3) رواه الليث بن سعد.

ومنها شعور الشفقة هيبة من الله وإجلالا له، قال ﷺ: (إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر فيه خمس خلال خلق الله فيه آدم وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض وفيه توفى الله آدم وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئا إلا أعطاه ما لم يسأل حراما وفيه تقوم الساعة ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة)(1)

والذراع المسمومة تشفق على رسول الله ﷺ، فتخبره عن سميتها(2).

والجبل يشفق على رسول الله ﷺ، كما روي أن النبي ﷺ قال:(قال لي ثبير اهبط فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله. فناداه حراء: إلي يا رسول الله)(3)

والشجر يمشي حين يدعوه رسول الله ﷺ .

والجذع يحن لفقد رسول الله ﷺ، فلا يسكن حتى يضمه ﷺ، عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى لزق جذع فأتاه رجل رومي فقال أصنع لك منبرا تخطب عليه فصنع له منبرا هذا الذي ترون، قال فلما قام عليه النبي ﷺ يخطب حن الجذع حنين الناقة إلى ولدها، فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمه إليه فسكن فأمر به أن يحفر له ويدفن)(4)

وقد كان ﷺ يبادل هذه الأشياء مشاعرها، فكان يقول عن أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه)(5)

الرحمة:

ومن المشاعر التي ورد في النصوص المقدسة نسبتها للكائنات مشاعر الرحمة.. وهي من المشاعر

1) رواه أحمد وابن ماجة.
2) انظر: شعب الإيمان: 1/160.
3) أورده القرطبي: 1/466. ولا نعلم درجته.
4) الترمذي: 2/379، الدارمي: 29.
5) البخاري: 2/539، مسلم: 2/993.

العظيمة التي تستدعي منتهى الكمال والرقي.

ومن ذلــك مــا ورد في النصــوص من الإخبــار عن المشــاعر الفائضــة من قلــوب الأشــياء دموعــا رحمــة للمؤمن، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَمَـا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان:29)

فهذا البكاء الذي أخـبر عنـه القـرآن الكـريم ليس من جنس مـا كـانت تعـبر بـه العـرب عن أحزانهـا، كمـا قـال الشاعر:

فالريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة

وقال آخر:

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وقالت الأخرى:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

لأن النصوص المقدسة لا يدخلها مثل هذا التأويل، ولو ورد في كلام العرب، فلا النقل ينفيه، ولا العقل يحيله.

بل قد ورد في النقل ما يدل عليه، ومن ذلك قوله ﷺ :(ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان، بـاب يـنزل منـه رزقه، وباب يـدخل منـه كلامـه وعملـه، فـإذا مـات فقـداه فبكيا عليـه، ثم تلا قولـه تعـالى:﴿ فَمَـا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّـمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ (الدخان: 29)[1]

ولهـذا أخـبر القـرآن الكـريم بعـدم بكـاء السـموات والأرض على الكفــار، لأنهم لم يعملــوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم لأجله، ولا صعد لهم إلى السـماء عمـل صالح فتبكي فقده، قال علي:(إنه يبكي عليـه مصـلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء)[2]

وكمـا تبكي الأرض والسـماء على المـؤمن، تستبشـر

1) رواه الترمذي.
2) انظر هذه الآثاروغيرها في: القرطبي: 16/140، ابن كثير: 4/143.

به، وقد قال أنس:(لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء كل شيء، فلما كان اليوم الذي قبض فيه أظلم كل شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيدي منه حتى أنكرنا قلوبنا)(1)

ولهذا لا يصح اعتبار المسلم غريبا ما دام محاطا بكل هذه المشاعر الفياضة التي تتدفق من حوله، قال ﷺ:(إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيامة قيل: من هم يا رسول الله؟ قال - هم الذين إذا فسد الناس صلحوا - ثم قال - ألا لا غربة على مؤمن، وما مات مؤمن في غربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض) ثم قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ، ثم قال:(ألا إنهما لا يبكيان على الكافر)(2)

وكما أن المؤمن يعيش بصحبة هذه المشاعر الفياضة التي تفيض عليه من الكون، فإن الكافر والغافل بعكس ذلك، فقد أخبر ﷺ أن البلاد والشجر والدواب تستريح من أذى العبد الفاجر، فقد روي أن جنازة مرت على رسول الله ﷺ فقال:(مستريح ومستراح منه) قالوا:(يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه) قال:(العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)(3)

وقد ذكر العلماء وجوها من استراحة الكون من العبد الفاجر الكافر أو العاصي منها أن العباد يستريحون من ظلمه لهم، وما يأتي به من المنكر، فإن أنكروا آذاهم، وإن تركوه أثموا.

والبلاد تستريح مما يفعله فيها من المعاصي، فيحصل الجدب، ويهلك الحرث والنسل، أو لغصبها ومنعها من حقها.

---

1) ابن ماجة.
2) البيهقي في الشعب.
3) رواه البخاري ومسلم.

والشجر يستريح منه لقلعه إياه غصبا أو غصب ثمره.

والدواب تستريح منه لاستعماله لها فوق طاقتها، وتقصيره في علفها وسقيها(1).

وهي وجوه لا يراد بها الحصر، فالتأذي الذي يحصل لها من جنس التأذي الذي يحصل للمؤمن عندما يسمع كلمة الكفر، وقد ذكرنا سابقا قوله تعالى عن تأثير كلمة الكفر على الأشياء: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ (مريم: 90)

بل ورد في النصوص والآثار أن العلاقة بين المؤمن والكون ليست علاقة مشاعر فقط، بل هي علاقة تعاون وتكافل، فقد أخبر ﷺ أنه:(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر أو الشجرة فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)(2)

وأخبر ابن عباس عن عابد كان يتعبد في غار فكان يأتيه غراب كل يوم برغيف حتى مات العابد.

التعظيم:

من المشاعر التي ورد في النصوص نسبتها لهذه الكائنات التعظيم.. وهو نابع من معارف كثيرة لا يمكن أن تكون إلا لحي عاقل قد اكتمل له الحياة والعقل.

فقد ورد في النصوص ما يدل على تعظم الكائنات لرسول الله ﷺ بسجود الاحترام والتقدير.

فقد روي أن رسول الله ﷺ كان في نفر من المهاجرين والأنصار، فجاء بعير فسجد له، فقال أصحابه: (يا رسول الله تسجد لك البهائم والشجر، فنحن أحق أن نسجد لك) فقال:(اعبدوا ربكم، وأكرموا أخاكم)(3)

وفي الحديث دليل على تكرر ذلك من البهائم

---

1) انظر: شرح الزرقاني: 2/125.
2) مسلم.
3) أحمد.

المختلفة والشجر.

ومن هذا الباب طاعتها لرسول الله ﷺ وشهادتها لـه، فقـد روي أن أعرابيـا دنـا من رسـول اللـه ﷺ، فقـال لـه رسول الله ﷺ: أين تريـد؟ قـال: إلى أهلي قـال: هـل لـك في خير، قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسـوله، قـال: ومن يشـهد على ما تقول، قال: هذه السلمة، فدعاها رسـول اللـه ﷺ وهي بشـاطئ الـوادي، فـأقبلت تخـد الأرض خـدا، حـتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثـا، فشـهدت ثلاثـا أنـه كمـا قـال، ثم رجعت إلى منبتهـا، ورجـع الأعـرابي إلى قومـه، وقال: إن اتبعوني أتيتك بهم وإلا رجعت فكنت معك(1).

وقد تكرر ذلك مرات مختلفة، منهـا أنـه جـاء أعـرابي إلى رسول الله ﷺ فقال:(بم أعرف أنك نـبي) قـال:(إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول اللـه) فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حـتى سـقط إلى النبي ﷺ ثم قال:(ارجع) فعاد فأسلم الأعرابي(2).

وقد كان احترام الكائنات لرسـول اللـه ﷺ وتعظيمهـا له ومعرفتهـا بمنزلتـه عنـد اللـه داعيـة لهـا للاسـتجارة بـه واللجوء إلى بابه كما يلجأ الصـادقون، وقـد روي من ذلـك أن جزارا فتح بابا على شـاة ليـذبحها، فـانفلتت منـه حـتى جاءت النـبي ﷺ فتبعهـا وأخـذ يسـحبها برجلهـا، فقـال لهـا النبي ﷺ: (اصبري لأمر الله، وأنت يا جـزار فسـقها سـوقا رفيقا)(3)

وروي مثل ذلـك عن جمـل جـاء إلى رسـول اللـه ﷺ يشكو صاحبه، فقد دخل رسول الله ﷺ حائطـا لرجـل من الأنصـار فـإذا فيـه جمـل، فلمـا رأى النـبي ﷺ حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله ﷺ فمسـح ذفـراه فسـكت فقـال: من رب هـذا الجمـل؟ لمن هـذا الجمـل؟ فجـاء فـتى من

1) الدارمي: 22، مسند أبي يعلى: 10/34.
2) الترمذي: 5/594، الأحاديث المختارة: 9/539.
3) رواه عبد الرزاق.

الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال ﷺ:(أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتذيبه)[1]

وفي رواية أخرى أو في حادثة أخرى عن يعلى بن مرة قال:(كنت مع النبي ﷺ جالسا ذات يوم إذ جاء جمل يخبب حتى ضرب بجرانه بين يديه ثم ذرفت عيناه، فقال: ويحك انظر لمن هذا الجمل؟ إن له لشأنا، قال فخرجت ألتمس صاحبه فوجدته لرجل من الأنصار فدعوته إليه فقال: ما شأن جملك هذا؟ فقال: وما شأنه؟ لا أدرى والله ما شأنه، حملنا عليه ونضحنا عليه حتى عجز عن السقاية فأتمرنا البارحة أن ننحره ونقسم لحمه، قال: لا تفعل هبه لي أو بعنيه، فقال: بل هو لك يا رسول الله، قال: فوسمه بميسم الصدقة ثم بعث به)[2]

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال لصاحب البعير:(ما لبعيرك يشكوك؟ زعم أنك سنأته حتى كبر تريد أن تنحره، قال: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أفعل)

وفي رواية أخرى أو حادثة أخرى قال رسول الله ﷺ لصاحب البعير:(بعنيه)، فقال:(لا بل أهبه لك يا رسول الله، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره)، فقال:(أما إذا ذكرت هذا من أمره فإنه شكا كثرة العمل وقلة العلف، فأحسنوا إليه)

ومثل ذلك روي عن أنس قال: مر رسول الله ﷺ على قوم قد صادوا ظبية فشدوها إلى عمود فسطاط، فقالت: يا رسول الله إني وضعت ولدين خشفين، فاستأذن لي أن ارضعهما ثم أعود، فقال رسول الله ﷺ: خلوا عنها حتى تأتى خشفيها فترضعهما وتأتي إليكما، قالوا: ومن لنا بذلك يا رسول الله؟قال أنا. فأطلقوها فذهبت فأرضعتهما ثم رجعت إليهما فاوثقوها، قال:

---

1) رواه أحمد وأبو داود.
2) رواه أحمد.

أتبيعونها؟ قالوا: يا رسول الله هي لك، فخلوا عنها، فأطلقوها، فذهبت(1).

3 ـ التعبير

من أهم مظاهر الحياة القدرة على التعبير.. وهي وإن كانت ليست شرطا في الحياة إلا أن كمال الحياة لا يتحقق إلا بها.

وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الطاقة التي تتمتع بها الأشياء، بل أخبر أن هذه الطاقة زودت بها الأشياء منذ ولادتها، فقد قال تعالى عن الكون المتشكل من السموات والأرض: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت:11)(2)

وأخبر عن الإنسان أنه تحدث، وهو لا يزال في عالم الذر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (لأعراف:172)

بل أخبر أن الكافرين يكتشفون يوم القيامة هذه القدرة التي تتمتع بها الكائنات التي كانوا يحسبونها جامدة، قال تعالى حكاية عن كلام الجلود بعد تعجب الكفار من كلامها: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (فصلت: 21)

بالإضافة إلى هذا، فقد ورد في النصوص أن الجنة تتكلم، وتعقل أهلها، قال ﷺ:(لما خلق الله جنة عدن

---

1) رواه الطبراني.

2) استطاع العلم الحديث ـ بما زود من وسائل ـ أن يتوصل إلى ما يدل على هذا الحديث الكوني، وقد كان شرف هذا الاكتشاف لأحد علماء الفضاء، وهو البروفيسور (مارك ويتل) من جامعة فيرجينيا.. فقد تحدث هذا العالم عن الأمواج الصوتية التي أطلقها الكون عندما كان عمره 380 ألف سنة، واستمر هذا الصوت الناتج عن تمدد وتوسع الكون حتى أصبح عمر الكون مليون سنة، عندها بدأت النجوم الأولى بالتشكل. (انظر: السماء تتكلّم! حقائق كونية حديثة جداً تتجلّى في القرآن، بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل، من موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) وانظر في هذا: رسالة (معجزات علمية)

خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشـــر ثم قـــال لهـــا تكلمي فقـــالت: قـــد أفلح المؤمنون)[1]

وقد أخبرنا ﷺ عن حوار جرى بين الجنة والنار، فقال: (تحاجت الجنـة والنـار، فقـالت النـار: أوثـرت بـالمتكبرين والتمجـبرين؛ وقـالت الجنـة: مـالي لا يـدخلني إلا ضـعفاء الناس وسقطهم؟ قال اللّه عزَّ وجلَّ، للجنـة: أنت رحمـتي أرحم بـك من أشـاء من عبـادي، وقـال للنـار: إنمـا أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها)[2]

وهذه النصوص وغيرها تدل على حياة العالم الآخــر ووعيه وإدراكه وشعوره، وهو مـا يهب ذوقـا خاصـا لمن تأمله وعاشه.

فإدراك المؤمن ـ مثلا ـ بأن هذه الأرض التي يعيش فيها، والتي لم يسمع حديثها، أو لم يخطر على باله أنهـا تتحدث، ستتحدث يوما ما لتخـبره بكـل حركـة قـام بهـا على ظهرهـا، يجعلـه محتاطـا متأدبـا متواضـعا، فهـو لا يركب جمادا لا يعقل، بل هو يمتطي كائنا حيـا لـه وعيـه ومشاعره.

قال تعالى مصـورا ذلـك اليـوم: إِذَا زُلْـزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْـرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَـا وَقَـالَ الْإِنسَـانُ مَـا لَهَـا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (الزلزلة)

وقد فسر ﷺ حديث الأرض في ذلـك اليـوم العظيم بقولـه بعـد أن تلا قولـه تعـالى: يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَا (الزلزلة:4):(أتدرون ما أخبارها؟ قـالوا: اللّـه ورسـوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمـل كـذا وكـذا يـوم كـذا وكذا، فهذه أخبارها)[3]

1) المعجم الكبير للطبراني: 11/184.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

ولهــذا ورد في الحــديث الأمــر بمراعــاة الأرض والتحفــظ منهــا، قــال ﷺ:(تحفظــوا من الأرض فإنهــا أمكم، وإنه ليس من أحد عامـل عليهـا خـيراً أو شـراً إلا وهي مخبرة)(1)

بل أخبر ﷺ أن بعض هذا الكشف سيحصل في الـدنيا عندما تقترب رحلتها من الدار الآخرة، أو في البرزخ الـذي بين الدنيا والآخرة، قال ﷺ:(والـذي نفسـي بيـده لا تقـوم السـاعة حـتى تكلم السـباع الإنسـان وحـتى تكلم الرجـل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بمـا أحـدث أهلـه من بعده)(2)

وليس ذلك خاصا بالآخرة.. ولا بالبرزخ الذي بين الدنيا والآخرة، بل ورد في النصوص مـا يشـمل الـدنيا والآخـرة، وقد قال رسول اللـه ﷺ:(إني لأعـرف حجـرا بمكـة كـان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن)(3)

هذا في عالم الجماد، أما في عالم الحيوان، فقد ذكـر القرآن الكريم منطق حيوانين هما الهدهد والنملة:

أما الهدهد، فقد وردت قصته في قولـه تعـالى إخبـارا عن بعض ما وهب سليمان عليه السلام من الملـك أنـه ذات يـوم: ﴿ تَفَقَّدَ الطَّيْـرَ فَقَـالَ مَـا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُـدَ أَمْ كَـانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (النمل: 20)

وبنبرة الحزم الـتي تقتضـيها السـلطة، قـال:﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُـلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمـل: 21)

وبعد مدة جـاء الهدهـد، ومعـه الحجـة الـتي يـبرر بهـا غيابه، وهي حجـة جعلتـه يـدخل على سـليمان عليه السلام مزهـوا فاخرا، ليقول له:﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُـكَ مِن سَـبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل: 22)

ثم ذكر النبأ اليقين الذي جاء به، فقـال:﴿ إِنِّي وَجَـدتُّ

1) الطبراني في المعجم الكبير.
2) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان.
3) رواه مسلم.

امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿ (النمل: 23)

وبنبرة الغاضب لله قال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿ (النمل: 24)

وبنبرة العارف بالله والناصح لخلق الله قال: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)﴿ (النمل)

وقد عبر عن معرفته لله بحسب حاله، فذكر من صفات الله أنه ﴿ يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

أما النملة، فقد وردت قصتها في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ (النمل: 18)

وهي تمثل بقولها هذا عالما جليلا من عوالم الرحمة والتكافل والأدب مما يقصر الكثير من البشر المتطاولون عن البلوغ إليه.

فقد كانت في موضع تهديد بوطء جيش سليمان عليه السلام لها، فلم تكتف في تلك اللحظة المملوءة بالرعب أن تفر بنفسها، بل التفتت إلى النمل من أصحابها أن يفروا بأنفسهم.

وهي في تلك اللحظة لم تتخل عن الأدب، فذكرت عذر سليمان عليه السلام وجنوده، وهو أنهم قد يطؤونهم من غير شعور منهم، وهو خلق نبيل قل من يكون عليه من البشر.

وقد كانت هذه النملة ينبوعا من المنابع التي فاضت منها الروايات الكثيرة عن عالم النمل:

ومنها ما روي أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي

بالناس، فمر بنملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول:(اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك، فاما أن تسقينا وإما أن تهلكنا)، فقال سليمان عليه السلام للناس:(ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم)(1)

وقد كانت لذلك ـ أيضا ـ منبعا للرحمة والشفقة ـ كما وردت بذلك النصوص والآثار، ومنها أن النبي ﷺ رأى قرية نمل قد حرقت، فقال: من حرق هذه؟ قالوا: نحن، قال: (إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)(2)

وورد في الحديث أن النبي ﷺ:(نهى عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد)(3)

ولعل أكثر الحيوانات قدرة على التعبير كما ورد في النصوص والآثار هي الطيور، فهي بنغماتها المختلفة الجاذبة للقلوب تعبر عن أسمى المعاني، وأشرف الحقائق.

وسنهتدي بنور قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ (النمل: 16) لنسمع بعض أغاني الطيور، دون اهتمام بأسانيد ما نذكره أو مدى صحته.

بل إنا نحاول أن نجعل من الطيور هداة نهتدي بها، ومواعظ عبرة نعتبر بها، ونأكل البقلة من ألسنتها دون أن نسأل عن البقال(4):

وأول ما نتعلمه من الطيور الزهد والقناعة التي عبر عنها هذا البلبل الزاهد الذي مر به سليمان عليه السلام وهو على فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال سليمان عليه السلام لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا نبي الله. قال: إنه يقول: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء.

ونتعلم الأدب من هذا الطائر المؤدب الذي عرف كيف يخاطب نبي الله، فقد كان سليمان عليه السلام جالسا ذات

---

1) الدر المنثور: 6/345.
2) رواه أبو داود.
3) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.
4) انظر هذه الآثار في: الدر المنثور: 6/344،

يوم إذ مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه: أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلام عليك أيها الملك المسلط والنبي لبني إسرائيل! أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى أفراخي ثم أمر بك الثانية؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقال إنه يقول: السلام عليك أيها الملك المسلط، إن شئت أن تأذن لي كيما أكتسب على أفراخي حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بي ما شئت. فأخبرهم سليمان بما قال؛ وأذن له فانطلق.

ونتعلم الإيمان بالقضاء والقدر من الهدهد الذي مر به سليمان عليه السلام، وهو فوق شجرة وقد نصب له صبي فخا فقال له سليمان: احذر يا هدهد! فقال: يا نبي الله! هذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به، ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حبالة الصبي وهو في يده، فقال: هدهد ما هذا؟ قال: ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبي الله، قال: ويحك! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ! قال: يا نبي الله إذا نزل القضاء عمي البصر.

ونتعلم قصر الأمل من هذا الورشان الذي صاح عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب. وصاحت فاختة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: ليت هذا الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

ونتعلم وجوها من الأخلاق من هذه الطيور التي صاحت عنده، وفسرها لنا:

فقد صاح عنده طاوس، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: كما تدين تدان.

وصاح عنده هدهد فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنه يقول: من لا يرحم لا يرحم.

وصاح صرد عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين.

وصاحت عنده طيطوى فقال: أتدرون ما تقول؟

قالوا: لا. قال: إنها تقول: كل حي ميت وكل جديد بال.
وصاحت خطافة عنده، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: قدموا خيرا تجدوه.
ونتعلم صنوف الذكر من هذه الطيور التي فسر لنا سليمان عليه السلام منطقها:
فقد هدرت حمامة عنده، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد ما في سماواته وأرضه.
وصاح قمري عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال إنه يقول: سبحان ربي العظيم المهيمن.
وصاح دراج عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:5)
وحدثهم عن الغراب أنه يقول:(اللهم العن العشار)
وعن الحدأة أنها تقول:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه ﴾ (القصص: 88)
وعن القطاة أنها تقول:(من سكت سلم)
وعن الببغاء أنها تقول:(ويل لمن الدنيا همه)
وعن الضفدع أنها تقول:(سبحان ربي القدوس)
وعن البازي أنه يقول:(سبحان ربي وبحمده)
وعن السرطان أنه يقول:(سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان)
وهذه النصوص التي أوردناها ــ مع القول باحتمال صحتها وعدمه ـ الغرض منها هو التنبيه إلى الحكم التي نطقت بها، والمعارف التي منحتها.
أما المبالغة في ذلك ــ مما ينتشر بين العامة ــ من التفاؤل بالطيور وأصواتها أو التشاؤم بها، فهو محرم شرعا، كتحريم التنجيم سواء بسواء.
فالأقدار بيد الله لا بيد الطيور أو النجوم أو الكهان، وقد روي أن طائرا مر على ابن عباس وهو يصيح؛ فقال رجل من القوم: خير، خير. فقال ابن عباس: ما عند هذا لا

خير ولا شر.

وقد كانت العرب تتيمن بالسانح، وهو الـذي يـأتي من ناحية اليمين، وتتشاءم بالبارح، وهو الـذي يـأتي من ناحيـة الشــمال، وكــانوا يتطــيرون بصــوت الغــراب؛ ويتأولونــه البين(1).

وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضـها بعضـا على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلــك، ومثلهـا الظبـاء إذا مضـت سـانحة أو بارحـة، ويقولـون إذا برحت:(من لي بالسانح بعد البارح)

ولهـذا سـمي التشـاؤم تطـيرا، وقـد جـاءت الشـريعة بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائر مـا كان، وعلى أي حال كان:

فنفى ﷺ نسبة المتطـير عن الأمـة، قـال ﷺ:(لن يلج الدرجا ت العلى من تكهن أو استقسم أو رجع من سـفره تطيرا)(2)

بل اعتبر التطير شـركا، فقـال ﷺ:(الطـيرة شـرك - ثلاثا - وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل)(3)

وعلمنا ﷺ كيف نوحد الله، وننفي الشرك عند التطـير بقولـه ﷺ:(من رجعتـه الطـيرة عن حاجتـه فقـد أشـرك) قيل: ومـا كفـارة ذلـك يـا رسـول اللـه؟ قـال: (أن يقـول أحدهم اللهم لا طـير إلا طـيرك ولا خـير إلا خـيرك ولا إلـه غيرك ثم يمضي لحاجته)(4)

وفي حديث آخر علمنا أن نقول:(إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بك)(5)

1) وكان منهم أيضـا من لا يـرى التطـير شـيئا، ويمـدحون من كـذب بـه، كمـا قـال المرقش:

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

2) رواه الطبراني في الكبير.
3) رواه أحمد والبخاري في الأدب.
4) رواه أحمد والطبراني في الكبير وابن السني في عمل اليوم والليلة.
5) رواه ابن السني.

ونهى ﷺ عن كل سبب يؤدي إلى التطـير، فقـال ﷺ: (أقروا الطير على مكناتها(1)) (2)

وذلك أن كثيرا من أهل الجاهلية كـان إذا أراد الحاجـة أتى الطـير في وكرهـا فنفرهـا؛ فـإذا أخـذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هـو السـانح عنـدهم، وإن أخـذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم، فنهى النــبي ﷺ عن هذا.

ولكن الخرافـة مـع ذلـك لا تعـني سـد البـاب مطلقـا، ولذلك لا نرى أن العلم بمنطق الطير أو غيره من الأشـياء خاص بسليمان عليه السلام، فالنصوص الكثيرة تنفي ذلـك، ويكفي ما أخبر ﷺ عنـد ذكـره لعلامـات السـاعة:(والـذي نفسـي بيده لا تقوم السـاعة حـتى تكلم السـباع الإنسـان، وحـتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخـذه بمـا أحدث أهله من بعده)(3)

وقد نفى الألوسي أن يكون ذلك خاصـا بسـليمان عليه السلام بقوله:(وقيل كانت الطير تكلمـه عليه السلام معجـزة لـه نحـو مـا وقــع من الهدهــد، وقيــل علم عليه السلام ماتقصــده الطــير في أصـواتها في سـائر أحوالهـا فيفهم تسـبيحها ووعظهـا ومـا تخاطبه به عليه السلام وما يخاطب به بعضها بعضا، وبالجملـة علم من منطقهــا مــا علم الانســان من منطــق بــني صــنفه، ولايستبعد أن يكون للطير نفوس ناطقة ولغات مخصوصة تؤدي بها مقاصـدها كمـا في نـوع الانسـان إلا أن النفـوس الانسانية أقوى وأكمل، ولايبعـد أن تكـون متفاوتـة تفـاوت النفوس الانسانية الذي قال بـه من قـال، ويجـوز أن يعلم اللـه تعـالى منطقهـا من شـاء من عبـاده ولا يختص ذلـك بالأنبيــاء عليهم الســلام ويجــري مــا ذكرنــاه في ســائر

1) الوكنة: اسم لكل وكر وعش، والوكن: موضع الطائر الذي يبيض فيه ويفرخ، وهو الخرق في الحيطان والشجر.
2) رواه أبو داود والحاكم.
3) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان.

الحيوانات)[1]

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني يتحدث عن نفسه:(وقد وقع لي في ابتداء أمري أني كنت أسمع كلام من في أقطار الأرض من الهند والصين وغيرهما، حتى أني كنت أسمع كلام السمك في البحار المحيطة، ثم إن الله تعالى حجب عني وأبقى معي العلم كي لا أنكر مثل ذلك على أحد)[2]

ولذلك نرى أنه يمكن للبشر أن يفهموا لغة الحيوانات سواء عن طريق الكرامة أو الاستدراج أو حتى بالدراسة والبحث، مع قصور البحث عن الوصول إلى كل ما يعبر به الحيوان عن نفسه، فالعلم في صورته الحديثة قاصر على معرفة الحاجات المادية للأشياء.

وفي هذا المجال أثبتت الدراسات العلمية[3] أن لكل نوع من أنواع الحيوانات رائحة خاصة به، وداخل النوع الواحد هناك روائح إضافية تعمل بمثابة بطاقة شخصية أو جواز سفر للتعريف بشخصية كل حيوان أو العائلات المختلفة، أو أفراد المستعمرات المختلفة.

و الرائحة تعتبر لغة خفية أو رسالة صامتة تتكون مفرداتها من مواد كيماوية أطلق عليها العلماء اسم (فرمونات)، وهي بمثابة الحروف.

وكمثال على لغات الحيوان، نعود إلى عالم النمل، فالعلم الحديث ينص على أن النمل يتميز برائحة خاصة تدل على العش الذي ينتمي إليه، والوظيفة التي تؤديها كل نملة في هذا العش، وحينما تلتقي نملتان فإنهما تستخدمان قرون الاستشعار، وهي الأعضاء الخاصة بالشم، لتعرف الواحدة الأخرى.

وقد وجد أنه إذا دخلت نملة غريبة مستعمرة لا تنتمي إليها، فإن النمل في هذه المستعمرة يتعرفها من طريق

1) تفسير الألوسي.
2) العهود المحمدية.
3) انظر: رحيق العلم والإيمان، للدكتور أحمد فؤاد باشا.

رائحتهـا ويعـدها عـدواً، ثم يبـدأ في الهجـوم عليهـا، ومن الطريف أنه في إحـدى التجـارب المعمليـة وجـد أن إزالـة الرائحــة الخاصــة ببعض النمــل التــابع لعشــيرة معينــة ثم إضافة رائحـة رائحـة خاصـة بنـوع آخـر عـدو لـه، أدى إلى مهاجمته بأفراد من عشيرته نفسها.

وفي تجربة أخرى تم غمس نملة برائحة نملة ميتة ثم أعيدت إلى عشها، فلوحظ أن أقرانها يخرجونها من العش لكونها ميتة، وفي كل مرة تحاول فيها العودة يتم إخراجهـا ثانية على الرغم من أنها حية تتحرك وتقاوم، وحينمـا تمت إزالة رائحة الموت فقط تم السـماح لهـذه النملـة بالبقـاء في العش.

وحينما تعثر النملة الكشافة على مصدر للطعام فإنهـا تقــوم على الفــور بــإفراز (الفرمــون) اللازم من الغــدد الموجودة في بطنها لتعليم المكـان، ثم ترجـع إلى العش، وفي طريق عودتها لا تنسـى تعليم الطريـق حـتى يتعقبهـا زملاؤها، وفي الـوقت نفسـه يصـيفون مزيـداً من الإفـراز لتسهيل الطريق أكثر فأكثر.

ومن العجيب أن النمل يقلـل الإفـراز عنـدما يتضـاءل مصدر الطعام ويرسل عـددا أقـل من الأفـراد إلى مصـدر الطعام، وحينما ينضب هذا المصدر تماماً فـإن آخـر نملـة، وهي عائدة إلى العش لا تترك أثراً على الإطلاق.

بالإضافة إلى هذا، فقد أثبت العلم الحديث(1) أن لكـل نـوع من أنـواع الحيوانـات لغـة خاصـة بـه، يتفـاهم بهـا، ويتعـارف مـع غـيره على أحـوال مـا حولـه.. فهـذه هي الدجاجة التي تصدر أصواتاً ممـيزة، فـنرى صـغارها أقبلت في سرعة تلتقط معها الحب.. وتصدر أصواتاً مخافة، فإذا بالصغار تهرول إلى العش في لحظة.

يقول (ألن ديفو) ـ وهو أحد علماء الحيوان ـ أنه وقف يوماً يراقب ثلاثة من صـغار الثعلب تلعب حـول أمهـا، وإذا

1) انظر: (الله والعلم الحديث)، عبد الرزاق نوفل.

بصغير منها يدخل في الغابة، ويبتعد عنها بعـدا بحيث غـاب عن النظر، فاستوت الأم قائمـة ومـدت أنفهـا إلى الناحيـة التي ذهب منها، وبقيت على حالها هـذه برهـة عـاد بعـدها الصغير في اتجاه أمه لا يلتفت يمنة أو يسرة، كأنما كـانت تجذبه بخيط لا تراه العين.

ومثـل ذلـك وجـدوا أن النحلـة إذا عـثرت على حقـل مزهر عادت إلى الخليـة، ومـا إن تتوسـطها حـتى تـرقص رقصاً خاصاً، فإذا بالنحـل ينـدفع إليهـا، ويسـير خلفهـا إلى حيث تهديه النحلة إلى الزهور.

ويتكلم نمـل الشـجر في المنـاطق الاسـتوائية بلغـة عجيبة، إذ يصعد إلى الشجرة ويـدق دقـات غـير منتظمـة، تقـارب إشـارات مـورس التلغرافيـة، ويبلـغ من قوتهـا أن تسمع من بعيد.

وقـد لوحـظ أن أسـراب الفيلـة، لا تكـف لحظـة عن غمغمة، طالما هي تسير في رهط، فإذا تفرقت الجماعـة، وسـار كـل فيـل على حـدة انقطـع الصـوت تمامـاً.. ومن أعجب ما يؤيد لغة الفيلـة، تلـك الأصـوات المزعجـة الـتي تلاحـظ عنـدما تجتمـع الفيلـة على المحكـوم عليـه ليعيش وحيدا ويسير منفرداً..

وأصوات الغراب ممـيزة تمـيزاً واضـحاً.. فنعيبـه أكـبر على الخطر، وهو يصدره ليحذر به أبناء جنسه، بينما يصدر في مرحه ولعبه أصواتاً أخرى تقرب من القهقهة.

ويفهم الحيوان لغة الإنسان ويستجيب لها، كمـا يـدعو الإنسان الدجاج إلى الغذاء بصـوت معـروف، ويـدعو الإوز والبط بصوت مغاير، ويدعو الدواب إلى الشراب بالصـفير كما يستطيع الأولاد في الريف عند صيد السمك من جذبـه قريبـاً منهم بأصـوات خاصـة، وكلنـا نعلم أن الكلب في المنزل يعرف بـل ينفـذ أوامـر سـيده، وفي أمريكـا رجـل اسمه (جاك ماينز) تخصص في دراسـة الإوز الـبري، وبلـغ من علمه بلغتها، أنـه يسـتطيع أن يـدعو سـربا طـائراً إلى

النزول، حيث يختفي وذل بأن يخاطب الإوز بلغتها ويخبرها بوجود بركة صالحة وطعام كثير.

وما ذكره العلم الحديث من هذا هو بداية فقط.. ويمكن للعلم في المستقبل أن يتعرف على الكثير من المعارف في هذا الجانب، بل يمكنه لو تخلى من منطق الصراع الذي يتعامل به مع الكون أن يعقد صداقة حميمة مع الكائنات جميعا، فيستفيد منها من غير أن يؤذيها ومن غير أن تؤذيه.

وهذه العلاقة النافعة لا تقتصر على منافع الدنيا مما قد يكون كرامة لبعض الصالحين، أو لحاجة من الحاجات، بل هي عامة شاملة، يمكن حصولها إن توفرت أسبابها:

فجميع الأشياء تشهد للمؤذن، قال ﷺ:(لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)(1)، وقال ﷺ:(يغفر للمؤذن منتهى أذانه ويستغفر له كل رطب ويابس سمعه)(2)

وسر هذا هو ما ذكرنا سابقا من أن جميع الأشياء تفرح لذكر الله، وهذا الفرح يبعثها على مجازاة من يسمعها هذا الذكر بالاستغفار والشهادة له، وصوت المؤذن الذي يجتهد في رفع صوته ليبلغها هذا، يكون جزاؤه بحسب منتهى آذانه.

4 ـ التحضر:

نقصد بالتحضر في هذا المبحث مرحلة من مراحل الحياة، أو صفة من صفات الأحياء.. وهي ترتبط بتعامل الحي مع العالم الخارجي.. ومحاولته الانسجام معه إما بصنوف التنظيم، وإما بالأخلاق والآداب، وإما بالقوانين والنظم، وإما بالبحث في سبل تيسير الحياة، وتوفير المرافق التي تتطلبها.

ويشير إلى هذا النوع من الحياة، أو من أوصاف

---

1) رواه البخاري.
2) رواه أحمد والطبراني في الكبير والبزار.

الحياة قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:38)

فالآية تقرر حقيقة جليلة تهذب علاقتنا بغيرنا في هذا الكون، وهي أنه (ما من دابة تدب على الأرض - وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات - وما من طائر يطير بجناحية في الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة.. ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك.. شأنها في هذا شأن أمة الناس)(1)

و لا تكون هذه المخلوقات أمما إلا إذا كان لها من الوعي والإدراك ما تقيم به الروابط الاجتماعية فيما بينها، وهذا بدوره يستدعي توفر وسائل خاصة للتفاهم فيما بينها، وهو ما كشف عنه العلم الحديث في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحشرات والحيوان.

وسنحاول انطلاقا من النصوص المقدسة، ومن خلال ما اكتشفه العلم أن نبحث في دلائل أممية الكائنات الحية، وما وهبته من قدرات على التحضر.

التنظيم:

ويشير إليه من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل:18)

ففي هذه الآية إشارة إلى أن عالم النمل عالم منظم محكوم بقوانين لا يخالفها، فهذه النملة لم تكتف بالهرب بنفسها، بل دعت سائر النمل، ولولا علمها بأنهن سيطعنها ما فعلت.

ولا بأس أن نقتبس هنا ـ مهتدين بنور الآية ـ بعض ما

---

1) في ظلال القرآن: 2/1080.

اكتشفه العلم الحديث(2) من مجتمعات النمل الدالــة على وعي هذه الحشرة الصغيرة بما تفعله.

ذكــر أحــد علمــاء التــاريخ الطــبيعي، وهــو (رويــال ديكنسون) في كتابه (شخصية الحشرات) أنه ظل يدرس مدينة النمل حـوالي عشـرين عامـاً في بقـاع مختلفـة من العـالم فوجـد نظامـاً لا يمكن أن نـراه في مـدن البشـر، وراقبه وهو يرعى أبقاره، وهي عبارة عن خنافس صـغيرة رباها النمل في جوف الأرض زماناً طويلاً حتى فقــدت في الظلام بصرها.

وذكر أن أمة النمل ـ شأنها شـأن أمـة الإنسـان ــ قـد سخرت مئات الأجناس من حيوانات أدنى منهـا جنسـاً في مصالحها، ومنها (بق النبات)، وهو حشــرة صــغيرة تعيش على النبات ويصـعب استئصـالها، لأن أجناسـها كثـيرة من النمل ترعاهـا، ولأن داخـل المسـتعمرة لا يمكن أن تعيش النباتات، فإن النمـل يرسـل الرسـل لتجمـع لـه بيض هـذا البق حيث تعنى بـه وترعـاه حـتى يفقس وتخـرج صـغاره، ومتى كـبرت تـدر سـائلاً حلـوا كالعسـل يقـوم على حلبـه جماعـة من النمـل لا عمـل لهـا إلا حلب هـذه الحشـرات بمسها بقرونها، وتنتج هذه الحشرة 48 قطرة من العسـل كل يوم، وهذا ما يزيد مائـة ضـعف عمـا تنتجـه البقـرة إذا قارنا حجم الحشرة بحجم البقرة.

ووجد أن النمل زرع مساحة بلغت خمسة عشر مـتراً مربعـاً من الأرض حيث قـامت جماعـة من النمـل بحرثهـا على أحسن ما يقضى به علم الزراعة، فبعضها زرع الأرز، وجماعة أزالت الأعشاب، وغيرها قامت لحراسـة الزراعـة من الديدان.

و لما بلغت عيدان الأرز نموهـا، وكـان يـرى صـفاً من شغالة النمـل لا ينقطـع، يتجـه إلى العيـدان فيتسـلقها إلى

2) اقتبسنا هذه الاكتشافات من كتاب: رحيق العلم والإيمـان الـدكتور أحمـد فـؤاد باشا.

خب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة، وتنزل بها سريعة إلى مخازن تحت الأرض الصورة.

و قد طلى العالم أفراد النمل بالألوان، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائما إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز. ولما فرغ الحصاد هطل المطر أياماً وما إن انقطع حتى أسرع العالم إلى مزرعة النمل ليتعرف أحواله فوجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل، ووجد النملة تخرج من عشها تحمل حبة الأرز وتذهب إلى العراء في جانب مائل من الأرض معرض للشمس، وتضع حبتها لتجف من ماء المطر، وما إن انتصف النهار حتى كان الأرز قد جف وعاد الشغالة به إلى مخازنه تحت الأرض.

العمران:

ونقصد به ما زودت به الأحياء من قدرات على توفير ما تحتاجه في حياتها من مرافق، ويشير إلى هذا النوع من التحضر ما ذكره الله تعالى من وحيه للنحل بكيفية بناء بيوتها، فقال تعالى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (النحل:68 ـ 69)

فالآيتان تشيران إلى أن للنحل نظاما في منتهى الدقة والإحكام، وهو ما سنراه من مكتشفات العلم الحديث، وتشير كذلك ـ وهو المهم ـ إلى أن لهذا المخلوق من الوعي ما يستطيع أن يتلقى به وحي الله الذي يوجه أفعاله(1).

وقد كشف العلم الحديث عن بعض أسرار الوحي

---

1) وتعبير (الوحي) هو التعبير الدال على حقيقة ما يبديه الكون من عجائب لا يستطيع عقله الصغير أن يقوم بها بمعزل عن إلهام وتوجيه الله تعالى، ولذلك يعبر القرآن الكريم عن ما يحصل في الأرض عند القيامة بقوله تعالى: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (الزلزلة:4 ـ5)

الذي تتلقاه أمة النحل، ولا بـأس من اسـتعراض النـاحيتين اللتين أشارت إليهما الآيـتين، واعتبرتهمـا ثمـرة وحي اللـه تعالى، وهما: بيوت النحـل، والطـرق ــ أو سـبل اللـه كمـا يسميها القرآن الكريم ـ التي يسلكها النحل مهتديا بالوحي الإلهي(1):

فأول ما يشير إلى اعتماد النحـل على الـوحي الإلهي هو بناء أقراص الشمع على هيئة خلايـا سداسـية تسـتعمل كمستودعات لاختزان العسل، وقد أشـار كثـير من علمـاء المسلمين إلى الحكمة من اختيار ذلك الشكل، يقــول ابن العربي:(ومن عجيب ما خلـق اللـه في النحـل أن ألهمهـا لاتخــاذ بيوتهــا مسدســة، فبــذلك اتصــلت حــتى صــارت كالقطعــة الواحــدة، وذلــك أن الأشــكال من المثلث إلى المعشــر إذا جمـع كـل واحـد منهـا إلى أمثالـه لم يتصـل وجاءت بينهما فرج، إلا الشـكل المسـدس؛ فإنـه إذا جمـع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة)(2)

ويؤيد العلم الحديث هذا، فقد نص على أنــه يكفي أن نتعـرف على عظمـة هـذا الإعجـاز الهندسـي من علمـاء الرياضيات الـذين يقولـون بـأن النحـل يصـنع خلايـاه بهـذا الشكل لأنه يسمح لها باحتواء أكبر عدد ممكن من أعضـاء المملكة، وبأقل قدرة ممكن من الشمع الغالي اللازم لبناء جدرانها، وهي عملية عبقرية تبلغ درجة من الكمـال تفـوق كل عبقريات البشر مجتمعين.

و ينص علماء الحشرات على أن شغالات النحل تبذل جهـداً خارقـاً للحفـاظ على العسـل، فهي تنظـف الخليـة بمهارة فائقة وتسدّ كل الشقوق وتلمع كل الحوائط بغـراء النحل، وهي لا تقنع بتهويـة الخليـة بـل تحافـظ على ثبـات درجة الحرارة فيها عند مستوى ثابت وتقوم بعملية تكييف للهواء داخل الخلية.

---

1) المعلومات الحديثة مقتبسة من كتاب (رحيق العلم والإيمان) للدكتور أحمد فؤاد باشا.

2) القرطبي: 10/134.

ففي أيام الصيف القائظ يمكن للمرء أن يرى طوابير الشغالات وقد وقفن بباب الخلية واتجهن جميعاً إلى ناحية واحدة ثم قمن بتحريك أجنحتهن بقوة. وهذه الشغالات يطلق عليها اسم (المروحة) لأن عملها يؤدي إلى إدخال تيارات قوية من الهواء البارد إلى الخلية.

ومن ناحية أخرى توجد في داخل الخلية مجموعة أخرى من الشغالات منهمكة في طرد الهواء الساخن إلى خارج الخلية. أما في الأجواء الباردة فإن النحل يتجمع فوق الأقراص لكي تقلل ما يتعرض من سطحها للجو، وتزيد حركة التمثيل الغذائي ببدنها، وتكون النتيجة رفع درجة الحرارة داخل الخلية بالقدرة اللازمة لحماية العسل من الفساد.

أما الناحية الثانية التي أشار إليها القرآن الكريم فهي الطرق التي يسلكها النحل ليجمع رحيق الأزهار، وقد نص علماؤنا القدامى على بعض وجوه الوحي الذي يتلقاه النحل لتحقيق ذلك، قال ابن كثير:(ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل)(1)

والعلم الحديث يؤيد هذا بالشواهد الكثيرة التي تحيل أن يفعل النحل ذلك بعقله الفطري البسيط، بل يحتاج إلى الوحي الإلهي الذي نص عليه القرآن الكريم.

فالدراسات العلمية المستفيضة لمملكة النحل تنص على أن إلهام الله تعالى لها يجعلها تطير لارتشاف رحيق الأزهار، فتبتعد عن خليتها آلاف الأمتار، ثم ترجع إليها ثانية دون أن تخطئها وتدخل خلية أخرى غيرها، علما بأن الخلايا

1) ابن كثير: 2/576.

في المناحل تكون متشابهة ومرصوصة بعضها إلى جوار بعض، وذلك لأن الله تعالى قد ذلل الطريق وسهلها لها ومنحها من قدرات التكيف الوظيفي والسلوكي ما يعينها في رحلات استكشاف الغذاء وجنية ثم العودة بعد ذلك إلى البيت.

و قد نص العلم الحديث على أن العشيرة الواحدة من النحل تستطيع أن تجمع نحو 150 كيلوجراما من العسل في الموسم الواحد. والكيلوجرام الواحد من العسل يكلف النحلة ما بين 120000 و150 ألف حملٍ من الرحيق تجمعها بعد أن تطير مسافة تعادل محيط الأرض عدة مرات في المتوسط. وتستطيع النحلة أن تطير بسرعة 65كيلومترا في الساعة، وهو ما يعادل سرعة القطار. وحتى لو كان الحمل الذي تنوء به يعادل ثلاثة أرباع وزنها فإنها يمكن أن تطير بسرعة 30 كيلومترا في الساعة.

و في رحلة الاستكشاف لجمع الغذاء الطيب تستعين العاملة بحواسها التي منحها الله إياها. فهي مزودة بحاسة شم قوية عن طريق قرني الاستشعار في مقدم الأخص اللونين الأزرق والأصفر، وهي تمتاز على العين البشرية في إحساسها بالأشعة فوق البنفسجية، لذلك فهي ترى ما لا تراه عيوننا، مثل بعض المسالك والنقوش التي ترشد وتقود إلى مختزن الرحيق ولا يمكننا الكشف عنها إلا بتصويرها بالأشعة فوق البنفسجية. ثم إذا حطت على زهرة يانعة وبلغت ورحيقها استطاعت أن تتذوقه وتحدد بكم فطرتها مقدار حلاوته.

و في رحلة العودة تهتدي النحلة إلى مسكنها بحاستي النظر والشم معا. أما حاسة الشم فتتعرف على الرائحة الخاصة المميزة للخلية. وأما حاسة الإبصار فتساعد على تذكر معالم رحلة الاستكشاف، إذ يلاحظ أن النحل عندما تغادر البيت تستدير إليه وتقف أو تحلق

أمامـه فـترة وكأنهـا تتفحصـه وتتمعنـه حـتى ينطبـع في ذاكرتها، ثم هي بعد ذلك تطـير من حولـه في دوائـر تأخـذ في الاتسـاع شـيئاً فشـيئاً، وعنـدما تعـود إلى الـبيت تخـبر عشيرتها بتفاصيل رحلتها، وتدل زميلاتها على مكان الغذاء فينطلقن تباعـاً لجـني الرحيـق من الزهـور والإكثـار منـه لادخاره ما يفيض عن الحاجة لوقت الشتاء ببرده القـارص وغذائه الشحيح.

وأغرب ما اكتشفه العلم الحديث في عالم الحشرات هو أن للنحل لغة خاصـة يتفـاهم بهـا عن طريـق الـرقص، وقد شرحها بالتفصيل عالم ألماني ضمنها كتابـه المسـمى (حياة النحل الراقص)، فقـد تـبين لهـذا العـالم أن للنحلـة الشغالة في جسمها من الأجهزة ما يجعلها تستطيع قياس المسافات والأبعاد والزوايـا بين قـرص الشـمس والخليـة، ثم إنهـا تسـتخدم لغـة سـرية في التخـاطب عن طريـق رقصات خاصة معبرة تنبئ بها أخواتهـا عن وجـود الرحيـق الحلـو وتحـدد لهن موضـعه تحديـدا دقيقـاً من حيث زاويـة الاتجاه إليه وبعده عن بيتها.

وليس الأمر في هـذا قاصـرا على عـالم النحـل.. بـل ذكر العلماء في هذا الباب الكثير من الحقائق الـتي تعمـق فهمنـا للآيـتين الكريمـتين(1)، فقـد ذكـروا أن للحيوانـات أساليب مختلفة في طريقة إنشـاء بيوتهـا بتفاصـيل تقنيـة بـاهرة، بـل في أحيـان كثـيرة تتصـرف الحيوانـات مثـل مهندس معماري بارع، وتعمل على شـاكلة بنّـاء مـاهر في عمله، وتجد حلاًّ لكل مشكلة قد تواجهها أثناء البنـاء تمامـا مثـل المهنـدس، ومثـل أخصـائي في الـديكور حيث تقـوم بتوفير مـا يلـزم لـداخل العش، وفي أحيـان كثـيرة أخـرى تعمل هذه الحيوانات ليـل نهـار للإعـداد لهـذه الأعشـاش، وإذا كـان لهـذه الحيوانـات أزواج فتقـوم بتوزيـع الادوار و التعاون في صورة مثيرة للإعجاب.

1) انظر: كتاب التضحية عند الكائنات الحية، هارون يحي.

ومن أكثر الأعشاش والمنازل الـتي يعتـنى بهـا عنايـة خاصة من قبل البالغين هي الـتي تنشـأ لاسـتقبال الصـغار الجدد.

والتقنية التي تستخدمها هذه الكائنات ـ التي تبدو لنـا غير عاقلة ـ تثير الإعجـاب والدهشـة في آن واحـد، فهـذه الحيوانات تخطط وتخطـو مراحـل متعـددة قبـل الشـروع في بناء أعشاشها أو منازلها لوضع بيضها أو ولادة صغارها، كذلك تختار المكان الأمثـل والأكـثر أمنـا لإنشـائها، فهي لا تنشئ منازلها عبثا و أينما اتفق.

وطريقة بناء العش أو المسكن يتم اختيارها من قبـل الحيوان أو الطير وفقا للمـواد الأوليـة المتـوفرة وظـروف البيئة الخارجية، فمثلا تستخدم الطيـور البحريـة الأعشـاب البحرية التي تطفوا على سطح الماء وتقـاوم الأمـواج في بنــاء أعشاشــها، أمّــا الطيــور الــتي تعيش في منــاطق الأعشاب الطويلة فتنشئ أعشاشا عميقة وواسعة لتفادي السـقوط عنـد هبـوب الريـاح، والطيـور الصّـحراوية تبـني أعشاشها على قمم النباتات الـتي تمتـاز بانخفـاض درجـة حرارتها أقل بعشر درجـات عن درجـة المحيـط، وإلاّ فـإنّ درجـة حـرارة اليابسـة تربـو على 45 درجـة، وهي تـؤدي حتما إلى موت الأجنة الموجودة داخل البيض.

ويتطلب اختيـار المكـان المناسـب لبنـاء العش ذكـاء ومعرفـة واسـعة، إلاّ أن هـذه المخلوقـات لا تسـتطيع أن تتوقع مدى الضرر الـذي سـيلحق بمنازلهـا بتـأثير الأمـواج العاتية أو درجة الحرارة العالية للبيئة الصحراوية.

ولا تكتفي هذه الحيوانـات ببنـاء المنـازل، وإنمّـا تبـني أعشاشـا وهميـة لمجـرد التمويـه بهـدف لفت الانتبـاه إلى هـذه الأعشـاش الوهميـة حفاظـا على حيـاة الصـغار من خطر الأعداء.

ومن الأساليب التي تستخدمها الحيوانات للتمويه بنـاء الأعشـاش بين أغصـان الأشـجار الكثيفـة الأوراق أو فـوق

النباتات الشوكية، وبعض أنواع الحيوانات تنشئ لها أوكـارا خاصة تبيض فيها وترقد على بيضـها وتقـوم بإنشـاء جـدار خاص لمـدخل هـذا الـوكر باسـتخدام الطين الموجـود في البيئة الخارجية، وإذا لم يوجـد تقـوم بـإفراز سـائل خـاص تخلطه مع كميـة من الـتراب لإعـداد الطين اللازم لإنشـاء هذا الجدار الواقي.

وأغلب أنواع الطيـور تبـني أعشاشـها غريبـة الشـكل باستخدام ألياف النباتات أو الأعشـاب والحشـائش البريـة المتـوفرة في البيئـة، والجـدير بالـذكر أن الطـير الّـذي سيبيض لأول مرة في حياته يبـني عشـه بإتقـان بـالغ دون أن يكون له سابق معرفة أو خبرة ببناء الأعشاش.

والحيـــوان على علم تـــام بكيفيـــة بنـــاء العش أو المسكن، وبالكيفية الخاصة بنوعه والمتميز بها عن الأنواع الأخرى اعتبارا من أول لحظـة لـه في هـذه الحيـاة، وكـل نوع من أنواع الحيوانات يبـني منزلـه بالكيفيـة نفسـها في أية منطقة من مناطق العالم.

واللافت للنظـر عنـد دراسـة كيفيـة بنـاء الحيوانـات لمنازلهـا ليس فقـط التخطيـط البـارع وإنمـا التضـحية والتعاون اللّذين يبديهما كل من الذكر والأنثى في البناء.

ولو تمعّنا في عملية إنشاء الطيور لأعشاشـها لأدركنـا مدى الصعوبات التي تلاقيهـا والجهـد الضـخم الـذي تبذلـه والتفاني الذي تبديه في سبيل إتمام بناء هـذه الأعشـاش، فالطير الواحد يقوم بعـدة مئـات من رحلات الطـيران في سبيل إنشاء عش للتمويه فقـط، فمـا بالـك بالجهـد اللازم لبنـاء العش الحقيقي، والطـير لا يسـتطيع أن يحمـل في منقاره سوى قطعة أو قطعـتين من المـواد اللازمـة لبنـاء العش من أغصـان أو غيرهـا، ولكن هـذا الأمـر لا يثـير في الطير الشعور بالملل، و إنما بالعكس من ذلـك يثـابر على العمل بكل صبر، وإذا شعر بتعب أو إرهاق لا يترك العمـل ولا يترك ما في منقاره ولا يهمل أي تفصيل من التفاصـيل

اللازمة لبناء العش.

ولا بأس أن نعـود من جديـد لعـالم النمـل ــ باعتبـاره نموذجا لهذه الأحياء ـ لنرى مدى تحضره في هذا الجـانب، كما رأينا تحضره في الجانب التنظيمي.

فقـد ذكـر العلمـاء في هـذا البـاب أن للنمـل ــ مثـل الإنسـان ــ مشـاريعه العمرانيـة الضـخمة، وقـد ذكـر أحـد علماء الحشرات أنه رأى مدينة هائلة للنمل في بنســلفانيا بلغت مسـاحتها خمسـين فـداناً، وكـانت مكونـة من ألـف وستمائة عش ارتفاع معظمها قرابة ثلاثة أقدام، ومحيطها اثنا عشر قدما عنـد القاعـدة، وهـذا يعـني أن حجم الهـرم الأكبر.

والنظام المعماري في أعشـاش النمـل متنـوع طبقـاً لتنوع أجسام وعاداته، ويحصى العلماء منها أربعة طــرز أو خمسـة طـرز رئيسـية، والسـائد هـو الطـرز الأفقيـة ذو التعاريج الكثيرة والدهاليز التي لا تنتهي والغالبيــة العظمى في أعشــاش النمــل توجــد تحت الأرض، ويحتــوي العش عادة على عدة طوابق، وربمـا يصـل إلى عشـرين طابقـاً في جزئه الأعلى الصورة، وعلى عدد مماثل من الطوابــق تحت سـطح الأرض، ولكن طـابق غرضـه الخـاص الـذي تحدده أساسـا درجـة الحـرارة ن فـالجزء الأكـثر دفئـاً في العش يحتفظ به خصيصاً لتربية الصغار.

ونصت الاكتشافات على أنه من مظاهر مجتمع النمل قيامه بمشروعات جماعية مثل إقامة الطرق الطويلة في مثابرة وأناة، فتحـرص مجموعاتـه المختلفـة على الالتقـاء في صعيد واحد من آن لآخر، ولا تكتفي هـذه المجموعـات بالعمل نهاراً، بل تواصله ليلاً في الليالي القمرية، مع لزوم مستعمراتها في الليالي المظلمة.

و لأعضاء مجتمـع النمـل طـرق مختلفـة متمـيزة في جمع المواد الغذائية وتخزينهـا والمحافظـة عليهـا، فـإذا لم تستطيع النملـة حمـل مـا جمعتـه في فمهـا كعادتهـا لكـبر

حجمه، حركته بأرجلها الخلفية ورفعه بذراعيها.

ومن عاداتها الناشئة من معارفها أن تقضم البذور قبل تخزينها حتى لا تعود إلى الإنبات مرة أخرى، وتجزيء البذور الكبيرة كي يسهل عليها إدخالها في مستودعاتها، وإذا ما ابتلت بفعل المطر أخرجتها إلى الهواء والشمس لتحف.

والنمل أنواع كثيرة(1) كل منها قد يكون جنسا خاصا، مثل أجناس أمة البشر، ومنها نوع من النمل يسمى (أتا) إذا حفرت في مستعمرته على عمق أكثر من متر وجدت في حجرة خاصة كتلا متبلورة بنية اللون من مادة شبيهة بالإسفنج هي في حقيقتها عبارة عن أوراق متحللة لنوع معين من النبات يسمى (الكيريزويت) إذا دققت فيها النظر وجدت خيوطاً بيضاء رائعة من فطر (عش الغراب) الذي يعتبر الطعام الوحيد لهذا النوع من النمل الذي يعيش غالبيته في المناطق المدارية.

و لضمان العناية الفائقة لهذا الغذاء الحيوي توجد بصفة مستمرة في حجرة الزراعة مجموعة من الشغالات تستقبل أوراق شجرة (الكريزونت) وتنظفها باعتناء، ثم تمضغها فتحيلها إلى عجينة مبللة باللعاب وتكورها على شكل كريات صغيرة لتضيفها إلى الحافة الخارجية للمزرعة بحيث تزداد مساحتها مع تقد الزمن.

ويذكر العالم (جوزيف وودكراتش) أن شغال آخرين يقومون في نفس الوقت بالاحتفاظ بفطريات عش الغراب الناضجة. هذا بالإضافة إلى المجهود الخارق الذي تبذله فرقة ثالثة من الشغالة في تسلق شجرة (الكريزويت) ذات الخمسة أمتار طولاً لتنزع أوراقها وتحملها إلى الأرض، ثم إلى العش حيث تسلمها إلى

---

1) وقد أحصى العلم منها خمسة عشرة ألف نوع من أنواع النمل متعددة الألوان والأشكال تعيش في كل بقاع الأرض، منها النمل الأبيض الذي تضرب جنوده برؤوسها الكبيرة جدران الأنفاق إذا شعرت بهجوم على عشها أو أي خطر يتهددها فيفهم ذلك باقي أفراد النوع وتقوم بعمل اللازم نحو حماية نفسها من الخطر المحدق بها.

أفراد الفرقة الأولى.

فهـذا التـدبير العجيب لأمـة النمـل يخفـف من زهـو الإنسان بنفسه، وبمشاريعه الـتي يتصـور أن عقلـه الجبـار هو وحده الذي يستطيع أن يقوم بها.

الأخلاق:

وهي أصـل أصـول الحضـارة، ولب لبابهـا، والحضـارة الــتي تفتقــد الأخلاق حضــارة أشــباح لا حضــارة أرواح، وحضارة موت لا حضارة حياة.

وقـد ورد في النصـوص مـا يشـير إلى تنعم الكائنـات المختلفة بهذا الأصـل العظيم من أصـول الحضـارة.. وقـد ذكرنا ـ سابقا ــ أن الحجـر كـان يسـلم على النـبي ﷺ في الوقت الذي كان فيه القرشيون يرمونه ﷺ بكل ما امتلأت به نفوسهم من أحقاد.

وسنكتفي هنا بـذكر أصـل من أصـول الأخلاق.. ومنـه تتفرع أكثر الأخلاق.. وهو الرحمة، فهي منبع أكثر الأخلاق.

وقد ورد في النصوص ما يشـير إلى اشـتراك الأحيـاء جميعا بما فيهم الإنسـان في الرحمـة الـتي خص اللـه بهـا هذه الدنيا، فقد قال ﷺ:(إن لله تعـالى مائـة رحمـة أنـزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام، فبها يتعـاطفون، وبهـا يـتراحمون، وبهـا تعطـف الـوحش على ولدها، وأخر تسعا وتسـعين رحمـة يـرحم بهـا عبـاده يـوم القيامة)(1)

وسنسـوق ــ هنـا، وباختصـار ــ بعض مـا سـاقه العلم الحديث من هذه الرحمة، وسنقتبس حديث ذلك من عالم أحب الأحيـاء حبـا شـديدا، ودافـع عن انتسـابها للـه دفـاع المستميت، وهو العالم الـتركي هـارون يحي، الـذي يعتـبر بحق من أكبر من رد على نظرية التطور المادية.

فقد ذكر هذا العالم الفاضل في كتابه (التضـحية عنـد الكائنات الحيـة) الكثـير من أدلـة الرحمـة الـتي تمتلئ بهـا

1) رواه ابن ماجة.

هـذه الكائنـات، قـال: إن جميـع الكائنـات الحيّـة خطـيرة وحسّاسة جـدّا في حالـة تعـرّض صـغارها لأيّ خطـر، وردّ فعل هذه الكائنات الحية عند شعورها بـالخطر هـو الفـرار إلى أماكن آمنة، وإذا تعذّر عليها النّأي بنفسـها عن الخطـر تُصبح هذه الكائنات متوحّشة وحـادّة تجـاه الخطـر حفاظـا على حياة الصّغار بشـكل أساسـيّ، فـالطّيور والخفـافيش (الوطاويط) مثلا لا تتوانـى في مهاجمـة البـاحثين يأخـذون صغارها من الأعشـاش لغـرض البحث والدّراسـة، وكـذلك الحمــير الوحشــية أو الزيــبرا الــتي تعيش على شــكل مجاميع.

وعنـدما يتهـدّد الخطـر حيوانـات مثـل ابن آوى تقـوم المجموعة بتوزيع الأدوار فيما بينها لحماية الصّـغار والـذّود عنهم بكل شجاعة وإقدام، وتحمي الزّرافـة صـغيرها تحت بطنهـا وتهـاجم الخطـر بسـاقيها الأمـاميّتين، أمّـا الوعـول والظباء فتتميّز بحساسيّة مفرطة وتهـرب عنـد إحساسـها بالخطر، وإذا كان هناك صغير ينبغي الذّود عنـه، فلا تـتردّد في الهجوم مستخدمة أظلافها الحادّة.

أمّا اللّبـائن الأصـغر حجمـا والأضـعف جسـمًا، فتقـوم بإخفـاء صـغارها في مكـان آمن، وعنـدما تحُاصـر تصـبح متوحشّةً ومتوثّبة في وجـه العـدو الـذي يجابهـا، فـالأرنب مثلا مع فرط حساسيّتة وضعفه يتحمّل المشقّة والصّـعاب من أجل حمايـة صـغاره، فهـو يسـرع إلى عشّـه أو وكـره ويعمد إلى ركل عدوّه بأرجله الخلفيّة، ويكون هذا السّلوك أحيانا كافيا لإبعاد الحيوانات المفترسة.

وتتميّز الغزلان بكونها تعمد إلى الجـري وراء صـغارها عند اقتراب الخطر منها، فالحيوانـات المفترسـة غالبـا مـا تهـاجم من الخلـف لـذلك، فـإن الغـزال الأمّ تكـون بـذلك أقرب ما يكون من صغارها وتبعدهم عن مـواطن الخطـر، وفي حالة اقتراب الخطر تجتهد في صرف نظـر الحيـوان المفترس بهدف حماية صغيرها.

وهناك بعض اللّبائن تستخدم ألوان أجسامها للتّمويه وسيلة لدرء الخطر إلاّ أنّ صغارها تحتاج إلى توجيه وتدريب على وسيلة الاختفاء هذه، وكمثال على ذلك حيوان اليحمور حيث تقوم الأنثى بالاستفادة من لون صغيرها في خطّة للتنكّر بهدف الإفلات من الأعداء، فهي تخفي صغيرها بين شجيرات وتجعله ساكنا لا يتحرك، ويكون جلد الصّغير بنّي اللّون مغطّى ببقع بيضاء، وهذه التّركيبة اللّونية مع أشعّة الشّمس المنعكسة تكون خير وسيلة للانسجام مع لون الشّجيرات التي تحيط به، وهذه الطريقة في التخفّي تكون كافيةً لخداع الحيوانات المفترسة التي تمرّ بالقرب منه، أمّا الأمّ فتبقى على بعد مسافةٍ قصيرةٍ تراقب ما يحدث دون أن تثير انتباه الأعداء، غير أنّها تقترب أحيانًا من صغيرها لكي ترضعه.

وقبل ذهابها إلى الصيّد تجبر صغيرها على الجلوس بواسطة منخرها، ويكون الصّغير عادة متيقظا وحذرًا، وعندما يسمع صوتا غير عاديّ سرعان ما يعود إلى الجلوس والاختفاء خوفا من أن يكون مصدر خطرٍ بالنّسبة إليه. ويظلّ الوليد على هذا الشّكل حتّى يصبح قادرًا على الوقوف على قدميه والتّنقّل مع أمّه.

و ثمّة حيوانات تُظهر ردّ فعلٍ عنيف تجاه العدوّ المرتقب، بل وتوجيه ضرباتٍ بهدف تخويفه وإبعاده مثل البوم وبعض أنواع الطّيور التي تسلك سلوكا استعراضيّا يتمثّل في مدّ جناحيه فيبدو أكبر من حجمه الطّبيعي.

وهناك طيور تقلّد فحيح الأفاعي لإرهاب الأعداء مثل طائر ذو الرأس الأسود الذي يصدر أصواتا صاخبة ويرفرف بجناحيه داخل عشّه، ويبدوا الأمر مخيفا داخل العشّ المظلم وسرعان ما يلوذ العدوّ بالفرار أمام هذه الضّوضاء والحركة.

والظّاهرة الملحوظة لدى الطّيور التي تعيش على شكل تجمّعات هي العناية التي يوليها الكبار للصّغار

وحرصهم على حمايتها وخصوصا من خطر طيور النّـورس إذ ينطلق فرد أو اثنان بالغان ويحومان حـول مكـان تجمّـع الأسراب لترهيب النّوارس وإبعادها عن الصّغار.

ومهمّة الحماية هذه يتمّ تنفيذها بالتّنـاوب بين الطّيـور البالغة وكلّ من ينهي مهمّتـه يـذهب إلى مكـان آخـر بعيـد تتوفّر فيه المياه للصّيد والتّغذية وجمع الطّاقة للعودة مـرّة أخرى.

وتتميّـز الوُعـول بـروح التّضـحية من أجـل صـغارها خصوصا عندما تشـعر بخطـر يـداهم صـغيرها، فهي تقـوم بحركة غاية في الغرابة إذ تلقي بنفسها أمام هـذا الحيـوان المفترس لتلهيه عن افتراس ولدها الصغير.

وهذا الأسلوب يمكن ملاحظته في سلوك العديــد من الحيوانات مثل أنثى النّمر التي تجتهـد في القيـام بمـا في وسعها حتّى تصرف انتباه الأعداء المتربّصين بصغارها.

أمّا الرّاكون فـأوّل مـا يفعلـه عنـد إحساسـه بـالخطر الـدّاهم هـو أن يأخـذ صـغاره إلى قمّـة أقـرب شـجرة، ثمّ يسرع نازلا إلى الحيوانات المفترسـة ويكـون وجهـا لوجـه معهـا، ومن ثمّ يبـدأ بـالفرار إلى ناحيـة بعيـدة عن مكـان الصّغار ويستمر في الابتعاد حتّى يطمئنّ إلى زوال الخطـر وعندئذ يتسلل خلسةً عائداً إلى صغاره.

وهذه المحاولات لا يُكتب لها النّجاح دائماً، لأنّ الصّغار قد ينجون من خطر المفترسين إلاّ أنّ الأبوين قد يتعرّضان للموت والهلاك.

وهناك طيور تقوم بتمثيـل دور الجـريح لصـرف نظـر العدوّ المفترس عن الفراخ الصّغيرة، فعند إحساس الأنثى باقتراب الحيوان المفترس تتسلّل بهـدوء من العشّ ولمـاّ تصل إلى مكان وجود العدوّ تبدأ في التخبّـط وضـرب أحـد جناحيهـا على الأرض وإصـدار أصـوات مليئـة بالاسـتغاثة وطلب النّجدة، بيد أنّ هذه الأنثى تأخـذ حـذرها اللاّزم فهي تمثّــل هــذا الــدّور على بعــد مســافة مــا من الحيــوان

المفترس، ويتوهّم أنّ الأنثى المستغيثة تعتبر غنيمة سـهلةً ولكنّه بذهابه في اتجاهها يكون قد ابتعـد عن مكـان وجـود الفراخ الصّغار، ثمّ تنهي الأنثى تمثيلها وتهبّ طائرة مبتعدة عن الحيوان المفترس.

وهذا المشهد التّمثيلي يتمّ أداؤه بمهارة مقنعة للغاية، وكثـيرًا مـا تنطلي هـذه الحيلـة على القطـط والكلاب والأفاعي وحتى على بعض أنواع الطّيور.

أمّا الطّيور التي تبـني أعشاشـها مـع مسـتوى سـطح الأرض، فيُعتـبرُ التمثيـل أداة فعّالـةً وناجعـةً في حمايـةِ فراخها من الأعداء المفترسـين، فالبـطّ مثلايقـوم بتمثيليّـة العاجز عن الطّيران من على الماء عنـد إحساسـه بقـدوم الحيوانـات الخطـرة، ويظـلّ هكـذا يضـرب بجناحيـه على سطح الماء مع إحتفاضه بمسافة أمان بينـه وبين الحيـوان المتربّص به، وعنـدما يطمئنّ بـأنّ الحيـوان المفـترس قـد ابتعد عن عشّ الفراخ يقطع مشـهده التّمـثيليّ ويعـود إلى عشّه.

وهـذا السـلوك ليس قاصـرا على هـذه الأنـواع من الحيوانـات، بـل إن الحشـرات أيضـا تحمي صـغارها من المهالك.

ويعتبر عالم الأحياء السّويدي (أدولـف مـودر) أوّل من اكتشف رعاية الأبوين للصّغار في عـالم الحشـرات وذلـك سنة 1764 عندما كان يجري أبحاثه على حشرة (المـدرع الأوروبي) فوجد أنّ الأنثى تجلس على بيضـها دون أكـل أو شرب، وتصبح هذه الأنـثى مقاتلـة شرسـة عنـدما يقـترب الخطر من بيضها.

وكان العلماء والباحثون في تلك الفترة أو مـا قبلهـا لا يقبلـون فكـرة رعايـة الحشـرات لصـغارها، وسـببُ ذلـك يورده لنـا البروفسـور دوغلاس.و.تللاني من جامعـة ديلاور والذي يعمـل أسـتاذا في علم الحشـرات ويـؤمن بنظريـة التطور، فيقـول:(تجابـه الحشـرات مخـاطر عديـدة أثنـاء

دفاعهـــا عن صـــغارها، ويتســـاءل العلمـــاء في مجـــال الحشـرات عن السـرّ في عـدم انقـراض هـذه الخصـلة (خصلة الدفاع والحمايـة) أثنـاء عمليـة التّطـور، لأنّ وضـع البيض بأعـداد كبـيرة أفضـل اسـتراتيجياّ من اتبـاع وسـيلة الدّفاع المحفوفة بالمخاطر والمهالك)

ويعلّق دوغلاسن.و.تللاني أحد دعاة التّطـور على هـذا التّساؤل المحيّر ويـرى أنّـه يجب أن تنقـرض هـذه المـيزة حسب فرضيّات نظرية التّطور، ولكنّ الموجود والملاحــظ في الطّبيعة أنّها لا تزال موجودة وبصور عديدة ســواء في عالم الحشرات أو غيرها وليس دفاعا عن الصّغار فحسب بل عن الكبار أيضا.

بعـد هـذا.. قـد نـرى في سـلوك بعض الحيوانـات مـا نتصـوره ظلمـا لا ينسـجم مـع مـا تتطلبـه الأخلاق.. وذلـك صحيح.. وقـد أخـبرت النصـوص أن مثـل هـذه الحيوانـات تعاقب على تصرفاتها هذه، فقد جاء في الحــديث عن أبي ذر قال: بينما نحن عند رسول اللّه ﷺ إذا انتطحت عنزان، فقـال رسـول اللّـه ﷺ:(أتـدرون فيم انطحتـا؟) قـالوا: لا ندري، قـال:(لكن اللـه يـدري وسيقضـي بينهمـا)(1)، وفي حديث آخر، قال ﷺ:(إن الجمـاء لتقتص من القرنـاء يـوم القيامة)(2)

ونرى انطلاقا من هذا الحديث أن الحيوانات محاسـبة على سـلوكها عمومـا.. وهي مثـل النـاس في ذلـك، وإلى ذلك يشير قوله تعالى:﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ (التكوير: 5)، بـل هــو مـا ينص عليــه قولــه تعـالى:﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: 38)، وهي تتناسـب مـع قولـه تعـالى عن الإنسان:﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُم ﴾ (الأنعام: 108)

وبمــا أن التكليــف يقتضــي المجــازاة، فــإن هــذه الحيوانات ستجازى على أعمالها..

---

1) رواه أحمد.
2) رواه أحمد.

وقد ذكر العلماء هذا، ولكنهم أطبقوا ـ للأسف ــ على اعتبار جزاء هذه الحيوانات هو صيرورتها ترابا.

وقد استدلوا لذلك بأدلة لا تنهض لتقرير مثل هذا الأمر الخطير.

ومما استدلوا به من ذلك ما ذكره المفسرون من الصحابة والتابعين لقوله تعالى: إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً (النبأ: 40) فالآثار الواردة في ذلك عن أبي هُرَيرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما قد يكون مصدرها الإسرائيليات التي كانت مشتهرة.. وكانت ــ للأسف ـ مرجعا للبعض في تفسير القرآن الكريم.

مع أن تفسير الآية واضح لا يحتاج إلى مثل هذا.. فالكافر ـ عندما يعاين جرائمه وما يترتب عليها من جزاء ـ يود لو أنه كان ترابا.. أو يود لو أنه بقي ترابا، ولم يصر إنسانا.. وهي في ذلك مثل قوله تعالى: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً (مريم: 23)

ومما استدلوا به من الحديث ما يسمى بحديث الصور الطويل(1)، وهو حديث مملوء بالغرائب، وهو أشبه بأحاديث القصاص منه بأحاديث النبي ﷺ، وقد قال فيه ابن كثير:(هذا حديث مشهور، وهو غريب جدا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة. تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم

---

1) الأحاديث الطوال للطبراني برقم (36) وقد خولف فيه أحمد بن الحسن الأيلي، فرواه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة برقم (387) من طريق إسحاق بن راهوية، والبيهقي في البعث والنشور برقم (669) من طريق أبي قلابة الرقاشي كلاهما إسحاق- وأبو قلابة - من طريق أبي عاصم الضحاك، عن إسماعيل بن رافع، عن محمد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة. به، وروى من طريق أخرى مدارها على إسماعيل بن رافع المدني، وقد ضعفه الأئمة وتركه الدار قطني، وقال ابن عدي: (أحاديثه كلها مما فيه نظر)انظر: ابن كثير: 3/287.

الرازي، وعمرو بن علي الفَلاس، ومنهم من قال فيه: هـو متروك. وقـال ابن عـدي: أحاديثـه كلهـا فيهـا نظـر إلا أنـه يكتب حديثه في جملة الضعفاء.

وقد اختلف عليه في إسناد هـذا الحـديث على وجـوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه، فغريب جدًا، ويقال: إنه جمعـه من أحـاديث كثـيرة، وجعلـه سـياقا واحدا، فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصـنفا قـد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحـديث، فاللـه أعلم)(1)

وبناء على هذا نرى أن الجزاء المعد لهـذه الكائنـات ـ كما ذكرنا تفاصيله في رسالة (أسرار الأقـدار) ــ يتناسـب مـع الرحمـة الإلهيـة الـتي وسـعت كـل شـيء، والرحمـة تقتضي أن يعامل كل شيء بحسب حاجته وهواه.. وبما أنا لا ندري نوع الحاجات التي تمتلئ بها نفوس هذه الكائنات، فإن الأدب يقتضي التوقف في المسألة إلا أن يـرد الـدليل المعصوم، وحينها يسلم له مع اعتقاد انسجامه مع مـا ورد في النصوص المحكمة من رحمة الله.

وقد نقلت لنا النصوص مـا يشـير إلى بعض التكـاليف التي كلفت بها هذه الكائنات، والطاقـات الـتي منحت لهـا لأجل ذلك، ومنها قوله ﷺ:(بينما رجل يسوق بقرة له، قـد حمل عليهـا، التفتت إليـه البقـرة، فقـالت:(إني لم أخلـق لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث)(2)

وهذا الحديث لا يعني فقط جانبه الإعجازي، ولعلـه ﷺ لم يقصده بـادئ الـرأي، وإنمـا فيـه الإشـارة إلى أن لكـل مخلـوق الحـدود الضـابطة لوظيفتـه وتسـخيره، وأن هـذا الحيوان الذي نتصوره أعجم لـه من الـوعي مـا يـدرك بـه حقيقته ووظيفته.

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه مسلم.

ولعل الثور الهائج الذي يمتطيه مدعي الفروسية، والناس من حوله يضحكون ويصفقون يصيح بملء فيه بما صاحت هذه البقرة، ولكن صياحه لا تسمعه إلا آذان الروح.

وقد أخبر ﷺ عن بعض طاقات هذه الحيوانات ووعيها، ومنها أنها ترى ما لا يراه الإنسان، فترى الملائكة والشياطين، وتنفعل لمرآهما، قال ﷺ:(إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكا وإذا سمعتم نهيق الحمار، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطانا)(1)

وقد يتصور البعض أن ما ذكره ﷺ عن الحمار من قدرته على رؤية الشيطان ذم له وعيب فيه، وهو فهم غير صحيح.

بل إن رسول الله ﷺ أخبر عن طاقة من طاقات الحمار التي ننتفع بها، وهي قدرته على رؤية عالم الشر، ورؤية الشر ليست شرا، بل إن العلم بالشر هو الواقي للإنسان من الوقوع فيه.

والحمار بهذه الطاقة، وما ينبه به داعية من دعاة ذكر الله، وقد قال ﷺ:(لا ينهق الحمار حتى يرى شيطانا أو يتمثل له شيطان ، فإذا كان ذلك فاذكروا الله وصلوا علي)(2)

ولعل ذلك الصوت المزعج للحمار سببه هذه الرؤية، وليكون تنبيها للنفوس حتى لا تستريح لصوته ــ في حال كونه جميلا ـ عن الاستعاذة والصلاة.

والحمار بذلك يمثل جنديا من جنود الله التي يتعرف المؤمن من خلالها على أعدائه، أو هو عين من العيون التي يتبصر بها المؤمن بعض عوالم الله.

وهو في كلا الدورين يشبه الديك، فالديك هو عيننا

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه الطبراني مرفوعا.

على عـالم الملائكـة، كمـا أن الحمـار عيننـا على عـالم الشياطين.

هـذا بعض مـا ورد في النصـوص، وقـد ذكـر أبـو ذر اهتمام النبي ﷺ بالحديث عن هذه العـوالم، فقـال:(ولقـد تركنا رسول الله ﷺ، وما يقلب طائر جناحيـه في السـماء إلا ذكر لنا منه علماً)(1)

1) رواه ابن جرير وأحمد وعبد الرزاق، واللفظ لأحمد.

ثانيا ـ الكون العابد

الحيـاة لا تكفي وحـدها لتعقـد مواثيـق الصـداقة بيننـا وبين الكون.. فكم من حي هـو أشـبه بميت، وكم من حي هو أعدى لنا من ميت..

ولذلك، فـإن هنـاك مقامـا آخـر من مقامـات الكـون، وخاصة من خواصه ترفع الصداقة بيننا وبين الكون لتجعلها في مرتبة الأخوة في الله.. وتجعل المحبة بيننا وبينه محبة في الله.

هذه الخاصة.. وتلك الصفة الرفيعة هي العبودية لله..

وانطلاقا من النصوص المقدسـة ــ الـتي هي مرجعنـا الوحيد في هذا الباب ـ فإن الكون ليس حيا فقط، بـل هـو حي عابد، يعرف ربه، ويتوجه له بأنواع التسـبيح والعبـادة، تسـبيحا يفقهـه، ويـدرك معانيـه، قـال تعـالى: ﴿ تُسَـبِّحُ لَـهُ السَّــمَاوَاتُ السَّــبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَــيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُـونَ تَسْـبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَـانَ حَلِيمـاً غَفُوراً﴾ (الاسراء: 44)

ومثلما ذكرنـا في تسـرب النظـرة الماديـة للنصـوص الدالة على حياة الكون، والتي تنطلق من النظرة الحسـية أو العقليـة المسـتعبدة للحس، فـإن هـذه النظـرة، ومـا تستخدمه من فنون التأويل سرى إلى الكون العابد وذلــك بقصر عبادتـه على عبوديـة الدلالـة دون أن يكـون لـه في ذاته عبودية يتوجه بها بوعيه إلى الله.

فقال هؤلاء:(إن تسبيح الجمـادات أنهـا تـدعو النـاظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله)، وذلك لعدم توفر الإدراك لها كما قال الشاعر:

تُلقى بتسبيحة من حيث ما انصرفت وتستقر حشا الرائي بترعاد

أي يقول من رآها: سبحان خالقها.

وهذه النظـرة تخـالف النصـوص الصـحيحة الصـريحة الكثيرة التي تفيد بأن للكون تسبيحه وعباداته الخاصة.

بل إن النصوص لم تكتـف بالحـديث العـام، الـذي قـد يحتمل التأويـل، بـل ذكـرت أنـواع العبـادة الـتي يمارسـها الكون.

وسنحاول التعرف على بعض هـذه الشـعائر التعبديـة في هذا الفصل.

1 ـ القنوت :

أول هـــذه العبـــادات، وعلى رأســـها، ويـــتربع ذروة سنامها: القنوت لله تعالى، كما قال تعـالى:﴿ وَقَـالُوا اتَّخَـذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَـانِتُونَ﴾ (البقـرة:116)، وقـال تعـالى:﴿ وَلَـهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (الروم:26)

والقنوت هو دوام الطاعة، ولـذلك يقـال للمصـلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده هو قـانت في ذلـك كلـه، كما قال تعالى:﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـانِتٌ آنَـاءَ اللَّيْـلِ سَـاجِداً وَقَائِمـاً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(الزمـر: 9) فـاعتبره تعـالى قانتا في حال السجود والقيام.

ومثله ما ورد في الحديث حين سـئل رسـول اللـه ﷺ أي الصلاة أفضل فقـال:(طـول القنـوت)(1)، ولم يـرد بـه طول القيام فقط، بل طول القيام والركوع والسجود(2).

وعلى هذا يدل ـ كذلك ـ قوله تعالى:﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَـكُ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾ (النحـل:120) فقد كان إبراهيم تعالى يمارس جميع أنواع الطاعات وفي جميع الأوقات.

فالقنوت إذن هو دوام الطاعة واستمرارها وشمولها.

انطلاقا من هذا، فـإن القـرآن الكـريم يخبرنـا أن هـذا

---

1) رواه مسلم.

2) قال ابن حجر:(طول الصلاة يستلزم طول القيام، كالركوع مثلا لا يكون أطول من القيام، كما عرف بالاستقراء من صنيعه ﷺ، ففي حديث الكسـوف: فركـع نحـوا من قيامه) فتح الباري:3/19.

الكون لم يتخل عن قنوته لله تعالى منذ ولادتـه، بـل يخـبر أن ولادته تمثل أعلى درجات القنوت لله تعـالى، فكـل مـا نراه من أشياء ناتج عن الخضوع لأمر الله الواحد كُنْ :

قال تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَـى أَمْـراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ (البقـرة:117)، وقـال تعـالى: إِنَّمَـا قَوْلُنَـا لِشَـيْءٍ إِذَا أَرَدْنَـاهُ أَنْ نَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ (النحـل:40)، وقـال تعـالى: إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يّـس:82)، وقـال تعـالى: هُـوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْـراً فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ (غافر:68)

وقد أجـاب العلمـاء على مـا قـد يسـأله من يسـتعبده عقله، فيقول: في أي حال يقول له كن فيكون؟ أفي حال عدمـه، أم في حـال وجـوده؟ فـإن كـان في حـال عدمـه استحال أن يأمر إلا مأمورا، كما يسـتحيل أن يكـون الأمـر إلا من آمر، وإن كان في حال وجوده فتلـك حـال لا يجـوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث، لأنه موجود حادث؟

ومن تلك الإجابات أنه خـبر من اللـه تعـالى عن نفـوذ أوامره في خلقه الموجود، كما أمـر في بـني إسـرائيل أن يكونـوا قـردة خاسـئين، ولا يكـون هـذا واردا في إيجـاد المعدومات.

أو أن الله عز وجـل عـالم بمـا هـو كـائن قبـل كونـه، فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة بعلمـه قبـل كونهـا مشـابهة للـتي هي موجـودة، فجـاز أن يقـول لهـا: كـوني، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجـود، لتصـور جميعها له ولعلمه بها في حال العدم.

أو أن ذلـك خـبر من اللـه تعـالى عـام عن جميـع مـا يحدثه ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه كـان، ووجـد من غـير أن يكون هناك قول يقوله، وإنمـا هـو قضـاء يريـده، فعـبر عنـه بـالقول وإن لم يكن قـولا، واسـتدل هـؤلاء على هـذا التأويل بقولهم:(قد قالت الاتساع للبطن الحـق) ولا قـول

هناك، وإنما أراد أن الظهر قد لحق بالبطن.

أو قول الآخر:

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه إذا رام تطيارا يقال له قع

أو ما قال الآخر:

قالت جناحاه لساقيه الحقا ونجيا لحمكما أن يمزقا

وعن هـذا المعـنى عـبر الغـزالي بقولـه:(ومن هـذا القبـيل في كنايتـه عن الاقتـدار قولـه تعـالى: إِنَّمـا قَوْلُنَـا لِشيءٍ إِذَا أَرَدْنَـاهُ أَنْ نَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ، فـإن ظـاهره ممتنع إذ قوله (كن) إن كـان خطابـاً للشـيء قبـل وجـوده فهو محال إذ المعـدوم لا يفهم الخطـاب حـتى يمتثـل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين، ولكن لما كـانت هـذه الكنايـة أوقـع في النفـوس في تفهيم غايـة الاقتـدار عدل إليها)(1)

ومن الإجابات في هذا ما يسمى (بالأعيان الثابتــة في العدم).. وأن ثبوت الأشياء في حال عدمها هو الذي جعلها أهلا لأن تخاطب وتكلف بالخروج من العدم إلى الوجود(2).

وكل ذلك يمكن أن يكون صحيحا، ولكن الأصـح هـو التسـليم للـه في قولـه، واعتبـار مـا قالـه حقيقـة قـد لا تستوعب عقولنا صورتها.. وليس للعقل المحدود أن يتجرأ على تصور اللامحدود.

وهـذا التفسـير لطريقـة وجـود الكـون وصـدوره عن خالقه يقي المؤمن من التصـورات المختلفـة الـتي حـاول البشر بعقولهم الضعيفة أن يصـوروا بهـا هـذا الصـدور، ثم يؤسسوا علاقة الكون بربه على أساسه.

---

1) الإحياء.

2) وهذا كما هو معلوم قول ابن عربي، وقد ذكـر مثلـه بعض المعتزلـة، وليس في هذا القول ما يمكن أن يبدع أو يكفر به أحد من الناس، فالصـفر.. وإن لم يكن لـه وجـود عيني إلا أن لـه وجـودا ذهنيـا اعتباريـا، بالإضـافة إلى كـل مـا نحلم بـه من أشـياء ليسـت موجودة، فلولا ثبوتها مع عدمها ما أمكننا توهمها.

هذا عن القول أما ما قد يستلزمه هذا القول من مفاهيم خاطئـة.. فـذلك شـيء آخـر، والتوجه بالتخطئة حينئذ يكون للاستلزام لا للقول.

يقول سيد قطب موضحا التصور الإسلامي حول هذه المسألة الخطيرة:(لقد صدر الكون عن خالقه، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: كن، فيكون.. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن، على الصورة المقدرة له، بدون وسيط من قوة أو مادة.. أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها، بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه)(1)

أما سبب عدم هذا الكشف، فراجع إلى أن طاقات البشر من المحدودية بحيث لا تصل إلى مثل هذا الإدراك.

فكيف تدرك الطاقات البشرية تفسير الصلة بين الأمر الإلهي والكينونة، وهي لا تدرك أسرار الصلات الموجودة في العوالم التي تعمرها، والتي تدعي أنها تفهمها وتبالغ في فهمها؟

وهل يمكن أن نشرح لصبي صغير نظرية النسبية ـ مثلا ـ أو أن نجيبه على الأقل على التساؤلات الكثيرة التي يبعثها فضوله؟

أما السبب في محدودية الطاقة البشرية فهو بكل بساطة ـ كما يقول سيد ـ أن ذلك (لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها.. وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى)(2)

أما الفلسفات التي هي عصارة الفكر البشري المعتمد على نفسه، والمغتر بقوته، فقد ضربت (في تيه لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هذه الأسرار ؛ وتفترض فروضا تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلا بأدوات المعرفة فيه والارتياد،

---

1) في ظلال القرآن: 1/106.
2) في ظلال القرآن: 1/106.

فتجيء هــذه الفــروض مضــحكة في أرفــع مســتوياتها، مضـحكة إلى حـد يحـير الإنسـان:كيـف يصـدر هـذا عن فيلسوف! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حـاولوا أن يخرجــوا بــالإدراك البشــري عن طبيعــة خلقتــه، وأن يتجـاوزوا بـه نطاقـه المقـدور لـه! فلم ينتهـوا إلى شـيء يطمأن إليـه ؛ بـل لم يصـلوا إلى شـيء يمكن أن يحترمـه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله)(1)

وقـد عصـم اللـه المسـلمين المهتـدين بنـور القـرآن الكريم من الوقوع في هذه المتاهات، أو (أن يحاولوا هذه المحاولـة الفاشـلة، الخاطئـة المنهج ابتـداء، فلمـا أن أراد بعض متفلسـفتهم متـأثرين بأصـداء الفلسـفة الإغريقيـة - على وجه خـاص - أن يتطـاولوا إلى ذلـك المـرتقى، بـاءوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريــق، ودســوا في التفكــير الإســلامي مــا ليس من طبيعتــه، وفي التصــور الإسلامي ما ليس من حقيقته.. وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولـة العقـل البشـري وراء مجالـه، وفـوق طبيعـة خلقته وتكوينه)(2)

فالقرآن الكريم إذن يفسر سر ولادة الكون الذي تـاه فيه الفلاسفة وغيرهم، ثم خبطوا بعقـولهم خبـط عشـواء، بهذا التفسير البسيط المعقول الذي تؤيده كل الأدلة، وهو أن كل شيء قانت لله.. ولا يمكنه إلا أن يقنت لله.

***

وقنوت الأشياء للـه، وخضـوعها لأمـره (كن) مسـتمر في كل الأحوال، فالكون الذي أطاع الله ابتداء، فخرج إلى الوجود بأمر (كن) لا زال يجيب الله.. وسيظل يجيبه.

وإلى هـذه الاسـتمرارية في القنـوت الإشـارة بقولـه تعالى: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)(هود: 56)، وقولـه تعـالى: فَسُـبْحَانَ الَّذِي بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَإِلَيْـهِ

1) في ظلال القرآن: 1/106.
2) في ظلال القرآن: 1/106.

تُرْجَعُونَ (يّس:83)

وقد أقرت الكائنات بهذه الطاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (فصلت:11)

وهذا هو الجواب الإلهي عن كل التساؤلات المحيرة التي يتيه فيها الغافل، وينكرها الملحد.

فعندما تعجبت مريم ـ عليها السلام ـ أن تلد من غير زواج، أخبرها الله تعالى بأن أمره وحده كاف في ذلك، قال تعالى: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران:47)

وعندما تعجب النصارى من صدور خارقة ميلاد المسيح من غير حصول ما تعارف عليه الناس من أسباب، ودعاهم ذلك إلى الخطأ في تصور طبيعة المسيح تعالى، رد عليهم الله تعالى بقوله: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران:59)

وعندما تعجب المشركون من أمر البعث أخبرهم الله تعالى أن ذلك ليس عجبا، فالله تعالى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (الأنعام:73)

وهذا القنوت الذي يتصف به الكون، فيجعله في منتهى الخضوع لله لا يستثنى منه شيء حتى الكفار والملحدين، فإنهم يقنتون لله من حيث لا يعلمون.

وقد أخبر القرآن الكريم أن من قنوت أجسادهم ما تشهد به عليهم يوم القيامة، كما قال تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النور: 24)

وقد صور ﷺ ذلك في مجلس من مجالسه مع

الصحابة نقله لنا أنس بقوله: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: أتدرون ممَّ أضحك؟ قلنا: اللّه ورسوله أعلم، قال: من مجادلة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل)(1)

وقد أحصى ابن القيم لقنوت الكفار غير ما ذكرنا من قنوت جوارحهم خمسة أنواع كلها مما ورد به التنزيل، وهي:(قنوتهم لخلقه وحكمه وأمره قدرا واعترافهم بربوبيته واضطراهم إلى مسألته والرغبة إليه ودخولهم فيما يأمر به وإن كانوا كارهين وجزاؤهم على أعماله ودخولهم فيما يأمر به مع الكراهة)(2)

فالقنوت شامل للجميع، والفرق الوحيد في ذلك هو أن المؤمن يقنت له طوعا وغيره يقنت له كرها، كما قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد:15)

ومثل القنوت الإسلام، فإنه دين الكون جميعا طوعا أو كرها، قال تعالى: أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (آل عمران:83)

فالكون جميعا يستسلم لرب واحد، يتلقى منه قوانينه وتوجيهاته، فلذلك حفظ من الفساد، ولم يدب إليه ما دب للبشر العاقل الذي اختار الكفر من فساد، كما قال تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (الانبياء:22)

2 ـ السجود:

---

1) أحمد: 3/94، أبو يعلى: 7/55، الحاكم: 4/644.
2) رسالة في قنوت الأشياء: 27.

ومن عبادات الكون التي نص عليها القرآن الكريم (السجود).. وهي عبودية تجعل من الكون كله مسجدا يقيم شعائره، كل بطريقته الخاصة، بحسب قابليته، ومدى نيله لتجليات الأسماء الحسنى.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (الحج:18)

والسجود كما يعبر القرآن الكريم سجود شامل يشمل الشخوص والظلال، أو الجواهر والأعراض، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (الرعد:15)

وقد صور القرآن الكريم شكلا من أشكال السجود بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (النحل:48)

وقد خاض بعض الناس بعقولهم المحدودة في هذا المجال، واستبعدوا أن تسجد الظلال، وهي أعراض تفتقر إلى الجوهر، وهو فهم محدود منشؤه تعميم المعارف البشرية على الكون جميعا، وما دروا أن للعرض عقله وكيانه وتميزه كما للجوهر عقله وكيانه وتميزه.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن للموت الذي هو عرض من الأعراض صورة تظهر يوم القيامة على هيئة كبش يذبح بين الجنة والنار(1).

ولذلك فإن هذه الأمور تؤخذ تعقلا وتذوقا، لا تخيلا وتصورا، فحس الإنسان لا يدرك إلا ما هو في دائرته

---

1) نص الحديث:(إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار! خلود ولا موت) رواه البخاري ومسلم.

المحـدودة، وهي من المحدوديـة بحيث لا يصـح الاعتمـاد عليها في تصوير ما غاب عن الحس.

ومن ذلك ما عبر بـه ﷺ عن ظـاهرة الكسـوف الـتي نكتفي بتفسيرنا المادي لها، فإنه ﷺ يخبر بأن لهـا تفسـيرا روحيا نص عليه بقوله ﷺ:(إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وإنهما لا ينكسـفان لمـوت أحـد ولا لحياتـه ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له)(1)

فمعرفتنـا بـالمواقيت الدقيقـة المحـددة للكسـوف، ومعرفتنا بالأسـباب الظـاهرة لحصـوله لا تنفي هـذا، فقـد يكون للشيء الواحد الأسباب الكثـيرة، فلا ينبغي أن ننكـر مـا نجهـل من الأسـباب، ولا ينبغي أن نكـون من ضـيق الأفق، وقصور الهمة بحيث نكتفي بما لدينا من معارف(2).

وقد يرزق الله بعض خلقه ممن صفت مـرآة قلـوبهم رؤية سجود الكائنات لبارئها.

ومن ذلك ما روى ابن عباس قال: جاء رجـل، فقـال: (يا رسول الله إني رأيتـني الليلـة وأنـا نـائم كـأني أصـلي خلـف شـجرة فسـجدت، فسـجدت الشـجرة لسـجودي فسـمعتها، وهي تقـول: (اللهم اكتب لي بهـا عنـدك أجـرا وضع عني بها وزرا واجعلها لي عنـدك ذخـرا وتقبلهـا مـني كما تقبلتها من عبدك داود) قال ابن عباس:(فقرأ رسـول الله ﷺ سجدة ثم سجد فسمعته، وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة)(3)

ولأجل هذه العبودية الخاشـعة للـه نهى ﷺ عن إتخـاذ ظهور الدواب منابر (فرب مركوبة خيرا أو أكثر ذكـرا للـه تعالى من راكبها)(4)

وهذا ما يجعل المؤمن يخفف من غلواء كبريـاه، وهـو

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) انظر ما يرتبط بهـذا من تفاصـيل علميـة، ومن دلائـل الإعجـاز العلمي: رسـالة (معجزات علمية)
3) الترمذي: 2/472.
4) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

يمشـــي مطـــأطئ الـــراس بخطى وئيـــدة على الأرض الساجدة لله، ممتثلا قوله تعالى: وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحــاً إِنَّكَ لَنْ تَخْــرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُــغَ الْجِبَــالَ طُــولاً (الاسراء:37)

أما هيئة السجود، والتي قد تستهوي الخيال، وقد تحجب العقل عن الحقائق إن وقف عندها، فإن لكل شيء سجوده الخاص الذي يعبر به عن منتهى خضوعه وذله لله تعالى.

قال ابن القيم:(والسجود من جنس القنوت، فإن السجود الشامل لجميع المخلوقات، وهو المتضمن لغاية الخضوع والذل، وكل مخلوق فقد تواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته، ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدور على التراب، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان)(1)

بـــل إن الأديـــان تختلـــف شـــعائرها وطقوســـها في ســـجودها، فلا يعـــني الســـجود بالضـــرورة مـــا يفعلـــه المسلمون، قال ابن القيم:(من الأمم من يركع ولا يسجد وذلك سجودها.. ومنهم من يسجد على جنب كاليهود.. فالسجود اسم جنس، ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد)(2)

ومثل هذا سائر الألفاظ، فإنه (لما كان المسلمون يصلون الصلاة المعروفة صار يظن من يظن أن كل من صلى فهكذا يصلي، حتى صار بعض أهل الكتاب ينفرون من قولنا: إن الله يصلي، وينزهونه عن ذلك، فإنهم لم يعرفوا من لفظ الصلاة إلا دعاء المصلي لغيره وخضوعه له، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك لكن ليست هذه صلاته

1) رسالة في قنوت الأشياء: 27.
2) رسالة في قنوت الأشياء: 27.

سبحانه)[1]

ومن هذا الباب ما روي في الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ قـال:(صـوت الـديك صـلاته، وضـربه بجناحيـه سـجوده وركوعه) ثم تلا هذه الآية: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الاسراء: 44)[2]

وعن ابن عباس قال: ينادي مناد من السـماء، اذكـروا الله يـذكركم، فلا يسـمعها أول من الـديك، فيصـيح فـذلك تسبيحه[3].

ومنه ما روي عن سهل بن عبدالله أنه سئل:(أيسجد القلب) قال:(نعم سجدة لا يرفع رأسه منها أبدا)

ومنه ما روي أن أهل الجنة في الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس في الدنيا[4].

وعلى هـذا ينبغي أن تفسـر الآيـات والأحـاديث لـترفع كل وهم أو إشكال أو شبهة قد يزرعها المغرضون.

ومع ذلك حاول بعض الناس أن يدخل بعقلـه إلى هـذا الميدان، فذكر بعضهم هيئة سجود النبات والشـجر، فـذكر أن سجودها هو تفيؤ ظلالها، وهو ما لا دليل عليه، فللنبـات سجوده كما للظلال سجودها.

ومـع ذلـك، فـإن هـؤلاء الـذين تكلفـوا هـذا مقـرين بالسـجود متكلفين لهيئتـه خـير من الـذين راحـوا يؤولـون السجود، فيحولونه إلى سجود مجازي لا حقيقة له.

ومن هــؤلاء من ذهب إلى أن الســجود هــو مجــرد الخضوع الخالي من أي مظهر، كما قال الشاعر:

بجيش تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجدا للحوافر

ومن ذلك مـا ذكـره الـرازي عن بعضـهم، فقـال:(إن

---

1) رسالة في قنوت الأشياء: 27، وقد ذكرنا رد هذه الشبهة في رسالة (معجـزات حسية)
2) رواه ابن مردويه وأبو نعيم في فضائل الذكر.
3) رواه ابن أبي حاتم.
4) رواه مسلم.

السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعـدم الامتنـاع وكـل من في السـموات والأرض سـاجد للـه بهـذا المعـنى، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل وتحقيق القول فيـه أن مـا سواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الـذي تكـون ماهيتـه قابلة للعـدم والوجـود على السـوية وكـل من كـان كـذلك امتنـع رجحـان وجـوده على عدمـه أو بـالعكس، إلا بتـأثير موجود ومؤثر فيكون وجود كـل مـا سـوى الحـق سـبحانه بإيجاده وعـدم كـل مـا سـواه بإعدامـه، فتـأثيره نافـذ في جميع الممكنات في طـرفي الإيجـاد والإعـدام، وذلـك هـو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد)(1)

ومن ذلـك مـا ذكـر أن المـراد من سـجودها شـهادتها ودلالتها على الخالق، كما قال أبو الفرج:(الساجدون على ضربين: أحدهما من يعقل فسجوده عبـادة، والثـاني من لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه والخضـوع الـذي يـدل على أنه مخلوق)(2)

وهذه الأقوال ـ وإن كانت معانيها صـحيحة في ذاتهـا ـ إلا أنــه لا علاقــة لهــا بمعــنى الســجود الــذي ورد في النصوص.. وأدل دليل على هذه المنافاة هـو أن النصـوص الكثيرة دالة على طواعية سجود الأشياء، ولـو كـان الأمـر كما ذكروا لما كانت في ذلك أي طواعية.

بل هذا يتنافى مع ما يدل على تجـدد ذلـك منهـا، كمـا قـال تعـالى:﴿ إِنَّا سَـخَّرْنَا الْجِبَـالَ مَعَـهُ يُسَـبِّحْنَ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (صّ:18)، وقوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَـبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُـلٌّ قَـدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُـونَ﴾ (النـور:41)، فقـد أخبر تعـالى أنـه يعلم ذلـك، بينمـا دلالتهـا على اللـه تعـالى يعلمها جميع الناس.

ومن ذلـك مـا أخـبر اللـه تعـالى بـه من كلام الهدهـد

---

1) التفسير الكبير.
2) رسالة في قنوت الأشياء: 43.

والنمـل، وأن سـليمان علم منطـق الطـير بمـا يـدل على الإختصاص.

ومن ذلـك (أنــه قسـم السـجود إلى طـوع وكـره، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكـره، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره، فإن دليل فعـل الـرب فيهـا ليس هـو فعـل منهـا ألبتـة، والقـرآن يـدل على أن السجود والتسبيح أفعـال لهـذه المخلوقـات، وكـون الـرب خالقا لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمــر إليها، ويبين ذلك أنه خص الظل بالسجود بالغـدو والآصـال والظل متى كان وحيث كان مخلوق مربـوب واللـه تعـالى جعل الظلمات والنور)(1)

أما البيت الذي استشهدوا به، فلا يعتبر دليلا شرعيا له حجيته من ناحية، ومن ناحيـة ثانيـة، (فهـذا خضـوع جمـاد لجماد، ولا يلزم أن يكون سائر أنـواع الخضـوع مثـل هـذا، وإنما يشترك في نوع الخضوع، وليس خضوع المخلوقـات للخالق مثل هذا)(2)

3 ـ التسبيح:

ومن عبـادات الكـون، وهي أكثرهـا ورودا في القـرآن الكريم، عبادة التسبيح لله تعالى.

وقـد افتتحت خمس سـور من القـرآن الكـريم بـذكر تسبيح ما في السـموات ومـا في الأرض للـه، وهي قولـه تعالى: سَـبَّحَ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (الحديد:1) ونفس الآية في سورة الحشر، وقوله تعالى: سَـبَّحَ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الصف:1)، وقولـه تعـالى: يُسَـبِّحُ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ الْمَلِـكِ الْقُـدُّوسِ الْعَزِيـزِ الْحَكِيمِ (الجمعـة: 1)، وقولـه تعـالى: يُسَـبِّحُ لِلَّهِ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْـكُ وَلَـهُ الْحَمْـدُ وَهُـوَ عَلَى

1) رسالة في قنوت الأشياء: 43.
2) رسالة في قنوت الأشياء: 43.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التغابن:1)

وتسبيح الأشياء دليل على معرفتها بالله معرفة تجعلها تنزهه عن كل ما لا يليق بجلاله.

والمعرفة التنزيهية هي الأصل للمعرفة الإثباتية.. بل إن المعرفة التنزيهية معرفة إثباتية.. فمن نزه الله عن الجهل أثبت له علما.. ومن نزل الله عن الجور أثبت له عدلا.. وهكذا.

وقد أخبرت النصوص أن الكائنات تنزه الله بحسب أحوالها، وأنواعها، فلكل مخلوق تسبيحه الخاص به، والذي قد لا يفقهه غيره ممن لم يذق ذوقه، أو يمر بتجربته.

ولذلك نفى الله تعالى عن أكثر الخلق إمكانية فقه هذه التسابيح التي يعج بها الكون، قال تعالى: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (الاسراء: 44)

وعدم الفقه والتصور لا يعني في المنهج العلمي السليم إنكار ما لم يتمكن من فقهه أو تصوره، كما قال تعالى: وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (الاسراء: 36)

فمن أنكر ما لم يقف على سره وحقيقته كان مقتفيا ما ليس له به علم.

ومن الأخطاء في هذا، والناشئة من اقتفاء سبيل العقل المجرد عن نور الوحي، الزعم بأن المراد بالتسبيح مجرد تسبيح الدلالة، وقد رددنا على ذلك من قبل، وقد أفاض العلماء والربانيون في الرد على ذلك، فهو يسلب الكون خاصية مهمة من خصائصه، ويرفع عنه جلبابا من جلابيب الجمال التي كساه الله به.

وحسبنا من الرد، ونفي الشبهة هنا أن الله أخبر عن التسبيح الخاص للأشياء بوقت دون وقت، كالعشى والاشراق، كما قال تعالى: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ

بِالْعَشِيِّ وَالْأِشْرَاقِ (صّ:18)، فهل المراد بذلك أن دلالتها على خالقها تخص هذين الوقتين فقط؟

وقد قال ﷺ مشيرا إلى توقيت تسبيح الكائنات:(ما تستقل الشمس فيبقي من خلق الله تعالى إلا سبح الله بحمده إلا ما كان من الشيطان وأغبياء بني آدم)(1)

ولعل في تحديد مواقيت العبادات ارتباطها بالعبادات التي يمارسها الكون، حتى يشكل المؤمنون مع الكون الواسع حلقة ذكر واحدة، فقد أمر المؤمنون مثلا بمراعاة هذين الوقتين، قال تعالى لزكريا عليه السلام: وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (آل عمران: 41)، وقال لعموم المؤمنين: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِبْكَارِ (غافر:55)

وفي نفس الوقت الذي أخبر القرآن الكريم عن عبودية الكون في الغدو والآصال أمر وأخبر عن المؤمنين أنهم يراعون هذين الوقتين.

قال تعالى مخبرا عن عبودية الكون في هذين الوقتين: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد:15)

وقال عن المؤمنين مخبرا: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (النور:36 ـ 37)

وقال عنهم آمرا: وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (لأعراف:205)

ولكن مع ذلك ــ ولزوما للمنهج العلمي ــ سنسوق بعض أدلة وردود عمدة من عمد هذا المنهج وهو الفخر الرازي، فقد نص على رأيه هذا بقوله:(اعلم أن الحي

1) مسند الشاميين: 2/84، الفردوس بمأثور الخطاب: 4/76.

المكلف يسبح لله بوجهين: الأول: بالقول كقولـه باللسـان سبحان الله، والثاني: بدلالة أحواله على توحيد الله تعـالى وتقديسه وعزته، فأما الذي لا يكـون مكلفـاً مثـل البهـائم، ومن لا يكون حياً مثل الجمادات فهي إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثاني)[1]

وقد استدل لذلك باستدلال بعيـد منشـؤه مـا ذكرنـاه من توهم عدم حياة الكون أو تصور أن النطـق يحتـاج إلى آلة كآلة نطـق الإنسـان، وهـو تغليب للخيـال على العقـل، وانتصار للوهم على الحقائق، قـال الـرازي في بيـان وجـه هذا الاستدلال:(لأن التسـبيح بـالطريق الأول لا يحصـل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق وكـل ذلـك في الجمـاد محـال، فلم يبـق حصـول التسـبيح في حقـه إلا بـالطريق الثاني)

والعجب هو اعتباره ذلك محالا، فـأي اسـتحالة عقليـة في ذلك، وهل العقل من الإحاطة بحيث يدرك سر الحيـاة حتى يهيـه لمن يشـاء ويسـلبه عمن يشـاء؟ وأي اسـتحالة نقلية، والنصوص تعج بأدلة حياة الكائنات.

بل ذهب الرازي إلى أبعد من ذلك حين اسـتلزم ممـا اعتـبره دليلا أن اعتبـار تسـبيحها يقـوض الاسـتدلال على اتصاف بالله بالحياة، قال:(واعلم أنا لو جوزنا في الجمـاد أن يكون عالماً متكلماً لعجزنا عن الاستدلال بكونـه تعـالى عالماً قادراً على كونه حياً وحينئـذ يفسـد علينـا بـاب العلم بكونه حياً وذلك كفر، فإنه يقال: إذا جاز في الجمـادات أن تكون عالمة بذات اللـه تعـالى وصـفاته وتسـبحه مـع أنهـا ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالمـاً قـادراً متكلماً كونه حيـاً فلم يلـزم من كونـه تعـالى عالمـاً قـادراً كونه حياً وذلك جهل وكفر، لأن من المعلوم بالضـرورة أن من ليس بحي لم يكن عالماً قادراً متكلماً)

وهـذا الاسـتدلال يـبين الخطـأ الـذي وقـع فيـه المنهج

1) تفسير الرازي: 20/218.

الكلامي في استدلالاته على صفات اللـه تعـالى، فهـو هنـا يبني صفة الحياة التي تدل عليهـا ملايين الأدلـة على دليـل واحد، تنهد صفة حياة الله بانهداده.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الرازي يستعمل هنـا أسـلوب الفقهاء في سد الذرائع، وهـو منهج لا يصـح اسـتعماله في الاستدلالات العقليـة، فالعقـل لا ينبغي أن يسـد في وجهـه أي باب، مهمـا كـانت الذريعـة المؤديـة إليـه، إلا إذا كـانت تؤديــه إلى معــارف لا يطيقهــا، أو ليســت لديــه أدوات تحصيلها.

وقـد أجـاب الـرازي على مـا أوردنـاه من أدلـة على تسبيح الكائنات بوجوه يقتضي المنهج العلمي إيرادها، وإن كنا نتجنب الجدل ما أمكن في هذه الرسائل:

أمـا الوجـه الأول، فقـد عـبر عنـه بقولـه:(إذا أخـذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثر من الأجزاء التي لا تتجزأ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله، ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ حفــاة مخصوصــة من الطبـع والطعم واللــون والرائحــة والحيز والجهة، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصـفة المعينــة من الجــائزات فلا يحصــل ذلــك الاختصــاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم.

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجـزاء تلـك التفاحة دليل تام على وجود الإله وكل صـفة من الصـفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضاً دليل تـام على وجـود الإله تعالى، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم، وأحـوال تلـك الصفات غير معلومة) (1)

وكل هذا كلام صحيح لا حـرج فيـه، وهـو من العبوديـة التي يمارسها الكون، والتي سميناها عبودية الدلالة، ولكن الخطأ هو اعتبار ذلك هو التفسـير الوحيـد لتسـبيح الكـون ولقوله تعالى: وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الاسـراء: 44

1) تفسير الرازي: 20/218.

)

أما الوجه الثاني، فهو قوله بأن الكفار وإن كانوا يقرون بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا يتفكرون في أنواع الدلائل، ولهذا المعنى قال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (يوسف:105)

وهو وجه صحيح، ولكنه ليس دليلا على نفي تسبيح المقال، فلا تناقض بين المقالة والدلالة.

أما الوجه الثالث، وهو وجه يعتمد على السياق الذي وردت فيه الآية، فهو قوله بأن القوم وإن كانوا مقرين بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته، ولذلك استبعدوا كونه تعالى قادراً على الحشر والنشر فكان المراد ذلك، ثم إنه قال لرسول الله ﷺ: قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (الاسراء: 42) فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل، فلما ذكر هذا الدليل قال: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ)(الاسراء: 44)

وكأن الآية تقول ــ كما يفهمها الرازي ــ:(فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه)

وهذا الوجه لا يتنافى أيضا مع التسبيح المقالي للكائنات، بل هو فهم من الفهوم الصحيحة للآية، والفهوم لا يلغي بعضها بعضا، فكلام الله يحتمل الجميع.

ولعل أقوى دليل ذكره هو ما عبر عنه بقوله:(مما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله: إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (الاسراء: 44) فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم، وهذا إنما يكون جرماً إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل.

أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرماً ولا ذنباً، وإذا لم يكن ذلك جرماً ولا ذنباً لم يكن قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الاسراء: 44) لائقاً بهذا الموضع)

وهذا الاستدلال الأخير مع قوته إلا أن الفاصلة القرآنية لا تشمل آخر الآية فقط، بحيث يكون الحلم والمغفرة مرتبطان بعدم فقه التسبيح، بل هي مرتبطة بموضوع الآية جميعا(1)، وهو الإخبار عن تسبيح كل شيء في الوقت الذي يغفل فيه الإنسان.

والعتاب على الغفلة يتناسب مع الحلم والمغفرة.

وهذا يتناسب مع ما روي في الآثار من العتاب على الغفلة في الوقت الذي تسبح فيه الموجودات، كما ورد في الأثر:(الدابة والثوب يسبح، وأنت غافل)

وفي أثر آخر:(أما يستحي أحدكم أن تكون دابته أو ثوبه أكثر تسبيحا منه)

وفي أثر آخر:(ما ارتفعت الشمس قيد رمح إلى السماء فبقي لله شيء من خلقه إلا سبح لله إلا الشيطان وأعتى بني آدم)

ومن هذا الباب ما روي في الآثار عن داود عليه السلام أنه قال:(يا رب اغفر لي فمن أكثر لذكرك مني) فقام على صخرة إلى جنب نهر حتى أصبح، فناداه ضفدع:(يا داود تمن على الله تعالى، وأنا ضفدع أسبح الله الليل مع النهار من خشيته، فنظر فإذا هي قائمة على الماء، فقال:(رب اغفر لي، فإن نعمك علي أفضل من ذكرك)

1) اعتبر السيوطي هذه الفاصلة من الفواصل التي لا يظهر فيها ارتباطها بموضوع الآية بادي الرأي، قال:(الختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر في بادى الرأي، وذكر في حكمته أنه لما كانت الأشياء كلها تسبح ولا عصيان في حقها وأنتم تعصون ختم به مراعاة للمقدر في الآية وهو العصيان، كما جاء في الحديث:(لولا بهائم رتع وشيوخ ركع وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا ولرص رصا)، وقيل التقدير حليما عن تفريط المسبحين غفورا لذنوبهم، وقيل حليما عن المخاطبين الذين لا يفقهون التسبيح بأهمالهم النظر في الآيات والعبر ليعرفوا حقه بالتأمل فيما أودع في مخلوقاته مما يوجب تنزيهه) الإتقان: 2/276، وانظر: البرهان: 1/92.

وذهب إلى نفس ما ذهب إليه الرازي المفسر الكبير ناصر مكارم الشيرازي، ولا بأس من إيراد ما ذكر من أدلة هنا، كما ذكرنا أدلة الرازي رغبة في تجلية الحقيقة.

قال الشيرازي في الأمثل:(هُناك كلام كثير بين العلماء والمفسّرين والفلاسفة حول تفسير حقيقة هَذا الحمد والتسبيح، فبعضهم اعتبر الحمد والتسبيح (حالا) والبعض الآخر (قولا))

ثم انتصر للقول الأول بقوله:(الكثير يعتقد أنَّ هَذا التسبيح والحمد هو على شاكلة ما نسميه بـ (لسان الحال) وَهو حقيقي غير مجازي إِلاَّ أنّهُ بلسان الحال وَليس بالقول. (تأمّل ذلك).

ولتوضيح ذلك تقول: قد يحدث أن نشاهد آثار عدم الإرتياح والألم، وَعدم النوم في وَجه أو عيني شخص ما وَنقول له: بالرغم مِن أنّك لم تتحدث عن شيء مِن هَذا القبيل، إِلاّ أن عينيك تقولان بأنّك لم تنم الليلة الماضية، وَوجهك يؤكّد بأنّك غير مرتاح ومتألم! وَقد يكون لسان الحال مِن الوضوح بدرجة بحيث أنَّهُ يُغطي على لسان القول لو حاول التستر عليها قولا، وهَذا هو المعنى الذي صرّح به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله: (ما أضمر أحد شيئاً إِلاَّ ظهر في فلتات لسانُه وصفحات وَجهه)(1)

مِن جانب آخر هل يمكن التصديق بأنَّ لوحة فنية جميلة للغاية تدل على ذوق وَمهارة رسامها، لا تمدحُه أو تثني عليه؟ وهل يمكن انكار ثناء دواوين أشعار أساطين الشعر والادب وتمجيدها لقرائحهم واذواقهم الرفيعة؟.. أو يمكن انكار أن بناءً عظيماً أو مصنعاً كبيراً أو عقولا الكترونية معقدة أو أمثالها، أنّها تمدح صانعها وَمُبتكرها بلسان حالها غير الناطق؟

لذا يجب التصديق والتسليم بأنَّ عالم الوجود العجيب

1) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم 26.

ذا الأسرار المتعدِّدة والعظمة الكبيرة، والجزئيات العديـدة المُحيِّرة، يقوم بتسـبيح وَحمـد الخـالق عزَّوجـلّ، وإلاَّ فهـل (التسبيح) سوى التنزيه عن جميـع العيـوب؟ فنظـام عـالم الوجود ناطق بأنَّ خالقهُ ليسَ فيه أي نقص أو عيب:

ثمّ هل (الحمد) سوى بيان الصفات الكمالية؟ فنظـام الخلق والوجود كلّه يتحدث عن الصفات الكماليـة للخـالق وعلمه وَقدرته اللامتناهية وَحكمته الوسيعة.

خاصّة وأنَّ تقدم العلوم البشرية وكشف بعض أسـرار وَخفايا هَـذا العـالم الواسـع، توضـح هَـذا الحمـد والتسـبيح العــام بصــورة أجلى. فــاليوم مثلا ألّــف علمــاء النبــات المؤلفات العديدة عن أوراق الأشجار، وَخلايا هَذِهِ الأوراق، وَالطبقات السبع الداخلـة في تكوينهـا، والجهـاز التنفسـي لها، وَطريقة التغذية وَسائر الأمور الأخرى التي تتصل بَهـذا العالم.

لذلك، فإنَّ كـل ورقـة توحـد اللـه ليلا وَنهـاراً، وَينتشـر صوت تسبيحها في البساتين والغابات، وَفوق الجبـال وَفي الوديان، إلاَّ أنَّ الجهلاء لا يفقهون ذلك، وَيعتبرونها جامدة لا تنطق.

إنَّ هَذا المعـنى للتسـبيح والحمـد السـاري في جميـع الكائنات يمكن دركه تماماً، وَليست هُناك حاجة لأن نعتقــد بوجود إدراك وَشعور لكل ذرات الوجود، لأنَّه لا يوجد دليـل قــاطع على ذلــك، والآيــات الســابقة يحتمــل أن يكــون مقصودها التسبيح والحمد بلسان الحال)

وقد رد على الاعتراض القائـل:(إذا كـان الغـرض مِن الحمد والتسبيح هو تعبير نظام الكون عن نزاهـة وَعظمـة وَقدرة الخالق عزَّوجلّ، وتبيان الصفات السـلبية والثبوتيـة، فلماذا يقول القرآن: (لا تفقهـون تسـبيحهم) لأنّـه إذا كـانَ البعض لا يفقه، فإنَّ العلماء يفقهون ويعلمون؟)

وقد أجاب على ذلك بجوابين:

الأوّل: إنَّ الآية توجَّه خطابها إلى الأكثرية الجاهلــة مِن

عموم الناس، خصوصاً إلى المشركين، حيثُ أنَّ العلماء المؤمنين قِلّة وَهم مستثنون مِن هَذا التعميم، وُفقاً لقاعدة ما مِن عام إلاَّ وَفيه استثناء.

الثّاني: هو أنَّ ما نعلمهُ مِن أسرار وَخفايا العالم في مقابل ما لا نعلمُه كالقطرة في قبال البحر، وَكالذرة في قبال الجبل العظيم. وإذا فكرنا بشكل صحيح فلا نستطيع أن نسمّي الذي نعرفه بأنّه (علم). إنّنا في الواقع لا نستطيع أن نسمع تسبيح وَحمد هَذِهِ الموجودات الكونية مهما أوتينا مِن العلم، لأنَّ ما نسمعهُ هو كلمة واحدة فقط مِن هَذا الكتاب العظيم!!

وَعَلى هذا الأساس تستطيع الآية أن تخاطب العالم بأجمعه وَتقول لهم: إنّكم لا تفقهون تسبيح وَحَمد الموجودات بلسان حالها، أمّا الشيء الذي تفقهوه فهو لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى ما تجهلون)[1]

وكل ما ذكره صحيح، ولكنه يدخل في نوع من أنواع التسبيح، أو يدخل بالأحرى في صفة من صفات الكون، سميناها (المقروئية) أو الدلالة.. وهو تسبيح سلبي، لا إيجابي لأن الذي يقوم به من يشاهد الموجودات لا عين الموجودات، والله تعالى في القرآن أثبت التسبيح لأعيان الموجودات.

والعجب أن يقول الشيرازي هذا مع أن الروايات الكثيرة الواردة عن أهل البيت ـــ عليهم السلام ـ وسماعهم لتسبيح الموجودات تنفي هذا النوع من الفهم[2].

ومن التفسير الذي يتنافى مع عموم النصوص ما

1) انظر: الأمثل، للشيرازي.

2) من ذلك ما روي عن بعض أصحاب الإمام الصادق قال: سألت الإمام عن تفسير قوله تعالى: وإن من شئ إلا يسبح بحمده فقال: (كل شئ يسبح بحمده وإنا لنرى أن ينقض الجدار وهو تسبيحها)

وعن الإمام محمد الباقر قال: نهى رسول الله ﷺ أن توسم البهائم في وجوهها، وأن تضرب وجوهها لأنها تسبح بحمد ربها.

وعن الإمام الصادق: ما من طير يصاد في بر ولا بحر، ولا شئ يصاد من الوحش إلا بتضييعه التسبيح.

ذهب إليه بعضهم حين قصـر التسـبيح على أحـوال معينـة للكائنات.

ومن ذلك قصره على كـل حي ونـام، فنفـوا التسـبيح عن الجمادات، ومن هذا قـول عكرمـة: (الشـجرة تسـبح، والاسطوان لا يسبح)، وقال يزيد الرقاشي للحسـن وهمـا في طعام وقد قـدم الخـوان:(أيسـبح هـذا الخـوان يـا أبـا سعيد؟) فقال:(قد كان يسبح مرة)، يريد أن الشجرة في زمن ثمرهـا واعتـدالها كـانت تسـبح، وأمـا الآن فقـد صـار خوانا مدهونا.

وقد ذكر النووي أن هذا مذهب الكثير من المفسرين، قال:(وهذا مذهب كثيرين أو الأكثرين من المفسـرين في قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ (الاسـراء: 44) قالوا معنـاه وإن من شـيء حي، ثم قـالوا حيـاة كـل شيء بحسبه، فحياة الخشب ما لم ييبس، والحجـر مـا لم يقطع)(1)

واسـتدل القـائلون لهـذا من السـنة بمـا ثبت عن ابن عباس أن النبي ﷺ مر على قبرين فقـال:(إنهمـا ليعـذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخـر فكـان لا يسـتبرئ من البـول) قـال: فـدعا بعسـيب رطب فشقه اثنين، ثم غرس على هـذا واحـدا وعلى هـذا واحدا ثم قال: (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)(2)

ففهم هـؤلاء من قولـه ﷺ:(مـا لم ييبسـا) أن ذلـك إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسـا صـارا

وروي أن الإمام الباقر ، فعندما سمع يوما صوت عصفور، فقال لأبي حمـزة الثمـالي - وكان من خاصة أصحابه -: (يسبحن ربهن عز وجل ويسألن قوت يومهن)

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قولـه (عليـه السـلام): للدابـة على صـاحبها ستة حقوق: لا يحملها فوق طاقتها، ولا يتخذ ظهرها مجلسا يتحدث عليها، ويبدأ بعلفها إذا نزل، ولا يسمها في وجهها، ولا يضربها فإنها تسبح، ويعرض عليها الماء إذا مر بها) انظـر: نور الثقلين: 3/168.

1) مع كون هذا قول أكثر المفسـرين إلا أن المحققين على خلافـه، قـال النـووي: (وذهب المحققون من المفسرين وغيرهم إلى أنـه على عمومـه، ثم اختلـف هـؤلاء هـل يسبح حقيقة أم فيه دلالة على الصانع فيكـون مسـبحاً منزهـاً بصـورة حالـه، والمحققـون على أنه يسبح حقيقة) النووي على مسلم:3/201.

2) البخاري: 1/88، مسلم: 1/240.

جمادا.

ولسنا نرى في هذا النص أي دلالة، فالحديث لم يربط تسبيح العسيب بتخفيف العذاب، بل ربطه برطوبته، فلعل لتلك الرطوبة تأثيرا خاصا أدركه رسول الله ﷺ بمشكاة النبوة، وليس لمن لم يطلع من تلك المشكاة أن يتطفل على مثل هذه الأسرار(1).

* * *

وقد ورد في النصوص ما يدل على أن تسبيح الخلائق مصدر من مصادر رزقها، قال ﷺ:(ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه، إن نوحا قال لابنه يا بني. آمرك أن تقول: سبحان الله، فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق)(2)

وورد ما يدل على أن ما يحصل لها من المصائب هو بسبب تضييعها التسبيح، وفي ذلك أكبر الدلالة على وعيها التام ـ مع كونها غير مكلفة ــ فقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(ما صيد من صيد ولا وشج من وشج إلا بتضييعه التسبيح)(3)، وقال ﷺ:(ما اصطيد طير في بر ولا بحر إلا بتضييعه التسبيح)(4)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(ما صيد من طير في السماء ولا سمك في الماء حتى يدع ما افترض الله عليه من التسبيح)(5)، وهذا الحديث إن صح يدل على الوعي التام للكائنات، فالفرائض لا تتوجه لغير العاقل الواعي.

---

1) ولذلك نرى أن يكتفى من فهم الحديث الذي استدلوا به بما ذكر منه من الناحية العملية، فلا جدوى من الناحية النظرية لارتباطها بأمر غيبي ليس لدينا وسائل التعرف على كنهه.

والناحية العملية في هذا الحديث هي ما ذكره العلماء من استحباب قراءة القرآن عند القبر لهذا الحديث، لأنه إذا كان يرجى التخفيف بتسبيح الجريد، فتلاوة القرآن أولى، وقد ذكر البخاري في صحيحه أن بريدة بن الحصيب الأسلمي الصحابي أوصى أن يجعل في قبره جريدتان، ففيه أنه تبرك بفعل مثل فعل النبي ﷺ.انظر: النووي على مسلم: 3/201.

2) رواه أحمد والنسائي.

3) رواه أبو نعيم في الحلية وابن مردويه.

4) رواه أبو نعيم في الحلية وابن مردويه.

5) رواه ابن عساكر.

وقـد ورد في حـديث آخـر بعض التفاصـيل في ذلـك، قـال ﷺ:(آجـال البهـائم كلهـا وخشـاش الأرض والنمـل والبراغيث والجـراد والخيـل والبغـال والـدواب كلهـا وغـير ذلك آجالها في التسبيح، فإذا انقضـى تسـبيحها قبض اللـه أرواحها، وليس إلى ملك الموت منها شيء)(1)

* * *

واستشـعار المـؤمن لتسـبيح الكائنـات مـع غفلتـه يشعره الحياء، ويدفعه إلى الأدب معها، ولذا أمرنا بالتـأدب معهـا احترامـا وتعظيمـا لتسـبيحها، وقـد ورد في الحـديث قوله ﷺ:(لا تضربوا وجوه الدواب، فإن كـل شـيء يسـبح بحمده)(2)

ونهى عن اتخاذ البهائم كراسي، فقد مر ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقـال لهم:(اركبوهـا سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسـواق، فـرب مركوبـة خـير من راكبهـا وأكـثر ذكرا لله منه)(3)

وقد قال بعضهم مصورا هذا:(ما أحد سـب شـيئا من الدنيا دابة ولا غيرها، ويقول: خـزاك اللـه أو لعنـك اللـه إلا قالت: بل أخزى الله تعالى أعصانا لله تعالى)

ولهذا نهي عن الـذبح من غـير ذكـر لاسـم اللـه، قـال تعالى: وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْـمُ اللَّهِ عَلَيْـهِ وَإِنَّهُ لَفِسْـقٌ وَإِنَّ الشَّـيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَـائِهِمْ لِيُجَـادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (الأنعام:121)

وكأننا بذكر اسم الله عنـد ذبح الحيـوان نعتـذر لـه، أو نخبره بأننا إنما نفعل ذلك لإذن الله لنا، وإلا فهو أكـرم من أن نسلبه حياته للإبقاء على حياتنا.

ولعل الحيوان، وهو يسمع ذكر الله عنـد ذبحـه يشـعر بأنس عظيم، بل يشعر بما يشعر به الشـهيد، وهـو يقـرب

1) رواه العقيلي في الضعفاء وأبو الشيخ والديلمي.
2) رواه أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه.
3) رواه أحمد.

روحه لله.

ومن هذا الباب أيضا ما ورد في السـنة من النهي عن قتل بعض الحيوانات، وتعليل ذلك بتسبيحها لله، فقــد نهى ﷺ عن قتل الضفدع، وعلل ذلك بقوله:(نعيقها تسبيح)(1)

ولعـل تخصـيص الضـفدع وبعض الحيوانـات بكونهـا مسبحة مع ورود النصوص الكثيرة الدالة على تسـبيح كـل شيء هو مبالغة الضفدع ونحوها وإكثارها من ذكر الله.

وقـد ورد في الدلالـة على ذلـك بعض الآثـار منهـا مـا روي عن أنس قـال: ظن داود عليـه السـلام أن أحـدا لم يمدح خالقه أفضل مما مدحه، وأن ملكـا نـزل وهـو قاعـد في المحراب والبركة إلى جانبـه فقـال: يـا داود افهم إلى ما تصـوت بـه الضـفدع، فأنصـت داود عليـه السـلام فـإذا الضفدع يمدحه بمدحـة لم يمدحـه بهـا داود عليـه السـلام فقال له الملك: كيف تراه يا داود؟ قال: أفهمت ما قالت؟ قال: نعم. قال: ماذا قالت؟ قال: قالت: سبحانك وبحمدك منهـتى علملـك يـا رب. قـال داود عليـه السـلام: والـذي جعلني نبيه، إني لم أمدحه بهذا(2).

ومثل هذا ما حدث به شهر قال: كان داود عليه السلام يسمى النـواح في كتـاب اللـه عـز وجـل، وأنـه انطلـق حـتى أتى البحر، فقـال: أيهـا البحـر، إني هـارب. قـال: من الطـالب الذي لا ينأى طلبه، قال: فاجعلني قطرة من مائك، أو دابة مما فيك، أو تربة من تربتك، أو صخرة من صخرك. قــال: أيها العبد الهارب الفـار من الطـالب الـذي لا ينـأى طلبـه، ارجع من حيث جئت، فإنه ليس مني شيء إلا بارز، ينظــر

1) رواه النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه.

2) رواه ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان، وهذا النص ينبغي فهمه ـ كما يفهم عتاب الله تعالى لنبيـه ﷺ على معـنى التربيـة والتـأديب لا على أن الضفدع أو غيره أعرف بالله وأكثر ذكرا لـه من أنبيائـه ، فرتبـة النبـوة لا تـدانيها رتبة.

ومن هذا الباب أيضا ما روى البيهقي في شـعب الإيمـان، عن صـدقة بن يسـار قـال: كان داود عليه السلام في محرابه، فأبصر درة صغيرة ففكر في خلقها وقال: مـا يعبـأ اللـه بخلـق هذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما آتاني اللـه، أذكـر للـه وأشكر له منك، على ما آتاك الله.

الله عز وجل إليه قد أحصاه وعـده عـدا فلسـت أسـتطيع ذلك.

ثم انطلق حتى أتى الجبل، فقال: أيها الجبل، اجعلـني حجــرا من حجارتــك أو تربــة من تربتــك أو صــخرة من صخرك أو شيئا مما في جوفك، فقال: أيهـا العبـد الهـارب الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه، إنه ليس مني شــيء إلا يراه الله وينظر إليـه وقـد أحصـاه وعـده عـدا، فلسـت أستطيع ذلك.

ثم انطلق حتى أتى على الأرض يعـني الرمـل فقـال: أيها الرمل، اجعلني تربة من تربك أو صـخرة من صـخرك أو شيئا مما في جوفك. فأوحى الله إليه أجبه. فقـال: أيهـا العبد الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه، ارجـع من حيث جئت فاجعل عملك لقسمين: لرغبة أو لرهبة، فعلى أيهمـا أخذك ربك لم تبال.

وخـرج فـأتى البحـر في سـاعة، فصـلى فيـه، فنادتـه ضفدعة فقالت: يا داود، إنك حدثت نفسك أنك قد سبحت في ساعة ليس يـذكر اللـه فيهـا غـيرك، وإني في سـبعين ألـف ضـفدعة كلهـا قائمـة على رجـل تسـبح اللـه تعـالى وتقدسه(1).

ومثل هذا ما روي عن ابن عباس قال: صلى داود عليه السلام ليلة حتى أصبح، فلما أن أصبح نادته ضفدعة: يا داود، كنت أدأب منك قد أغفيت إغفاءة (2).

* * *

أما الكيفية التي تسبح بهـا الكائنـات، ومـا تقولـه في تسبيحها، فهي من علم اللـه الـذي قـد يطلـع بعض خلقـه على أسراره:

ومن ذلك ما ذكره ابن عباس من قوله:(الزرع يسبح بحمده، وأجره لصاحبه، والثوب يسبح. ويقول الوسـخ: إن

1) رواه أحمد في الزهد وأبو الشيخ.
2) رواه أحمد وأبو الشيخ.

كنت مؤمنا فاغسلني إذا)[1]

وعن أبي صالح قال:(ذكر لنا أن صرير الباب تسبيحه)[2]

وعن أبي غالب الشيباني، قال:(صوت البحر تسبيحه، وأمواجه صلاته)[3]

عن أبي جعفر قال:(تدرون ما تقول العصافير قبل طلوع الفجر تسبح ربها وتسأل قوت يومها)

وعن عبد الحميد بن يوسف قال:(تسبيح الضفادع: (سبحان المعبود بكل مكان، سبحان المحمود بكل مكان، سبحان المذكور بكل لسان)

***

وهذا التسبيح والعبودية التي تمارسها الكائنات بحب وشغف يكشف الله بعض وجوهها وأسرارها لمن شفت سرائرهم، وتطهرت قلوبهم، لتكون أنيسا لهم في ذكرهم.

ولا غرابة عقلية في هذا، فإن كل من توجه وجهة فتح له في تلك الوجهة، كالمرآة ينعكس فيها ما يقابلها.

فالموجه للتجارة يفتح له فيها بحسب توجهه، والمتوجه للعلوم المادية يفتح له فيها بحسب جده وانشغاله بها، والمتوجه لعوالم الروح بالمكابدات والتأملات ينفتح له من نوافذ هذا العوالم ما يرى به العجائب.

ولا يحق لمن لم يرزق مثل هذا أن ينكر على من رزقه، وإلا كان ظالما، ولهذا يجيب الصالحون على من ينكر عليهم قائلين:(سر سيرنا ترى ما رأينا)

وقد سئل الغزالي أسئلة أجاب عن بعضها، وسكت عن أخرى، قائلا لسائله:(اعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول، إن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي! وإلا فعلمها من المستحيلات؛

1) رواه أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه.
2) ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخطيب.
3) رواه ابن أبي حاتم.

لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيا، لا يستقيم وصفه بالقول، كحلاوة الحلو، ومرارة المر، لا تعرف إلا بالذوق)[1]

والسر الذي تنفتح به كوة التعرف على تسبيح الكائنات وعبوديتها هو الطهارة، فالعين المكتحلة بإثمد الخطيئة لا تستطيع رؤية أنوار الإيمان الساطعة، والقلب المغلف بأوزار المعاصي لا يبصر حقائق نفسه، ولا حقائق الكون.

ولهذا يشترط الربانيون الطهارة ـ بمعناها الشامل ـ للتحقق بمثل هذه المنازل، قال المناوي:(وذلك لأن الأرواح ذات طهارة ونزاهة ولها سمع وبصر وبصرها متصل ببصر العين، ولها سطوع في الجو تجول وتحول، ثم تصعد إلى مقامها الذي منه بدأت فإذا تخلصت من شغل النفس أدركت من أمر الله ما يعجز عنه البشر فهماً، ولولا شغلها رأت العجائب. لكنها تدنست بما تلبست فتوسخت بما تقمصت من ثياب اللذات وتكدرت بما تشربت من كأس حب الخطيئات)

وهذا التحقق يكون بالسير إلى الله، وقد قال الغزالي لتلميذه المحب:(بالله إن تسر تر العجائب في كل منزل)

انطلاقا من هذا اتفق الربانيون من هذه الأمة على أن في طاقة الإنسان أن يسمع تسبيح الكائنات، بل في طاقته أن يرى سجودها وقنوتها إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع.

وأخطر الموانع هي الغفلة، فقد قال بعضهم:(لولا ما غمي عليكم من تسبيح ما معكم في البيوت ما تقاررتم)[2]

يقول سيد قطب عن تأثير الشفافية الروحية في هذا النوع من الإدراك:(وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه، مسبحا بحمده، قائما بصلاته

---

1) رسالة أيها الولد المحب، الغزالي.
2) رواه أبو الشيخ.

؛ وإنـه لكـذلك في فطرتـه، وفي طاعتـه لمشـيئة خالقـه الممثلة في نواميسه. وإن الإنسان ليـدرك - حين يشـف - هذا المشهد ممثلا في حسه كأنه يراه ؛ وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله. وإنـه ليشـارك كـل كـائن في هذا الوجود صلاته ونجواه.. كذلك كان محمـد بن عبـد الله - صلاة اللـه وسـلامه عليـه - إذا مشـى سـمع تسـبيح الحصى تحت قدميه. وكذلك كان داود عليه السلام يرتـل مزامـيره فتؤوب الجبال معه والطير)(1)

وقد ورد في النصوص الكثـيرة مـا يؤيـد هـذا القـول، وهو من أكبر الأدلة والشواهد على أن الكائنات تسبح اللـه تسبيحا حقيقيا يليق بطبيعتها.

وأول من نستشهد به في هذا الباب ما حـدث بـه ابن مسعود من قوله:(كنا أصحاب محمد ﷺ نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفا، بينما نحن مـع رسـول اللـه ﷺ ليس معنا ماء فقال لنا: (اطلبوا من معه فضل ماء)، فأتي بمـاء فوضعه في إناء ثم وضع يده فيه، فجعل المـاء يخـرج من بين أصابعه. ثم قال:(حي على الطهـور المبـارك والبركـة من الله) فشربنا منـه، قـال عبـد اللـه: كنـا نسـمع صـوت الماء وتسبيحه وهو يشرب(2).

وكانوا يسمعون تسبيح الطعام، عن ابن مسعود قال: (كنا نأكل مع النبي ﷺ فنسمع تسبيح الطعام وهو يؤكـل) (3)

ويروي أنس قـال: أتى رسـول اللـه ﷺ بطعـام ثريـد، فقال:(إن هذا الطعام يسبح) قالوا:(يا رسول الله، وتفقه تسبيحه؟ قال: نعم، ثم قال لرجل:(ادن هذه القصـعة من هذا الرجل)، فأدناها منه فقـال: نعم يـا رسـول اللـه، هـذا الطعام يسبح! فقال:(ادنها من آخر)، وأدناها منـه، فقـال: هذا الطعام يسبح. ثم قال: ردهـا فقـال رجـل: يـا رسـول

1) الظلال.
2) رواه النسائي وابن مردويه.
3) رواه أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه.

الله، لو أمرت على القوم جميعا، فقال:(لا إنها لو سكتت عند رجل لقالوا من ذنب.. ردها فردها)[1]

بل كانوا يسمعون تسبيح الحصى، قال أبو ذر:(تناول رسول الله ﷺ سبع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا)[2]

ومن هذا الباب ما روي عن سماع آل البيت المطهرين ـ عليهم السلام ـ فعن أبي حمزة الثمالي قال: قال محمد بن علي بن الحسين، وسمع عصافير يصحن قال: تدري ما يقلن؟ قلت: لا. قال: يسبحن ربهن تعالى ويسألن قوت يومهن[3].

ويروي عن علي بن الحسين قال:(كنا معه فمر بنا عصافير يصحن فقال: أتدرون ما تقول هذه العصافير؟ فقلنا: لا. قال: أما أني ما أقول إنا نعلم الغيب، ولكني سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب أمير المؤمنين يقول: إن الطير إذا أصبحت سبحت ربها، وسألته قوت يومها، وإن هذه تسبح ربها، وتسأله قوت يومها [4].

ومثل هؤلاء من سار سيرهم من الصالحين، ومما يروى من ذلك أنه كان بيد بعضهم سبحة يسبح بها، فنام والسبحة في يده، فاستدارت السبحة، فالتفت على ذراعه، وجعلت تسبح فاستيقظ والسبحة تدور في يده، وإذا هي تقول:(سبحانك يا منبت البنان ويا دائم الشأن)

ويروى عن آخر أنه كان إذا دخل بيته فسبح سبحت معه آنية بيته [5].

ويذكر النورسي أن أربع قطط كانت تلازمه، وكانت

---

1) رواه أبو الشيخ.
2) رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفي رواية الطبراني:(فسمع تسبيحهن من في الحلقة)، وفيه:(ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا)
3) رواه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية.
4) رواه الخطيب.
5) رواه أبو الشيخ.

تقول في هريرها:(يا رحيم يا رحيم يا رحيم..)(6)

ويحدث آخر عن أبيه قال:(كان أبي إذا جاء الليل دخل البحر يسبح، فتجتمع إليه حيتان البحر يسبحون معه)

وبمثل هذا روي عن يونس عليه السلام أنه لما التقمه الحوت، فتصدى به إلى الأرض سمعها تسبح فقال:(أرى ربي يسبح بكل مكان) فقال: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)(الانبياء: 87)

***

وقد يكون سماع تسبيح الكائنات وعبوديتها طريقا لجذبة ربانية، أو ليقظة روحية ترفع حجاب الغفلة كما يحدث هذا الصالح، فقد قال: بت ليلة في بعض أسواق القرى، فإذا فتى عليه سيما الصالحين، وكان كثيرا ما ينتبه من الليل، فيرفع صوته فيقول:(لا إله إلا الله) حتى أصبحنا، فلما أصبحنا أنست به وسألته عن فعله ذلك، فقال:(كنت أرعى غنما لأبوي فبت ذات ليلة في موضع، وهي معي، فانتبهت على أصواتها وهي رافعة رأسها إلى السماء وهي تقول:(لا إله إلا الله) فقلت معها:(لا إله إلا الله) فلما رجعت إلى القرية رددت الغنم على أصحابها، وأقبلت على الخير وحبب إلي)

ومثل ذلك، سئل بعضهم عن بدء زهده، فقال: كنت يوما مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعا بضرب العود والطنبور، فقمت في بعض الليل، فضربت بصوت يقال له راشين السحر، وأراد سنان يغني، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا

6) وقد ذكر النورسي بعض بركات هذه القطط، فقال:(كانت لي حصة من الغذاء كل يوم ـ كما يعلم أحبائي القريبون ـ قبل سنتين أو ثلاث وهي نصف رغيف، وكان رغيف تلك القرية صغيراً، وكثيراً ما كان لا يكفيني.. ثم جاءني أربع قطط ضيوفاً، وقد كفاني ذلك الغذاء وكفاهم. بل غالباً كانت تبقى منه فضلة وزيادة.

هذه الحالة قد تكررت عندي بحيث أعطتني قناعة تامة من أنني أنا الذي كنت استفيد من بركات تلك القطط! وأنا اعلن اعلاناً قاطعاً الان ان تلك القطط ما كانت حملاً ولا عبئاً عليّ ولم تكن تبقى تحت منتي، وانما انا الذي كنت ابقى تحت منّتها) انظر: المكتوب الحادي والعشرون.

يجيبني إلى ما أريد، وإذا بـه ينطـق كمـا ينطـق الإنسـان - يعني العود الذي بيده – ويقـول: ﴿ أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَـزَلَ مِنَ الْحَـقِّ﴾(الحديـد: 16) قلت: بلى والله! وكسرت العود، وصرفت من كان عندي، فكان هذا أول زهدي وتشميري.

ولهـذا كـانوا الصـالحون يجمعـون مـع تسـبيحهم للـه تسبيح الكائنات ليتقربـوا بـالجميع إلى اللـه، قـال أحـدهم: (تباركت يا رب العالمين، يسبحك الليل والنهار، ويسـبحك الثلج، ويسبحك الرعد، ويسبحك المطر، ويسـبحك النـدى، وتسبح لك السماء، وتسبح لك الأرض، وتسـبحك النجـوم، وتسـبحك جنـودك كلهم، تبـاركت أسـماؤك المباركـة المقدسة الـتي لـك بهن نسـبح ونقـدس ونهلـل، لا إلـه إلا أنت)

* * *

أما عن لغة التسبيح ـ التي قد تسـتهوي المجـادلين ـ وقـد يسـتهزئون إن سـمعوا الصـالحين يـرددون أبياتـا عن تسـبيح الكائنـات، ويقولـون:(مـا علم هـؤلاء بـالعروض والقوافي)

فـالجواب عليـه بـأن لغـة الـروح المدركـة للتسـبيح واحـدة، لكن التعبـير عن هـذه اللغـة يختلـف بـاختلاف الألسن.

والله تعالى أخبر عن أقوال أنبيائه وغيرهم ـ مع عـدم عربيتهم ـ بتلك البلاغة المعجزة، بل عبر عن القول الواحد بصيغ مختلفة، وكان الكـل كلامهم من حيث الحقيقـة، وإن لم يكن عين كلامهم من حيث اللفظ، فاللفظ مجرد مطية للمعاني.

وهكذا تسبيح الكائنات، أو كلامها، فلا نتصور أن النملة أو الطير ينطق ما ننطق به من حروف، فجهـازه الصـوتي مختلف عن أجهزتنا، ولكن الجهاز الروحي واحـد، وهـو مـا يجعله يفهمنا، وما يجعلنا نفهمه.

أمـا تحقيـق هـذا الكلام، فلا يمكن إلا بمعرفـة سـر الروح، أو إدراك كنه جهاز الروح، والـروح لا يمكن إدراكهـا بأجهزة الحس، وإلا كنا كبني إسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (البقرة: 55)

ومن هذا المنطلق تتجـاوب روح المـؤمن مـع نغمـات الكـون وتسـبيحاته، فيسـمعها وتسـمعه، وينتشـر من سـماعهما من الفـرح والسـرور مـا يقصـر عنـه فـرح المتنزهين في البسـاتين النـاظرين للقشـور الغـافلين عن الأرواح.

وقد كان الإمام النورسي ـ بفعل ما مر بـه من عزلـة إجبارية ـ فقيها بأسرار تسبيحات الكائنات، وهو يدعونا إلى التجاوب معه في ذلك، يقول مقارنا بين النظـرة الإيمانيـة للكون، ونظرة الإلحاد والغفلة:(ارفع رأسك يا أخي، وألق نظـرة في الكائنـات، وحاورهـا، أمـا كـانت موحشـة في طريقنـا الاولى والآن تبتسـم وتنشـر البشـر والسـرور؟ ألا ترى أن عيوننا قد أصبحت كالنحلة تطير الى كل جهـة في بستان هذا الكون، وقد تفتحت فيه الازهار في كل مكـان، وتمنح الرحيـق الطهـور. ففي كـل ناحيـة انس وسـلوان، وفي كل زاويـة محبـة ووئـام.. فهي ترتشـف تلـك الهـدايا الطيبة، وتقطّر شهد الشهادة، عسلاً على عسل)[1]

حتى ما نراه ممـا قـد نتـوهم قبحـه، ونخـاف من أذاه ليس إلا ترنيمة من ترانيم تسابيح الكون، يقول النورسـي: (فلا تخيفنكم نعـرات الـزلازل وصـيحات الحـوادث، فهي ترنمات الاذكار ونغمات التسبيحات، وتهاليل التضرعات)[2]

وفي تعبير آخر جميل يصف النورسي بعض الأصـوات التي تتلقفها أذن الإيمـان بقولـه:(لنـدع عيوننـا لتخلـد الى شئ من الراحة، ونسلّم آذاننا للايمان بدلاً منهـا، ولنسـتمع من الدنيا الى نغمات لذيذة.. فالاصوات التي كانت تتعـالى

1) الكلمة الثالثة والثلاثون.
2) الكلمة الثالثة والثلاثون.

في طريقنا السابقة [طريق الإلحاد والغفلة] وظنناها اصوات مآتم عامة ونعيات الموت.. هي أصوات أذكار في هذه الطريق وتسابيح وحمد وشكر)[1]

فكل ما نراه من حركات، وكل ما نسمعه من أصوات صدى من أصداء تسبيح الكون لله (فترنمات الرياح ورعدات الرعود ونغمات الامواج.. تسبيحات سامية جليلة وهزجات الامطار وسجعات الاطيار.. تهاليل رحمة وعناية)[2]

والقلب الواعي المؤمن تكون له الأذن التي تتلقف مثل هذه المعاني الرقيقة، التي يعبر عنها اللسان بمختلف لهجاته ولغاته.

يقول النورسي:(وهكذا تنطق الكائنات كلها معاً وتقول: أيها الانسان الغافل لا تحسبنا جامدات! فالطيور تنطق، في تذوق نعمةٍ، أو نزول رحمةٍ فتزقزق باصواتٍ عذبة، بافواه دقيقة ترحاباً بنزول الرحمة المهداة. حقاً النعمة تنزل عليها، والشكر يديمها، وهي تقول رمزاً: ايتها الكائنات! يا اخوتي! ما اطيب حالنا! ألا نُربّى بالشفقة والرأفة.. نحن راضون عما نحن عليه من احوال.. وهكذا تبث اناشيدها بمناقيرها الدقيقة، حتى تحول الكائنات كلها الى موسيقى رفيعة)

قد يقال ـ بعد هذا ـ فالتسبيح إذن ليس تسبيح مقال، وهو على ماذكر من تسبيح الدلالة.

وقائل هذا لا يعرف الفرق بين المقال والدلالة، فالدلالة لا تحتاج إلى الوعي، بينما المقال يحتاجه، بل هو ركنه الأساسي.

والمقال لا يستدعي نطقا بحروف وأصوات معينة، وقد أخبر تعالى عن علمه بما تقوله الأفواه، وما تقوله الألسن، قال تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

1) الكلمة الثالثة والثلاثون.
2) الكلمة الثالثة والثلاثون.

وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (البقرة:284)

بل عبر عن ما يجول في الخواطر بأنه قول يمكن أن يؤاخذ عليه، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِـيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَـاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَـا لَمْ يُحَيِّكَ بِـهِ اللَّهُ وَيَقُولُـونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْـلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (المجادلة:8)

وقد يقال هنا، فكيف نسمع الصـامت، وهـل يمكن أن نستدل على معاني الخواطر من غير تعبيرات الألسن؟

والجــواب مــا ذكرنــاه من قــدرة آذان الــروح على استشفاف معاني الصمت الخاشـع، وقـد قـال النورسـي: (إن نور الايمـان هـو الـذي يسـمع أصـداء الاذكـار وانغـام التسابيح، حيث لا مصادفة ولا اتفاقية عشواء)(1)

4 ـ الدعاء:

من عبادات الكون التي ورد النص عليها في النصوص المقدسـة (الـدعاء).. والـدعاء هـو مخ العبـادة.. ولا يمكن صدوره إلا من ذات واعية تعي حاجتها، وتعرف من تتوجـه إليه بطلب هذه الحاجة.

وقد ورد في النصوص ما يشـير إلى أن الكائنـات قـد منحت من الوعي بالواقع وما يرتبـط بـه من مرضـاة اللـه وسخطه حـتى صـارت كالملائكـة تـدعو للصـالحين وتلعن غيره.

ومما ورد من ذلـك مـا ورد في أحـاديث كثـيرة من استغفار الأشـياء لطـالب العلم، فعن قبيصـة بن المخـارق قال:(أتيت رسول الله ﷺ فقـال لي:(يـا قبيصـة مـا جـاء بك) قلت:(كبرت سني ورق عظمي، فأتيتك لتعلمـني مـا ينفعني الله تعالى به) قال:(يا قبيصة، ما مررت بحجـر ولا

1) الكلمة الثالثة والثلاثون.

شجر ولا مدر إلا استغفر لك، يا قبيصة إذا صليت الفجر، فقل ثلاثا: سبحان الله العظيم وبحمده تعافى من العمى والجذام والفالج، يا قبيصة قل: اللهم إني أسألك مما عندك وأفض علي من فضلك وانشر علي رحمتك وأنزل علي من بركاتك)(1)

ومنها قوله ﷺ:(إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير)(2)

ومنها قوله ﷺ: (من قال إذا ركب دابة: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء، سبحانه ليس له سميّ، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كما له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعليه وسلم، قالت الدابة: بارك الله عليك من مؤمن خففتَ عن ظهري، وأطعتَ ربك، وأحسنتَ إلى نفسك، بارك الله في سفرك، وأنجح مقصدك (3).

ومن هذا الباب ما روي أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي، فمر على نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول:(اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإن لم تسقنا وترزقنا تهلكنا) فقال سليمان:(ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم)

ومنه ما روي أن بعضهم مر على أبي ذر وهو قائم عند فرس له، فسأله: ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: وما دعاء البهيمة من البهائم قال: والذي نفسي بيده ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقو: اللهم أنت خولتني عبدا من عبادك وجعلت رزقي بيده فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده.

1) رواه أحمد.
2) رواه الترمذي.
3) رواه الطبراني.

ولهذا كله ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (مهلًا عن الله مهلًا، فإنه لولا شباب خُشَّع، وبهائم رُتَّع، وشيوخ رُكَّع، وأطفال رضَّع، لصب عليكم العذاب صبًّا)(1)

وعلى عكس هذا ما روي من دعاء هذه الكائنات على من أساء إليها، ومن هذا الباب ما ورد في الحديث من قوله ﷺ:(كان فيمن كان قبلكم رجل يأتي وكْرَ طائر، إذا أفرخ يأخذ فرخيه، فشكا ذلك الطائر إلى الله عز وجل ما يصنع ذلك الرجل به، فأوحى الله عز وجل إليه: إن هو عاد فسأهلكه، فلما أفرخ خرج ذلك الرجل كما كان يخرج، وأخذ سُلمًا، فلما كان في طريق القرية لقيه سائل فأعطاه رغيفًا من زاده، ثم مضى حتى أتى ذلك الوكر، فوضع سلمه، ثم صعد فأخذ الفرخين وأبواهما ينظران، فقالا: يا رب إنك وعدتنا أن تهلكه إن عاد، وقد عاد فأخذها فلم تهلكه، قال: فأوحى الله إليهما، ولم تعلما أني لا أغلب أحدًا تصدَّق في يوم –بصدقة ذلك اليوم- بميتة سوء)(2)

ومن هذا الباب ما روى من التأثير الدنيوي للإساءة الحيوان، فقد روي أن رجلا ذبح عجلا له بين يدي أمه، فخبل، فبينما هو تحت شجرة فيها وكر فيه فرخ فوقع الفرخ إلى الأرض فرحمه، فأعاده في مكانه، فرد الله عليه قوته.

وهذا يتفق مع ما ورد عن نهيه ﷺ أن تولِه والدة عن ولدها وهو ـ كما ذكر العلماء ـ عام في بني آدم وغيرهم.

ومن هذا الباب ما رواه الدينوري في (المجالسة): أن قومًا كانوا في سفر، فكان فيهم رجل يمرُّ الطائرُ فيقول: تدرون ما تقول هذه؟ فيقولون: لا، قال: فأتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها وهو يرغو ويحنو عنقه إليها، قال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا. قال: فإنه يلعن

1) رواه البيهقي في سننه، وأبو يعلى في مسنده.
2) أخرجه ابن النجار في تاريخه.

راكبته ويزعم أنها رحلته على مِخْيَط فهو مؤثر في سنامه. قال: فانتهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يـزعم أن هذا البعير يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط وأنه في سنامه، قال: فأناخوا البعير، فحطوا عنه، فإذا هو كمـا قال)

ولهـذا كـان الصـالحون يستشـعرون خطـر الإسـاءة للحيوان من هذا الجانب، وقـد روي عن بعضـهم أنـه قـال لبعير له عند الموت: (يا أيها البعير لا تخاصمني عنـد ربـك، فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك)

وعن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسـول اللـه ﷺ لى خلفه ذات يوم..فدخل حائطا لرجـل من الأنصـار فـإذا فيـه جمـل فلمـا رأى النـبي ﷺ حنّ وذرفت عينـاه، فأتـاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال: (من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟) فجاء فـتى من الأنصـار فقـال: لي يا رسول الله، فقال: (أفلا تتقي الله في هـذه البهيمـة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه)[1]

1) رواه أحمد وأبو داود.

ثالثا ـ الكون المسخر

الكون ـ في النصوص المقدسة، وكما يفهمه المـؤمن ـ كون مسخر في خدمة الإنسان، يستجيب لجميع مطالبه، ليحقق له الأمن بجميع أشكاله، ويـوفر لـه القـوت بجميـع أنواعه، بل يضم إلى ذلك رعاية جوانبـه النفسـية، فيملأهـا بالحيوية والجمال.

وهـذه الرؤيـة هي الرؤيـة الوحيـدة الـتي يتفـق فيهـا المؤمن مع غيره، وهي رؤيـة مشـتركة من حيث الظـاهر، فالكل يتمتع بخيرات الكـون، ويسـتغلها، ويستسـخرها في مصالحه، معتبرا مصالحه أعلى من مصالحها.

لكن النصـوص المقدسـة تمـيز نظـرة المـؤمن عن نظرات غيره تمييزا كليا، فتكسبها طابعا روحيا مؤدبـا غـير موغل في البهيمية(1) ولا مفرط في الأنانية.

وسـنذكر هنـا بعض خصـائص الكـون المسـخر، كمـا وردت في النصوص، وهي من السمو والرفعـة مـا تجعـل المـؤمن يتعامـل مـع الكـون بإحسـاس مرهـف، عميـق المشاعر.

وهذا الحس النبيل هو الوحيد الذي نعيش فيه السـلام مع الكون، ويعيش فيه الكون السلام معنا.

وسنكتفي بأربع خصائص كـبرى تكـاد كـل الخصـائص الأخرى تؤول إليها:

أما أولها، فالربانية، وهي خاصبة أساسية، فهذا الكون الذي سخر لنا لم يسخر لنا من ذاتـه، وإنمـا سـخر لنـا من الله، فلذلك هو ينتسب إلى الله قبـل أن ينتسـب إلينـا، أو هو يطيع الله في طاعته لنا.

وهـذه النظـرة ترفـع عنـا الكبريـاء الـتي تجعلنـا نهين الكون من حيث لا نشـعر، فنسـتكبر عليـه، أو نطالبـه بمـا نريد وكأننا أربابه.

1) بحسب التعبير الغالب، لا بحسب الحقيقة كما قدمنا.

وأما الثانية، فالسلام، فالكون خلقه الله مسالما لنا، لا مصارعا لنا، ومن الخطأ الذي يتسرب من غياب هذه النظرة التعامل مع الكون تعامل المحاربين لا تعامل الأصدقاء.

وأما الثالثة، فالحكمة، وهي أن هذا الكون بما فيه خلق لحكم جليلة، ومن الأدب مع الله أن نراعي ما خلق له، فنستعمله فيما خلق له.

وأما الرابعة، فالطهارة، فهذا الكون الذي سخر لنا خلق على الفطرة الأصلية، وهي فطرة طاهرة سليمة.. ومن العبث بخلق الله والاستهانة به احتقار فطرته، أو تحويلها.

1 ـ الربانية:

أول خاصية من خصائص الكون ربانيته، فالكون كون الله ملكا، وكون الله تدبيرا.

وهذان الجانبان هما اللذان وردت النصوص الكثيرة للدلالة عليهما، وملء القلوب والعقول بمعانيهما.

وهذان المعنيان هما اللذان ينشأ عنهما الأدب الرفيع مع الكون، فالذي يشعر بأن ما يتصور أنه يملكه ملك لله، وأنه مجرد عارية له، يستحيي من الله أن يسيئ إليه في ملكه.

والذي يرى أن ما يحدث في الكون من أحوال تدبير من تدبير الله يستحيي أن يعارض الله في تدبيره.

الملكية:

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النساء: 170) هي اللازمة القرآنية التي تتردد كل حين، لتبين ملكية الله المطلقة لكل ما نراه وما لا نراه من الأشياء.

وليس الغرض من هذا التكرير تقرير هذه الحقيقة فقط، والتي تدل عليها كل الدلائل، بل الغرض منها التنبيه في كل مناسبة تدب فيها الغفلة إلى أن الله مالك السموات والأرض وما فيهن. قال تعالى:﴿ لِلَّهِ مُلْكُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا فِيهِنَّ وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (المائدة:120)

أو في كل مناسبة تستدعي التعرف على عظمة الله، أو التصديق بوعده ووعيده، كما قـال تعـالى: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَـا فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْــدَ اللَّهِ حَــقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَــرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (يونس:55)

أوفي كل مناسبة تسـتدعي التعـرف على مصـنوعات الله المستدرة للحمد، قال تعـالى: الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (الأنعام:1)

أو في كل مناسبة تستدعي تبيان قدرة الله المطلقة، قال تعالى: أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِـلِينَ (5) رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) (الدخان)

أو في كــل مناســبة تســتدعي تــذكير النفس باللــه وبأوصاف الله وبأفعال الله، قال تعالى: قُـلْ لِمَنْ مَـا فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُــلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِــهِ الرَّحْمَــةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَــوْمِ الْقِيَامَــةِ لا رَيْبَ فِيــهِ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (الأنعام:12)

والقرآن الكـريم يخـبر في المناسـبات المختلفـة عن ملكية الله للأشياء، ويرتب عليهـا مـا يقتضـيه اعتقـاد هـذه الملكية:

فيرتب عليها تفرد الله تعـالى بالولايـة والنصـرة، قـال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (البقرة:107)، وقال تعـالى: إِنَّ اللَّهَ لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (التوبة:116)

ويرتب عليها تفرد الله بالثواب والعقاب، قال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة:40)

ويرتب عليها استحقاقه وحده للحمد، قال تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (الاسراء: 111)

ويرتب عليها أنه وحده الذي يجير ولا يجار عليها، قال تعالى: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (المؤمنون:88) لأن الإجارة لا تكون إلا لمالك قادر.

ولهذا كان من أسماء الله تعالى الملك والمالك، وهذا الاسم لا يعني بأي وجه من الوجوه ما نفهمه من الملكية التي ندعي حصولها لنا في بعض الأشياء، فهي ملكية مجازية اعتبارية يحيط بها القصور من كل النواحي بخلاف ملكية الله تعالى.

فالملك ـ كما يقول الغزالي ــ هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه، بل كل شيء فوجوده منه أو مما هو منه، فكل شيء سواه هو له مملوك في ذاته وصفاته وهو مستغن عن كل شيء(1).

والملك بهذا الوصف لا يكون إلا لله، أما العبد فلا يتصور أن يكون ملكا مهما اتسعت أملاكه وقوي نفوذه.

فهو (لا يستغني عن كل شيء، فإنه أبدا فقير إلى الله تعالى، وإن استغنى عمن سواه، ولا يتصور أن يحتاج إليه كل شيء بل يستغني عنه أكثر الموجودات، ولكن لما تصور أن يستغني عن بعض الأشياء ولا يستغني عنه بعض الأشياء كان له شوب من الملك)(2)

وقد أشار بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء: (سلني حاجتك)، فأجابه العارف:(أوتقول لي هذا ولي

1) المقصد الأسنى: 67.
2) المقصد الأسنى: 67.

عبدان هما سيداك) فقال:(ومن هما؟) قال:(الحرص والهوى، فقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك) إلى أن الملك الذي يزعم لنفسه ملكية الخلق لا يملك حتى نفسه.

وبذلك يكون شعور المؤمن بملكية الله لكل الأشياء هو المنطلق للتعرف عليه من خلالها، ثم لتسخيرها وفق إرادة الله.

ولهذا يتفق الأنبياء على تذكير أقوامهم بهذه الحقيقية، وقد أخبر القرآن الكريم أن فرعون لما سأل موسى عن حقيقة الله طالبا التعرف على الماهية قائلا: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أجابه موسى عليه السلام ببيان ملكية الله لجميع الأشياء، فقال:﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الشعراء: 24)

وكأن موسى عليه السلام يرد بهذه الإجابة على كل الأسس التي يقوم عليها تصور فرعون لألوهيته، وهو ما عبر عنه ذات يوم بقوله:﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف: 51)

وبذلك يكون التعرف على ملكية الله للأشياء هو أساس الشعور بالعبودية التي تقتضي تناول الأشياء من يد الله، وهو ما يرفع الإنسان إلى آفاق عليا من الأدب مع الكون ومع الله.

* * *

وفي ذلك الحين يتحول الكون المسخر هدايا ربانية مقدمة من الله للإنسان، ليفيض قلب الإنسان ومشاعره بجميع أنواع الحمد.

وبسر هذا المعنى يرتبط حمد الله ــ كما ورد في الآثار ـ بالأشياء، فرسول الله ﷺ مثلا يعلمنا عندما نريد أن نلبس ثوبا أن نقول كما ورد في الحديث:(من لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير

حول مني ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه)[1]

فقد جاء التعبير النبوي معبرا على أن الله هو الكاسي وهو الـرازق، وأنـه ليس للعبـد من حـول ولا قـوة ليحقـق لنفسه هذه المصلحة.

ولهذا ورد اللباس في القرآن الكريم بصيغة الإلبـاس، كما قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَـدْ أَنزَلْنَـا عَلَيْكُمْ لِبَاسـاً يُـوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّـهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف: 26)

والقرآن الكريم يعبر عن النعم المفاضة على العبـادة مهما اختلف نوعها بصيغة الإنـزال، ليشـير إلى أن ملكيتهـا الحقيقية لله، وأنها وافدة على العباد لا ملكا مستقرا لهم.

قال تعالى في بيان عمومية نزول كل ما يتصور العباد ملكيته من الكـون: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْـدَنَا خَزَائِنُـهُ وَمَـا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر:21)

ويستوي في هذا الإنزال ما يكـون حسـا أو مـا يكـون معنى:

قال تعالى عن إنزال الكائنات الحسية: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْـهُ حَرَامـاً وَحَلالاً قُـلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس:59)

وخص بعض الكائنات الحسـية بالـذكر بصـفة الإنـزال لأهميتهـا، ومنهـا الأنعـام، قـال تعـالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَـلَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَـامِ ثَمَانِيَـةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ خَلْقـاً مِنْ بَعْـدِ خَلْـقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْـكُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ فَـأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (الزمر:6)

ومنهـا إنـزال المـاء، وهـو أكثرهـا ورودا في القـرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (النحل:10)

---

1) رواه أبو داود والترمذي.

وليس المراد بالإنزال هنا ما يتوهم من كـون المطـر نازلا من السماء فقط، وإنمـا المـراد ربطـه بملكيـة اللـه، ولهذا سبق الإنزال ذكر الضمير المنفصل العائد على اللــه تعالى.

ومن النعم الحسية المنزلة الحديد، قال تعـالى: لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِـيزَانَ لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِـالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَـوِيٌّ عَزِيـزٌ (الحديد:25)

وفي المــزج بين إنــزال الحديــد، وإنــزال الكتــاب والميزان، وتقـديم الكتـاب والمـيزان على الحديـد إشـارة إلى أن تسيير منافع الحديد مقيد بالضوابط الـتي يفرضـها الكتاب والميزان.

ومثل إنزال ملكية الله للكائنـات الحسـية إنـزال اللـه للكائنات المعنويـة، ومنهـا السـكينة والجنـد الربـاني، قـال تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُـؤْمِنِينَ وَأَنْـزَلَ جُنُـوداً لَمْ تَرَوْهَـا وَعَـذَّبَ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ الْكَافِرِينَ (التوبـة:26)، وقـال تعـالى: إِلاَّ تَنْصُـرُوهُ فَقَـدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـاحِبِهِ لا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَـا فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة:40)، وقال تعــالى: إِذْ جَعَــلَ الَّذِينَ كَفَــرُوا فِي قُلُــوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُـؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَـانَ اللَّهُ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (الفتح:26)

ومن هـذا البـاب إنـزال الملائكـة والـروح، كمـا قـال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْـرِهِ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (النحل:2)

ومنه إنزال الشعور بالأمن الذي يملأ النفس بالراحــة،

ويتيح لها النوم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْـزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْـدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ (آل عمران:154)

وبهذا يعيش المؤمن، وهـو يـرى كـل شـيء من اللـه حتى الطعام الذي يأكله، واللباس الذي يكسوه، وقـد قـال تعالى في الحديث القدسي:(يا عبـادي كلكم جـائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يـا عبـادي كلكم عـار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم)(1)

وبهذا الشـعور المعطـر بـالاعتراف بالنعمـة لمسـديها يخف غرور الإنسان، بل يتلاشى، وهو ما يجعله يتعامل مع الأشياء تعامل العبودية التي تفيض باللطف والرحمة.

وقد علمنا رسول الله ﷺ من صـيغ الـذكر مـا يغـرس هذه المعاني في نفوسنا، أو ما يحوله إلى واقع حي يرفـع أرواحنا، ويهذب سلوكنا.

فقـد كـان رسـول اللّـه ﷺ إذا أصـبح قـال:(أصـبحنا وأصـبح الملـك للـه عـز وجـل، والحمـد للـه، والكبريـاء والعظمة للـه، والخلـق والأمـر والليـل والنهـار ومـا سـكن فيهمـا للـه تعـالى، اللهم اجعـل أول هـذا النهـار صـلاحا، وأوسطه نجاحا وآخره فلاحا، يا أرحم الراحمين)(2)

وفي كون هذا الذكر في الصباح ــ الـذي يعـني بدايـة عمر اليوم ــ وهـو الحين الـذي يكـون فيـه عقـل الإنسـان فارغا مهيئا لأي فكرة، وتكون جوارحـه نشـطة مهيئـة لأي عمل، إشارة إلى أن التعرف على ملكية الله للأشـياء هـو الأساس الذي يحفظ التعامل معها ويرقيه.

وفي المسـاء يعـود التـذكير بهـذه المعـاني متصـدرا أعمال الإنسان في الشطر الثاني من يومه، فقـد كـان ﷺ يقول إذا أمسى:(أمسينا وأمسى الملك لله لا إله إلا اللـه وحده لا شـريك لـه،لـه الملـك ولـه الحمـد وهـو على كـل شيء قدير، رب أسألك خير مـا في هـذه الليلـة وخـير مـا

1) رواه مسلم.
2) رواه الطبراني.

بعدها وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر مـا بعـدها رب أعوذ بك من الكسـل ومن سـوء الكـبر أو الكفـر رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر)(1)

بل علمنا رسـول اللـه ﷺ أن نطـرد الغفلـة عن هـذه المعاني حتى في اللحظات القصـيرة الـتي ننتبـه فيهـا من الليل، قال ﷺ:(من تعار من الليل فقـال حين يسـتيقظ لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه لـه الملـك ولـه الحمـد وهـو على كل شيء قدير سـبحان اللـه والحمـد للـه ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم دعـا رب اغفـر لي ـ قال الوليد أو قال دعا ـ استجيب له فإن قـام فتوضـأ ثم صلى قبلت صلاته)(2)

وكـان النـبي ﷺ إذا قـام من الليـل يتهجـد يبـدأ بهـذه المعـاني لتكـون أساسـا لهبـات اللـه النازلـة على الـروح: (اللهم لك الحمـد أنت قيم السـموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد لـك ملـك السـموات والأرض ومن فيهن ولـك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولـك الحمـد أنت ملــك الســموات والأرض ولــك الحمــد أنت الحــق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك حق والجنـة حـق والنـار حق والنـبيون حـق ومحمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم حـق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك تــوكلت وإليك أنبت وبـك خاصـمت وإليـك حـاكمت فـاغفر لي مـا قدمت وما أخـرت ومـا أسـررت ومـا أعلنت أنت المقـدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت أو لا إله غيرك)(3)

وقد أمرنا أن ننطق بهذه الحقيقة ونجعلها شـعارا في أكبر تجمـع للمسـلمين، وفي أكـبر تظـاهرة بشـرية، فقـد كانت تلبية رسول الله ﷺ:(لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)

وفي تخصيص ذلك التجمـع بهـذا الـذكر الجليـل تعليم

---

1) رواه مسلم.
2) رواه البخاري وغيره.
3) رواه البخاري ومسلم.

للأمة أن لا تقدم أي ملك على ملك الله، ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ:(أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله تعالى)(1)

وقد علمنا رسول الله ﷺ ـ بالإضافة إلى هذه الأذكار الوقتية ـ أن ننبه أنفسنا دائما إلى ملكية الله للأشياء في كل حين، بل دعا إلى التنافس في ذلك، فقال:(من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)(2)

* * *

هذا هو أساس تعامل المؤمن مع الأشياء، أما الجاحد فهو في تخرصاته وكبريائه وتيهه عن الحق لا يستشعر شيئا من اللذة التي يستشعرها المؤمن وهو يتناول الأشياء من يد الله، قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (يونس:66)

وقال عن الذين اتخذوا من دونه أولياء: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد:16)

وهؤلاء خبطوا وخلطوا، فـ ﴿ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه البخاري ومسلم.

فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الأنعام:136)

ونتيجة خلطهم وخبطهم أنهم يعبدون السراب، ويدعون من لا يملك شيئا، قال تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (سبأ:22)

بل لو كان بيد هؤلاء أي ملك، فإن ملكهم سيبقى قاصرا عليهم، قال تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (النساء: 53)، وقال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً (الاسراء:100)

وهؤلاء الجاحدون ــ الذين غفلوا عن ملكية الله للأشياء في الدنيا ـ سيدركونها يوم القيامة، ولذلك يجيئ التعبير القرآني مخبرا عن ملكية الله للأشياء في الآخرة، وهو لا يعني عدم ملكيته لها في الدنيا، وإنما هو إخبار عن تعرف الجاحدين والغافلين حينها على هذه الملكية، كما قال تعالى: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (الفاتحة:4)

وهؤلاء الجاحدون ـ كما يخبر القرآن الكريم ــ يقرون بهذه الملكية: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (غافر:16)

وقد صور ابن مسعود ذلك المشهد بقوله:(يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها، فيؤمر مناد ينادي:(لمن الملك اليوم)، فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: (لله الواحد القهار)، فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا.

ويصور سيد قطب هذا المشهد الذي تنكشف بها الحقيقة بقوله:(ويومئذ يتضاءل المتكبرون، وينزوي المتجبرون، ويقف الوجود كله خاشعاً، والعباد كلهم خضعاً.

ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسطان. وهـو سـبحانه متفرد به في كل آن. فأمـا في هـذا اليـوم فينكشـف هـذا للعيـان، بعـد انكشـافه للجنـان. ويعلم هـذا كـل منكـر ويستشعره كـل متكـبر. وتصـمت كـل نأمـة وتسـكن كـل حركة. وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب ؛ فما في الوجود كله يومئذ من سائل غـيره ولا مجيب: لمن الملـك اليوم؟ .. لله الواحد القهار)(1)

وينفي الغزالي ما قـد يتوهمـه الغـافلون من انحصـار الملك لله في الآخـرة بقولـه:(ولا قـادر الا الملـك الجبـار، واذا انكشفت الغطـاء عن أعين الغـافلين فشـاهدوا الامـر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي لمن الملك اليـوم للـه الواحد القهار ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك على الخصوص، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الا ذلـك اليـوم فهـو نبـأ عمـا يتجـدد للغـافلين من كشـف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف)(2)

ومثل الكلام في تينك الآيتين الكلام في قوله تعـالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ وَيَـوْمَ يَقُـولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَـقُّ وَلَـهُ الْمُلْـكُ يَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ عَـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (الأنعـام:73)، وقولـه تعـالى: الْمُلْـكُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ لِلـرَّحْمَنِ وَكَـانَ يَوْمـاً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (الفرقان: 26)

فالملكيـة المخصوصـة بـاليوم الآخـر، لا تنفي ملكيـة الدنيا، بل هي استمرار لها، والمراد بتخصيصها هـو الإخبـار عن اكتشاف الجاحدين والغافلين لهـا، وهـو اكتشـاف بعـد فوات الأوان، ولات ساعة مندم.

ولهذا لا يصح ما يردده المسيحيون، وينسبونه للمسيح عليه السلام:(دعوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، بل الصـحيح أن قيصر وما لقيصر لله ملكا وتدبيرا، وحكما وتقديرا.

---

1) في ظلال القرآن: 5/3073.
2) الإحياء:1/324.

التدبير:

كما أن كل شيء من الكائنات ملك لله، لا يحق التصرف فيه إلا باسم الله، فإن كل شيء مما نراه من أنواع التدبير ملك لله كذلك، فالله تعالى هو المتصرف في كل شيء المحرك لكل شيء الفاعل لكل شيء[1]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: 3)

والقرآن الكريم مليء بذكر أنواع التدبير الإلهي للأشياء، وهو يعرضها بصيغ مختلفة ليقرأ المؤمن من خلال تدبير الله للأشياء صفات الكمال لله، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس:31)

وهذا التدبير يشمل جميع الأشياء، حتى ما نتوهمه مظاهر طبيعية، ناتجة عن أسبابها الفلكية الحسية، قال تعالى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر:13)

فالله تعالى هو الذي يمدنا بضوء النهار وسكينة الليل، لا حركات الأرض، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الاسراء:12)

والله هو الذي يقلب الليل والنهار، لا ما نتوهمه من أسباب، قال تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ

1) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار) من هذه السلسلة.

لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (النور:44)، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (الفرقان:47)، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (الفرقان:62)

وليس هناك من تناقض بين الأمرين، فلا علمنا بتدبير الله ينفي الأسباب التي وضعها الله، ولا الأسباب تنفي تدبير الله، فالأشياء وأسبابها جميعا خلق من خلق الله.

ولهذا ورد التعبير القرآني عن تعاقب الليل والنهار بصيغة التقليب، قال تعالى: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (النور:44) وهذا التقليب لا يبصره إلا من رفع الغشاوة التي تقصر بصره على ما يتوهمه.

وبمثل ذلك يتحدث القرآن الكريم عن جميع المظاهر التي ينسبها الجاحدون والغافلون للطبيعة، فالرياح لا تهب، وإنما ترسل.

وقد كرر تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (لأعراف:57)

فالآية ترجع الأمر لله في كل شيء، فنلاحظ هذه التعابير التي يتيه عنها الماديون: (يُرْسِلُ، سُقْنَاهُ، فَأَنْزَلْنَا، فَأَخْرَجْنَا..) وكلها تشير إلى تدبير الله للكليات والجزئيات.

وبمثل ذلك جاء تعبير (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) بدل تعبير (فشربتم) في قوله تعالى: وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (الحجر:22)

وبمثل ذلك جاء تعبير (فَأَحْيَيْنَا) بدل (حيت) في قوله تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (فاطر:

9)

وفي مراعاة التعبير عند الحديث عما يسمى بمظاهر الطبيعة جاء قوله ﷺ حاكيا عن ربه تعالى:(قال الله تعالى ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون الكوكب وبالكوكب)(1)

والكوكب المراد هنا هو ما كان أهل الجاهلية ينسبون به الحوادث، إما باعتباره مؤثرا أو باعتباره علامة، وهو نفس ما تذهب إليه الجاهلية الحديثة حين تفسر الأشياء بعللها التي تتوهمها نافية تصريف الله تعالى وتدبيره.

ولذلك اعتبر ﷺ هذه النسب الوهمية من الجاهلية، فقال ﷺ:(أربع من أمر الجاهلية لن يدعهن الناس التعيير في الأحساب والنياحة على الميت والأنواء وأجرب بعير فأجرب مائة من أجرب البعير الأول)(2)

وأخبر ﷺ عن عدم تماسك التفسير الطبيعي المتناسي لتصريف الله بقوله ﷺ:(لو أمسك الله عز وجل المطر عن عباده خمس سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة من الناس كافرين يقولون سقينا بنوء المجدح)(3)

وقد بين لنا ﷺ الطريقة الصحيحة في التعبير عن الحوادث الكونية بحادثة وقعت، فقد صلى ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال:(هل تدرون ماذا قال ربكم؟)، قالوا:(الله ورسوله أعلم) قال:(أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب)(4)

بل إن القرآن الكريم يرشدنا إلى نسبة ما نتوهمه من أفعالنا إلى الله، فالله تعالى ينسب إليه ما يتصور

---

1) رواه أحمد ومسلم والنسائي.
2) رواه أحمد.
3) رواه أحمد والنسائي وابن حبان.
4) رواه البخاري ومسلم.

الإنسان تفرده بتصـريفه، قـال تعـالى عن عمليـة الحـرث والزرع الـتي ينسـبها كـل إنسـان إلى نفسـه: أَفَـرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُـونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُـونَ ، ومثلـه قولـه تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُـوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (لأنفـال: 17)، فاللـه تعـالى هـو المتفـرد بالتدبير والتصريف.

وهكذا مما لا يمكن حصره في القرآن الكريم.

فالقرآن الكـريم ينبهنـا إلى الفاعـل الحقيقي حـتى لا ننحجب بعالم الحكمة عن قدرة الله، فعالم الحكمـة يرينـا الأسباب، وعالم القدرة يرينا رب الأسـباب، وكلاهمـا يـدل عليه العقل والذوق.

ولهذا كان أكبر القـوادح في التوحيـد نسـبة أحـداث الكون للكون، بل نص القرآن الكريم على كونـه شـركا، قال تعالى: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الـــدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَـــرِّ إِذَا هُمْ يُشْـــرِكُونَ (العنكبوت:65)

قال الغزالي يبين حقيقة العلم الـذي يضـع الأشـياء موضعها:(ومن انكشف له أمر العلم كما هو عليــه علم أنّ الـريح هـو الهـواء، والهـواء لا يتحـرّك بنفسـه مـا لم يحرّكه محرّك، وكذلك محرّكه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحـرك الأوّل الـذي لا محـرّك لـه ولا هـو متحـرك في نفسه عز وجل)(1)

ولهذا بين لنا الله تعالى مـا ينبغي أقوالـه عنـد ركـوب الفلك: وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَـا بِسْـمِ اللَّهِ مَجْرَاهَـا وَمُرْسَـاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (هود:41) فمجـرى السـفينة ومرسـاها من الله تعالى .

وعلمنـا أن نقـول: لِتَسْـتَوُوا عَلَى ظُهُـورِهِ ثُمَّ تَـذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَـخَّرَ لَنَـا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (الزخرف:13)

---

1) الإحياء.

فالأنعام مسخرة ـ كما تنص الآية ــ وهي لـذلك تسـير بأمر الله، وتتحرك بتصريف الله، والعاقـل هـو الـذي يلجـأ إلى الآمر لا إلى المأمور.

* * *

وهذا الإدراك ليس سلبيا كمـا يتصـور المجـادلون في الله بغير علم، فيقولون، أو يقول الشيطان على ألسنتهم: (أنتم تهربـون من الواقـع بنسـبة التـدبير إلى اللـه)، بـل يضحكون بسخرية واستهزاء إن نسب ما يتوهمونه مظاهر طبيعية للتصريف الإلهي.

ولا يمكن الحديث مـع هـؤلاء أو تبـادل الجـدال معهم، ولكنا نقول ــ بأسـلوبهم ــ إن النتـائج العمليـة النافعـة من التحقق بهذا الإدراك والشعور به لا تكاد تحصى:

ومن هـذه النتـائج السـامية: احـترام تصـريف اللـه، والشعور بالأنس حين يمتلئ القلب بنشوة النظر إلى اللـه وهو يجيب الحاجات المختلفةِ للكائنات، كما قـال تعـالى: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلَّ يَـوْمٍ هُـوَ فِي شَـأْنٍ (الرحمن:29)، ثم بعد هذا التطلع لما في يد الله والتضرع إليه في تحقيقه.

ومنهـا التـأدب مـع الكـون، واحترامـه فقـد وردت بهـا النصوص الكثيرة تنهى عن سب الـريح أو الناقـة أو الـدهر لأن كل ذلك من الله.

أما سب الزمان والدهر، الذي يعني تقلبات الحوادث، فقد ورد النهي عنه في أحاديث كثيرة قال ﷺ:(قـال اللـه عز وجـل يؤذيـني ابن آدم يسـب الـدهر وأنـا الـدهر بيـدي الأمر أقلب الليل والنهـار)(1)، وقـال ﷺ:(لا تسـموا العنب الكرم ولا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الـدهر)(2)، وقـال ﷺ:(إن الله عز وجل قال استقرضت عبدي فلم يقرضني وسبني عبدي ولا يدري يقول وادهراه وادهراه وأنا الـدهر)

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه مسلم.

(1)

ونهى ﷺ عن سب الريح، وأخبر بأنها لا تتحرك حسب رغبتها، وإنما تتحرك بهدي الوحي الإلهي الـذي يسـير كـل شيء، فقد روي أن رجلا لعن الريح عنـد النـبي ﷺ فقـال: (لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شـيئا ليس لـه بأهل رجعت اللعنة عليه)(2)

وعلمنا ﷺ الطريقة الصحيحة في التعامل معها، فقال ﷺ:(الريح من روح الله، فروح الله تـأتي بالرحمـة وتـأتي بالعـذاب فـإذا رأيتموهـا فلا تسـبوها وسـلوا اللـه خيرهـا واستعيذوا بالله من شرها)(3)

وقد ذكر ﷺ عقوبـة من يسـب بعض هـذه الكائنـات الـتي لا تملـك من أمـر نفسـها شـيئا، وهي عـدم جـواز الانتفاع بها، فعن عائشة أنهـا ركبت جملا فلعنتـه، فقـال لها النبي ﷺ:(لا تركبيه)(4)

وفي ذلك أبلغ التحذير من التطاول على خلق الله.

بل إنه لا ينبغي احتقار حتى البعـوض الـذي قـد يؤذينـا بلسعه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْـرِبَ مَثَلاً مَـا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة: 26)

بـل إن القـرآن الكـريم ينبـه الـذين يحتقـرون بيت العنكبوت أن بيوتهم أوهن، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَـلِ الْعَنْكَبُـوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتـاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:41)

وينبه الذين يحتقـرون الـذباب إلى مـا يشـير إليـه من نواحي ضعفهم، قـال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ ضُـرِبَ مَثَـلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابـاً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:73)

---

1) رواه ابن جرير والحاكم.
2) رواه أبو داود والترمذي.
3) رواه البخاري في الأدب، وأبو داود والحاكم.
4) رواه أحمد وأبو يعلى.

ومن نتائج هذه النظرة السامية: الراحة من منازعة الأقدار اكتفاء ببتقدير الله:

وهي نتيجة مهمة، فإن العالم بتصريف الله للكائنات لا يحزن ما يحصل له منها، أو ما يفوته من منافعها، لأن سبب الحزن هو فوات المقدور عليه، أما ما يعتقد استحالته فإن نفس استحالته تعزيه عن عدم حصوله عليه.

فلذلك لا يخاف مالك على ملكه، ما دام الله هو مؤتي الملك ونازعه، فإن أتى فبفضل الله، وإن ذهب فبقدرة الله، ولن تستطيع قوة في العالم نزعه أو تثبيته، قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:26)

ولا يخاف على رزقه ما دام الله هو الرازق قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس:31)

ولا يخاف الضر، ولا يرجو النفع من غيره، قال تعالى: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس:49)

وهكذا في جميع شؤون حياته.. قال الغزالي مبينا التأثير النفسي لهذه المعارف:(.. أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه

مسـخرون لا اسـتقلال لهم بتحريـك ذرّة من ملكـوت السـموات والأرض، وإذا انفتحت لـك أبـواب المكاشـفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر)[1]

وهذه المعـارف إذا انصـبغ بهـا كيـان الإنسـان وتوحـد قلبه عند النظر للكون أو التعامل معه هـو الكفيـل الوحيـد بتحقيق الراحة والسعادة والطمأنينة.

لأن مصـدر القلـق والاضـطراب هـو الشـتات الـذي يحصـل في الإنسـان نتيجـة رؤيـة الأشـياء قائمـة بـذاتها، فتتوزع في نفسـه الرغبـة منهـا أو الرهبـة، وهي متناقضـة مختلفة، فيحصل فيه من التناقض بحسبما في الأشياء من تناقض.

أما إذا رآها جميعا بيد الله، فإن قلبه يتوحد مع الله.

ومن نتائج هذه النظـرة السـامية: اللجـوء إلى اللـه لا إلى الكون، وطلب الأشياء من اللـه لا من الأشـياء، فاللـه هو المتصرف لا الأشياء.

ومن الحماقـة أن نـترك الآمـر ونتوجـه إلى المـأمور، وقد ذكر الغزالي مثالا يبين تهافت الذين ينسـبون الأشـياء إلى ما يتوهمونه، ثم يلجؤون إليه بضراعة والرجاء بقوله:(فالتفات العبـد في النجـاة إلى الـريح يضـاهي التفـات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعـاً بـالعفو عنـه وتخليتـه، فأخذ يشـتغل بـذكر الحـبر والكاغـد والقلم الـذي بـه كتب التوقيع يقـول: لـولا القلم لمـا تخلصـت، فـيرى نجاتـه من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل)[2]

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تدعونا إلى طلب منافع الكون من الله، ولـو كـانت هـذه المنـافع ممـا ننسـبه إلى أنفسنا أو ننسبه إلى الطبيعة.

ففي الوقت الذي يستسقي فيها الجاهلون بالأنواء، أو يقولون ما يقول قوم هود حين رأوا سـحاب العـذاب، ممـا

---

1) الإحياء.
2) الإحياء.

قصه علينا الله تعالى، قال تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (الاحقاف:24)

في ذلك الوقت يتوجه المؤمنون إلى الله رب المطر ومنزله بالدعاء والعبودية، وقد وردت صيغ رقيقة عميقة في الاستسقاء تبين الروح التي يتعامل بها المؤمن مع الأشياء والحوادث.

منها ما روي أن الناس شكوا إلى رسول اللّه ﷺ قحوطَ المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناسَ يوماً يخرجون فيه، فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر فكبر وحمد الله عزوجل، ثم قال: (إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم)، ثم قال: (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين)

ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره وقلب، أو حول رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين.

وكانت نتيجة هذا الدعاء، وما اشتمل عليه من مظاهر الذلة لله تعالى ما نصت عليه الرواية:(فأنشأ الله تعالى سحابة، فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه، فقال:(أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله)[1]

ومثلما طلب ﷺ السقيا من الله طلب الصحو من الله، فقد روي أنه لما كثر المطر سألوه الإستصحاء

1) رواه أبو داود، وقال: حديث غريب، وإسناده جيد.

فاستصحى لهم وقال:(اللهم حوالينـا ولا علينـا اللهم على الآكام والجبال والظراب وبطون الأودية ومنـابت الشـجر)[1]

وكان ﷺ إذا رأى مطـرا قـال:(اللهم صـيبا نافعـا)[2]، وكان يحسر ثوبه حتى يصيبه من المطر، فسئل عن ذلـك، فقال:(لأنه حديث عهد بربه) [3]

ويروى أنه كان إذا سال السيل قال:(اخرجوا بنـا إلى هذا الذي جعله الله طهورا فنتطهر منه، ونحمد الله عليـه)[4]

ومثل اللجوء إلى الله في الاستسـقاء وطلب المنـافع الـتي أودعهـا اللـه المطـر، اللجـوء إلى اللـه في جميـع المنافع، وحمد الله عند حصول كل خير.

فقـد كـان رسـول اللـه ﷺ إذا طلعت الشـمس قـال: (الحمد لله الذي جللنا اليوم عافيته، وجـاء بالشـمس، من مطلعها، اللهم أصبحت أشهد لك بما شـهدت بـه لنفسـك، وشهدت به ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك إنك أنت اللـه لا إلـه إلا أنت القـائم بالقسـط، لا إلـه إلا أنت العزيـز الحكيم، اكتب شهادتي بعد شـهادة ملائكتـك وأولي العلم، اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك السلام، أسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تستجيب لنا دعوتنا، وأن تعطينا رغبتنا، وأن تغنينا عمن أغنيته عنا من خلقك، اللهم أصلح لي ديني الـذي هـو عصـمة أمـري، وأصـلح لي دنيـاي الـتي فيهـا معيشتي، وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي)[5]

2 ـ السلام:

تكاد كل النعم المسـخرة في الكـون تقـول للإنسـان: (أنا بين يديك.. أنا رهن إشارتك.. أنا مخلوق لخدمتك)

أو تقول ما قاله بديع الزمـان، وهـو يعـبر عن خطـاب

1) رواه ابن ماجة.
2) رواه البخاري.
3) رواه مسلم وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد.
4) رواه الشافعي والبيهقي مرسلا.
5) رواه أحمد ورجاله ثقات.

الشمس لنا، وترحيبها بنا:(يا إخوتي لا تستوحشوا مني ولا تضجروا! فأهلاً وسهلاً بكم. فقـد حللتم أهلاً ونـزلتم سـهلاً. أنتم أصحاب المنزل، وأنا المأمور المكلـف بالإضـاءة لكم، أنا مثلكم خادم مطيع سخرّني الأحد الصمد للاضـاءة لكم، بمحض رحمتـه وفضـله. فعليّ الاضـاءة والحـرارة وعليكم الدعاء والصلاة)(1)

وهكذا يخاطبنا كل شيء بلسان حالـه، (فيـا هـذا هلاّ نظرت إلى القمر.. إلى النجوم.. إلى البحـار.. كـل يـرحب بلسانه الخاص ويقول: حياكم وبياكم. فأهلاً وسهلاً بكم)

وهكـذا تخاطبنـا كـل الأشـياء رافعـة ألويـة السـلام، فتسخير الله للكون تسخير مصحوب بالسلام.

ولا ينبغي أن يحجبنـا مـا قـد يمـر بنـا من المتـاعب والمشاق عن رؤيـة سـلام الكـون، فهي متـاعب يقتضـيها البلاء، وهي متـاعب بسـيطة بجنب الثمـرات والمصـالح المتحققة.

والمؤمن ينظر إلى الكـون، ومـا سـخر لـه فيـه بهـذه النظرة، فهو يتعامل مع كون سخر له، لا كون معاند يحتاج فيه إلى الصراع معه من أجل تحقيق مصالحه.

وهـذه النظـرة تخـالف نظـرة الكـافر الجاحـد، الـذي يمتلئ كبرا وغـرورا، فيتصـور أنـه مصـارع عـنيف، فلـذلك يفـرض وجـوده على هـذه الأرض بجهـده وحيلتـه وقوتـه، ويقول ـ كمـا عـبر القـرآن الكـريم على لسـان قـارون ـ: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (القصـص: 78) فلـذلك رد عليه تعـالى مكملا:﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَـدْ أَهْلَـكَ مِنْ قَبْلِـهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْـأَلُ عَنْ ذُنُـوبِهِمُ الْمُجْرِمُـونَ ﴾ (القصـص: 78) فهـل علمـه من القصور ما جعله لا يمتد إلى معرفة مصاير القرى الهالكة، ليرى أسباب هلاكها؟

ومثل قـارون من أنعم اللـه عليـه بنعمـة العافيـة بعـد

1) الكلمة الثالثة والثلاثون.

البلاء، فينسى المبتلي والمعافي، لا يذكر إلا نفسه، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:49)

وهكذا الإنسان الثامل بخمرة العلم الحديث، والساجد أمام وثن العقل يتصور أنه يصارع الطبيعة، ويغلبها غلبة الأبطال.

وفي مقابل ذلك نجد القرآن الكريم يصور النعم المستسخرة بصورة الهدايا المقدمة على أطباق، ومعها ختم المهدي، فالله تعالى صور ــ مثلا ــ الأرض بصورة المركب الذلول، المحتوية على كل المنافع، فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك:15)

فالآية تصف الأرض بكونها ذلولا، وهذا الوصف يطلق عادة على الدابة، ليصور في الأذهان ويغرس في العقول والقلوب (أن هذه الأرض التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هي دابة متحركة.. بل رامحة راكضة مهطعة(1)، وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها على ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول، ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول!)(2)

بينما يصورها الجاحدون في صورة الدابة الرامحة الراكضة التي تحتاج فارسا قويا مثل فرسان رعاة البقر ليقوم بترويض جماحها على نغمات تصفيق المعجبين.

ولهذا نجد في القرآن الكريم روعة التعبير عن الكون المسخر، بخلاف تعبير العلوم الحديثة، والتي كان تقهقرها

1) فالأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة. ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء.. ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا معافى لا تتمزق أوصاله، ولا تتناثر أشلاؤه، بل لا يرتج مخه ولا يدوخ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول.. انظر ما يشير إلى هذه الحركات من القرآن الكريم في رسالة (معجزات علمية)

2) في ظلال القرآن.

في فلسفة ما اكتشفته من معارف مساويا لتقدمها في اكتشافاتها واختراعاتها.

وقد عقد النورسي هذه المقارنة بين التعبير القرآني في وصف الشمس في قوله تعالى: وَجَعَلَ الشمسَ سراجاً (نوح:16)، وبين التعبير العلمي الحديث الجاف، فقال عن التعبير القرآني:(في تعبير السراج تصوير العالم بصورة قصر، وتصوير الأشياء الموجودة فيه في صورة لوازم ذلك القصر، ومزيّناته، ومطعوماته لسكان القصر ومسافريه، واحساسٌ أنه قد أحضَرتها لضيوفه وخدّامه يدُ كريمٍ رحيم، وما الشمسُ إلاّ مأمور مسخَّر وسراج منوَّر. ففي تعبير السراج تنبيه الى رحمة الخالق في عظمة ربوبيته، وافهامُ إحسانه في سعة رحمته، واحساسُ كرمه في عظمة سلطنته)(1)

أما العلم الحديث فيعرف الشمس بأنها (كتلة عظيمة من المائع الناري تدور حول نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى فتدور هذه الاجرام العظيمة المختلفة في الجسامة.. ضخامتها كذا.. ماهيتها كذا..)

وعقب على هذه المقارنة بقوله:(فانظر ماذا أفادتك هذه المسألة غيرَ الحيرة المدهشة والدهشة الموحشة، فلم تُفِدْك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحياً ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية)

وعلى هذا تقاس جميع التعبيرات القرآنية المتعلقة بالكون المسخر، ولذلك من الجهل العظيم ما أنكره بعضهم من أن القرآن الكريم لا يتكلم عن الكائنات من الزاوية التي يسمونها علما، ويقصرون العلم عليها، قال النورسي:(فقس على هذا لتقدّر قيمة المسائل الفلسفية التي ظاهرُها مزخرفة وباطنُها جهالة فارغة، فلا يغرّنك تشعشع ظاهرها وتُعرِض عن بيان القرآن المعجز)

1) انظر: المكتوب التاسع عشر، النورسي.

* * *

والنظـرة المسـالمة للكـون، أو شـعورنا بـأن الكـون مسـالم لنـا يـدعونا إلى احـترام هـذا السـلام، فلا نبادلـه بالحرب، ولا نتعامل معه وفق ما يمليه الصراع.

ولهذا ورد في النصـوص الحث على رحمـة الكائنـات، ومحبتها في الله، وأخذ ما نأخذ منها باسم الله.

وقد ورد فيها ما يرغب في الجزاء الذي أعـد للتعامـل المسالم مـع الكائنـات، ومـا يـرهب في نفس الـوقت من التعامل معها كما يتعامل معها المصارعون:

فقد جاء رجل إلى رسـول اللـه ﷺ فقـال:(إني أنـزع في حوضي حـتى إذا ملأتـه لأهلي ورد علي البعـير لغـيري فسقيته، فهل لي في ذلك من أجر، فقال رسول اللـه ﷺ: (في كل ذات كبد حرى أجر) (1)

وجاء رجل آخر، فقال: يا رسول إن الضـالة تـرد على حوضي فهل لي فيها من أجر إن سـقيتها؟ قـال:(أسـقها، فإن في كل ذات كبد حراء أجراً)(2)

وفي حـديث آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ:(بينمـا رجـل يمشي بطريق اشـتد عليـه الحـر، فوجـد بـئراً فـنزل فيهـا فشـرب، ثم خـرج، فـإذا كلب يلهث يأكـل الـثرى من العطش، فقال الرجـل: لقـد بلـغ هـذا الكلب من العطش مثل الذي كـان بلـغ مـني، فـنزل البـئر فملأ خفـه مـاء، ثم أمسكه بفيه حـتى رقي، فسـقى الكلب، فشـكر اللـه لـه، فغفرله، قـالوا:يـا رسـول اللـه إن لنـا في البهـائم أجـراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر)(3)

وأخـبر ﷺ أن اللـه تعـالى غفـر لمـومس مـرت بكلب يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقتـه بخمارهـا، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك(4).

---

1) رواه أحمد.
2) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه ابن ماجة والبيهقي.
3) رواه لبخاري، ومسلم.
4) رواه مسلم.

وفي حـديث آخـر، أن رسـول اللـه ﷺ قـال:(الخيـل لثلاثة: لرجـل أجـر، ولرجـل سـتر، وعلى رجـل وزر. فأمـا الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مـرج أو روضة فما أصابت في طلبها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت أرواؤها وأثارها حسنات لـه، ولـو أنهـا مـرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسـقيها كـان ذلـك حسـنات له..)[1]

والجزاء على الإحسان للكائنات لا يقتصر على الجزاء الأخروي، بل هو جزاء يشمل الدنيا والآخرة، قـال مطـرف بن عبدالله:(إن الله ليرحم برحمة العصفور)

وقد ذكر الشعراني واقعة حـدثت لـه تشـير إلى هـذا، قال:(مما وقع لي أن زوجـتي فاطمـة القصـبية أم ولـدي عبدالرحمن نزل عليها حادر وأشرفت على الموت وغـابت عن إحساسها وصـاحت أمهـا وأهـل الـدار عليهـا حين رأوا أمارات الموت فحصل عندي كرب شديد لأجلهـا من جهـة موافقتهـا للمـزاج ودينهـا وخيرهـا فـإذا بقائـل يقـول لي: (ادخل مجاز الخلاء تجد ذبابة في شق سحبها ضبع الذباب وهي صائحة يريد أكلها فخلصها ونحن نخلص لك زوجتك)، فـدخلت ونظـرت إلى الشـق، فسـمعت صـياح الذبابـة فوجدت الشق ضيقا لا يسع الأصبع فـأدخلت عـودا برفـق واسـتخرجتها وخلصـتها من ضـبع الـذباب، فأفـاقت أم عبدالرحمن في الحال، وزغردت أمها، هذا أمر وقع لي)[2]

ومـا ذكـره الشـعراني ليس مسـتغربا، وقـد قـال ﷺ: (من لا يرحم من في الأرض لا يرحمـه من في السـماء)، وهو يشير إلى أن الرحمة بـالخلق هي العين الـتي تتـدفق منه رحمة الله بالعبد، وقد روي من ذلك أيضا عن بعضـهم أنه رؤي في المنام فقيل له: ما فعل اللّـه بـك قـال: غفـر

1) رواه البخاري ومسلم.
2) العهود المحمدية.

لي ورحمني، وسببه أني مررت بشارع بغداد في مطر شديد فرأيت هرة ترعد من البرد فرحمتها وجعلتها بين أثوابي)

***

وبمثل ما رغبت النصوص في هذه الخدمات ذاكرة أنواع الجزاء المرتبطة بها، رهبت من عكسها ترهيبا شديدا يبين خطورة تعامل المصارعين مع هذه المخلوقات.

ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ:(عذبت امرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض)(1)

وصور ﷺ ذلك تصويرا مخيفا، فقال:(دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة حسبت أنه قال: تخدشها هرة _: قال ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا)(2)

وربط رسول الله ﷺ لعذاب هذه المرأة بتعذيب الهرة يدل على أنه سبب تعذيبها، لا كونها كافرة، وهذا ما حمل النووي على قوله في شرح هذا الحديث:(إن المرأة كانت مسلمة وإنها دخلت النار بسببها، وهذه المعصية ليست صغيرة بل صارت بإصرارها كبيرة)(3)

ونحن لا نرى في الحديث ما يدل على كونها مسلمة أو غير مسلمة، ولكن الحديث يشير إلى ما هو أعمق من ذلك.. وهو أن هذا السلوك يستوجب العقوبة بغض النظر عن كون من سلك هذا السلوك مسلما أو غير مسلم(4)،

---

1) رواه البخاري ومسلم.
2) رواه البخاري.
3) شرح النووي على مسلم:9/89.
4) مع صراحة الحديث في كون العذاب بسبب الهرة، إلا أن البعض حاول تأويله، قال القاضي:(في هذا الحديث المؤاخذة بالصغائر، قال: وليس فيه أنها عذبت عليها بالنار)، ثم برر ما صرح به الحديث من كونها في النار بقوله:(ويحتمل أنها كانت كافرة فزيد في عذابها بذلك)(النووي على مسلم: 6/207.)
وهذا مخالف لما ورد في الحديث، قال النووي بعد حكاية كلامه:(هذا كلامه وليس بصواب، بل الصواب المصرح به في الحديث أنها عذبت بسبب الهرة، وهو كبيرة لأنها

بلغتـه الرسـالة أو لم تبلغـه، لأن الرحمـة المرتبطـة بهـذا مندرجـة في البرمجـة الإلهيـة للفطـرة الإنسـانية، ولـذلك يؤاخذ مخالفها سواء بلغته الرسالة أو لم تبلغه(1).

بالإضافة إلى ما أخبر بـه ﷺ من اقتصـاص الحيوانـات من بعضـها بعضـا يـوم القيامـة.. فـإن كـان ذلـك كـذلك، فالبشر ـ بما أعطوا من طاقات ـ أولى بأن يحاسبوا.

***

والنصوص المقدسة لم تكتف بهذه التوجيهات الـتي قــد لا تجــد من غلاظ القلــوب من لا يهتم لهــا، ولــذلك شـرعت التشـريعات المختلفـة الـتي تحفـظ حرمـة هـذه الكائنات، والتي تخول لولي الأمر من خلالها أن يمارس ما يراه من عقوبات زاجرة.

وهذه ميزة هامة في الإسلام، من حيث عـدم اكتفائـه بالتوجيهات دون التشريعات.. وللأسف لا زال يتولى مهمة الرفق بالحيوان في عصرنا هذا جمعيـات خيريـة ليس لهـا أي سلطة ردعية.

ومن التشـريعات الـتي شـرعها الإسـلام، والمرتبطـة بعالم الحيوان تحريم تصبير البهائم، وهو أن تحبس لترمى حـتى تمـوت، ففي الحـديث: نهى النـبي ﷺ عن أن تصـبر بهيمة أو غيرها للقتل(2).

ومثل ذلك تحريم المثلة، وهي قطع أطراف الحيوان، ففي الحديث: (لعن النبي ﷺ من مثّل بالحيوان)(3)

واللعن من أخطـر صـيغ التحـريم، والتحـريم يقتضـي العقاب، والعقـاب أثـر من آثـار الجريمـة، وهـذا يعـني: أن الإساءة إلى الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلامية.

ربطتها وأصرت على ذلك حتى ماتت، والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة كما هو مقـرر في كتب الفقه وغيرهـا، وليس في الحـديث مـا يقتضـي كفـر هـذه المـرأة (النـووي على مسلم: 6/207)

1) انظر في تفاصيل أدلة هذا في رسالة (أسرار الأقدار)
2) رواه البخاري، وقال العقيلي: (جاء في النهي عن صير البهيمة أحاديث جياد)
3) رواه البخاري.

ومثـل ذلـك ورد النهي عن كي الحيـوان لغـير غـرض صحي، والأحاديث في النهي عن الكي في الوجه كثيرة.

فقد روي أن النـبي ﷺ مـرّ على حمـار قـد وسـم في وجهه فقال:(لعن اللـه الـذي وسـمه)(1)، وفي روايـة لـه: (نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسـم في الوجه)

وفي حديث آخر ً عن جنادة بن جراد قال: أتيت النـبي ﷺ بإبل قد وسمتها في أنفهـا، فقـال رسـول اللـه ﷺ:(يـا جنادة فما وجدت عضوا تسمه إلا في الوجه أما إن أمامك القصاص) فقال: أمرك إليها يا رسول الله(2).

وفي حديث آخر عن جابر بن عبد الله قال: مرّ حمـار برسول الله ﷺ قد كوي وجهه يفور منخراه من دم، فقال رسـول اللـه ﷺ:(لعن اللـه من فعـل هـذا)، ثم نهى عن الكي في الوجه والضرب في الوجه(3).

ومثل ذلك ورد النهي عن خصاء البهائم، ففي الحديث أن رسـول اللـه ﷺ نهى أن يخصـى الإبـل والبقـر والغنم والخيل..

ومما يلحق بهذا الباب تحريم كل لهـو لا هـدف لـه إلا العبث بهذه العوالم الـتي أمرنـا برحمتهـا واحترامهـا، وقـد روي في الحديث:(نهى رسول الله ﷺ عن التحـريش بين البهائم)(4)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(من قتل عصفورا عبثـا ً عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانا قتلني عبثـا ً ولم يقتلني منفعة)(5)

ويحكي في ذلك بعض الصحابة قال: كنا مع النـبي ﷺ في سفر، فـانطلق لحاجتـه، فرأينـا حمّـرة معهـا فرخـان،

---

1) رواه مسلم.
2) رواه الطبراني.
3) رواه الترمذي وصححه.
4) رواه أبو داود والترمذي.
5) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فلما جاء رسول الله قال:(من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها)[1]

ويدخل في هذا الباب تحريم جميع الممارسات التي تنظر لها الحضارة الحديثة على أنها تقاليد، وتحسب أن ذلك كاف لإعطاء بعد شرعي لها، ومنها تعذيب الحيوانات بإغراء بعضها على بعض وتهييجها، كمصارعة الثيران، ومصارعة الديكة، والكباش ونحو ذلك، أو نصبها غرضاً للرماية والصيد، أو قتلها بدون فائدة ولا منفعة.

***

ومما ورد النهي عنه إرهاق الحيوانات بالعمل الشاق، أو التعامل القاسي معها، ما ذكره رسول الله ﷺ من كيفية وضع الحمل عليها، مما يكون عونًا لها على السير، وتخصيص كل دابة بما تطيقه، والمبادرة لحلِّ الرِّحال عن النزول عنها، وتقديم علفها على أكل صاحبها، وكذا المباردة إلى سقيها، كل ذلك شفقة عليها وإبقاء لها[2].

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ:(أخروا الأحمال، فإن اليد مغلقة، والرجل موثقة)[3]

وفي حديث آخر عن عائشة قالت:(خرجت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وخرج معه نساؤه، وكان متاعي فيه خف، وهو على جمل ناج، وكان متاع صفية في ثِقل، وهو على جمل ثِفال بَطيء، يَتبطأ بالركب، فقال رسول الله ﷺ:(حوِّلوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة، حتى يمضي الركب)[4]

وقد بنى الفقهاء على هذا وغيره حرمة الجمع بين الركوب وحمل المتاع إلا إن كانت الدابة المركوبة محتملة

---

1) رواه أبو داود.
2) انظر في هذا: تحرير الجواب عن ضرب الدَّواب، للشيخ العلامة محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (831-902)
3) رواه الطبراني والبزار وغيرهما.
4) رواه أبو يعلى.

للحمل عليها [1]

وفي حديث آخر عن أنس قال: كنا إذا نزلنا منزلًا لا نسبّح حتى نحُل الرِّحال[2].. يريد بذلك: لا نصلي سُبحة حتى نحط الرحال، ونُجمَّ المطي.

وقد استنبط الفقهاء من هذا أنه يستحب لمن نزل منزلًا أن لا يَطعَم حتى يعلف الدابة، ولا يقصِّر في سقيها.

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من النهي عن وقوف الدابة وراكبها جالس على ظهرها؛ ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ:(إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله عز وجل إنما سخَّرها لكم لتُبْلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم)[3]، وفي رواية قال رسو ل الله ﷺ: (اركبوا هذه الدواب سالمة، وابتدعوها[4] سالمة، ولا تتخذوها كراسي)[5]

وفي رواية أنه ﷺ مرَّ على دوابٍّ لهم ورواحل، وهم وقوف، فقال النبي ﷺ:(اركبوها سالمة، وانزلوا عنها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم ومجالسكم، فرُب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله عز وجل)[6]

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من النهي عن ركوب ثلاثة في آن واحد، ففي الحديث عن جابر قال: (نهى رسول الله ﷺ أن يركب ثلاثة على دابة)[7]

وفي حديث آخر: أنه رأى ثلاثة على بغل، فقال:

---

1) قال ابن خزيمة قال: إذا كان الأغلب من الدواب المركوبة أنها إذا حُمل عليها في السير عطبت، لم يكن لراكبها الحمل عليها، إذ النبي ﷺ قد اشترط أن تُركب سالمة، ويُشبه أن يكون معنى قوله: (اركبوها سالمة) أي: ركوبًا تسلم منه ولا تعطب. انظر: تحرير الجواب عن ضرب الدَّواب.

2) رواه أبو داود.

3) رواه أبو داود.

4) أي: اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها. وهو (افتعل) من وَدُع – بالضم- وَدَاعة وَدَعة؛ أي: سكن وترفه، النهاية: 5/166.

5) رواه ابن خزيمة، والحاكم، وابن حبان، في «صحاحهم» وغيرهم.

6) رواه ابن خزيمة، وابن حبان وغيرهما.

7) رواه الطبراني في الأوسط.

لينزل أحدكم فإن رسول الله ﷺ لعن الثالث[1].

بل ورد ما هو أخطر من ذلك، ففي الحديث عن علي قال: إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم)[2]

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من الأمر بالنزول عنها عند المرور بالأرض المخصبة بالكلأ المباح لتَرعى فيها، وعد كفِّها عن المكان السهل، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ:(إذا أخصبت الأرض فانزلوا عن ظهركم فأعطوه حقه من الكلأ، وإذا أجدبت الأرض فامضوا عليها بنقيها)[3]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل)[4]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إذا سافرتم في الخصب لأمكنوا الركاب من أسنانها، ولا تجاوزوا المنازل) الحديث[5]، وفي لفظ: (إذا كانت الأرض مخصبة فأمكنوا الركاب وعليكم بالمنازل)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا ركبتم هذه البهائم العُجم، فإذا كانت سَنة فانجوا عليها)[6]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا كانت أرض مخصبة فتقصَّوا في السير واعطوا الركاب حقها، فإن الله رفيق يحب الرفق، وإذا كانت أرض مجدبة فانجوا عليها)[7]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العُنف، فإذا ركبتم الدواب العجم فنزلوها منازلها، فإن أجدبت

---

1) رواه ابن أبي شيبة.
2) رواه الطبراني.
3) رواه البزار.
4) رواه الدارقطني في أفراده.
5) رواه ابن خزيمة، وأبو داود.
6) رواه الطبراني.
7) رواه البزار في مسنده، ورواه الطبراني بسند فيه من لم يسم، لكن موقوفًا.

الأرض فانجوا عليها)[1]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(إذا ركب أحدكم الدابة فليحملها على ملاذها[2] ـ أو قال: على ملاذة ـ فإن الله تعالى يحمل على القوي والضعيف)[3]

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من النصوص دالا على إراحتها من الركوب لتستريح[4]، وقد ورد في الحديث أنه ﷺ (كان إذا صلى الفجر في السفر مشى)[5]

وقد روي عن بعض الصالحين[6] أنه كان في بعض أسفاره راكبًا ناقة، فسمعها وهي تقول له: أتعبتني يا صالح، فنزل عنها فمشى إلى أن سمعها وهي تقول: اركب فقد استرحت.

ولا استبعاد في هذا، وقد مر معنا قوله ﷺ:(بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت: لم أخلق لهذا، خُلقْتُ للحراثة)[7]

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من النصوص دالا على استحباب تنشيطها بالحُداء[8] وإراحتها بذلك، وقد جرت عادة الإبل أنها تسرع السير إذا حدي بها، منها قوله ﷺ في مسير له لعبد الله بن رواحة (يابن رواحة، انزل فحرك الركاب)، فقال:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل السكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا [9]

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من الأمر بالرفق

---

1) رواه ابن قانع والطبراني في معجمي الصحابة.
2) جمع ملذ، وهو موضع اللذة؛ أي: ليُجْرها في السهولة لا في الحزونة؛ وهي المكان الغليظ الخشن.
3) رواه الدارقطني في أفراده.
4) وهذا من الهدي الصحي الذي أرشدنا له رسول الله ﷺ، فالمشي رياضة صحية يحتاج إليها الإنسان كل حين.
5) رواه الطبراني في الأوسط.
6) هو الشيخ صالح الزواوي المغربي.
7) رواه البخاري.
8) الحدْو: هو سوق الإبل والغناء لها.
9) رواه البخاري ومسلم.

في السير بها إبقاء عليها وعلى نفسه؛ لقولـه ﷺ: (المنبَتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى[1]) [2]

***

وعلى هـذا الهـدى المضـمخ بعطـر السـلام، سـار الصـالحون متـأدبين مـع الكـون مسـالمين لـه، وقـد عـبر الشعراني عن الأساس الذي نبعت منـه رحمـة الصـالحين على الكائنات بهـذا التعبـير الرمـزي الجميـل:(أخـذ علينـا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نشفق على جميع خلـق الله تعالى من مؤمن وكـافر بطريقـه الشـرعي، كـل بمـا يناسبه من الرحمة، لكن لا نبالغ في الرحمة كـل المبالغـة بحيث نـرحم الشـاة فلا نـذبحها مثلا، لأن للرحمـة حـدا لا تتعـداه، وقـد سـمى الحـق تعـالى نفسـه أرحم الـراحمين وأمرنا بذبح الحيوانات فنـذبحها مـع رقـة القلب، ونضـرب من شـرد عن طريـق الاسـتقامة من رعيـة وعبـد وولـد وبهيمـة رحمـة بـه على وجـه التـأديب لا التشـفي للنفس، ونكون أرحم به من نفسه)[3]

وقد ذكر الشعراني التزام الربانيين بهـذا العهـد الـذي أخذه رسول الله ﷺ على أمتـه، فـذكر عن علي الخـواص قولـه:(من شـروط من تخلـق بالرحمـة على العـالم أن يعامـل الجمـاد معاملـة الحي، فيمسـك كـوز المـاء مثلا ويضعه برفق وشفقة، خوفا أن يتألم من الوضع)

وقد بلغت به شـفافية الـروح المسـالمة أن قـال عن نفسه:(وقد وضعت الكوز مرة بعنف فقال: أه، فمن ذلك اليوم وأنا أضعه برفق)

ويتحـدث عنـه الشـعراني أنـه كـان يملأ أواني الكلاب ويقول:(إنهم مساكين لا يقـدرون أن يملـؤوا من البـئر إذا عطشوا ويمنعهم الناس من دخـول دورهم، ومن الشـرب

---

1) أي أن من يعسف الركاب ويحملها من السير على ما لا تطيـق رجـاء الإسـراع، ينقطع ظهره، فلا هو قطع الأرض التي أراد، ولا هو أبقى ظهره سالمًا ينتفع به بعد ذلك.
2) رواه البزار.
3) العهود المحمدية، الشعراني.

من حيضان دوابهم خوف التنجيس)

ويروي عنه أنه كان يرسل بعض تلامذتـه إلى المـذبح فيأتي بشعث اللحم وبالطحال ونحوهما للقطـط كـل يـوم ويقول:(إن غالب الناس اليوم لا يطعم قطة الـدار شـيئا، وإنما تخطف كلما قدرت عليه إذا جاعت على رغم أنفه)

ويروي عنه أنـه كـان يتفقـد النمـل الـذي في شـقوق الـدار ويضـع لـه الـدقيق ولبـاب الخـبز على بـاب جحـره ويقول:(يمنعهم من الانتشار لأجل القوت، فإن النملــة إذا جـاعت خـرجت تطلب رزقهـا ضـرورة، وعرضـت نفسـها لوقوع حافر أو قدم عليها فتمـوت أو تنكسـر رجلهـا، فـإذا وجدت ما تأكل على باب جحرها استغنت عن الخروج)

ويروي عن صالح آخر، قال:سمعت أخي أفضل الدين مــرة يقــول:(من الأدب إذا ركب العبـد دابــة أن يرحمهـا بالنزول عنها ولا يركب إلا عند الضرورة)

ويروي عنه أنه رآه مرة قلب حافر الحمارة لمـا نـزل من عليها وقبله، فأخذ يخاطبها قـائلا:(اجعليـني في حـل)، وصار يعتذر إليها كما يعتذر لمن اعتدى عليه من الناس.

ويروي عن الإمام الجليل السيد أحمد بن الرفاعي أنه وجد بـأم عبيـدة كلبـا أجـرب أبـرص أجـذم عافتـه نفـوس النــاس وأخرجــوه من البلــد، فمكث الشــيخ يخدمــه في صحراء أم عبيدة نحو أربعين يوما، وعمل عليه مظلــة من الحر وصار يدهنه حتى برئ وغسـله بالمـاء الحـار، وقـال: خفت أن يقول الله لي يوم القيامة:(أما كانت فيك رحمة تشمل كلبا من خلقي)

ويروي عنه أنه كان يقـول:(لا ينبغي لفقـير أن يجعـل للنمـل الطـائف على رزقـه مانعـا يحـول بينـه وبينـه من قطران ونحوه إلا بعد أن يخرج له نصيبا معلومـا من ذلـك ويضعه له على باب جحره)

ومما يروى في هذا أن عدي بن حاتم كان يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات ولهن حق.

وكان أبو إسحاق الشيرازي يمشي في طريق يرافقه فيه بعض أصحابه، فعرض لهما كلب فزجره رفيـق الإمـام أبي إسحاق، فنهاه الإمـام، وقـال: أمـا علمت أن الطريـق بيني وبينه مشترك.

ولا زال الربانيون ـ في كل العهود ـ مسالمين للكون، وقد كان النورسي مثالا للشفقة على الكائنات قل نظيره، يقـول المصـاحبون له[1]:(كـان للاسـتاذ علاقـة متينـة مـع المخلوقات ويشفق كثـيراً جـداً على الأشـجار والحيوانـات بل حتى على الأحجار ايضاً، فعنـدما يـرى كلبـاً - مثلاً - في الطريق يشفق عليه ويبادرنا بـالقول:(هـل لـديكم كسـرة خبز؟ فيأخذها ويعطيها للكلب)

ويعتـذر عن سـباع الحيوانـات بقولـه:(هـذه حيوانـات وفية، وإن عدوها وعواءها ناشئان عن صدقها ووفائها)

وكان عندما يرى في السهول السـلحفاة - مثلاً - على حـوافي السـواقي يقـول:(مـا شـاء اللـه، بـارك اللـه، مـا أجملهـا من مخلـوق، فالصـنعة والإتقـان في خلقهـا ليس بأقل منكم)

أما النمل، فله معـه قصـص كثـيرة ــ ذكرنـا بعضـها ـ ومنها ما عبر عنه هذا الصاحب بقوله:(أحيانـاً عنـدما كـان الأسـتاذ يـرى مملكـة النمـل او يرانـا نحـرك حجـراً وتحتـه مملكة النمل كان يعيد الحجر إلى مكانه ويقول:(لا تقلقوا راحة هذه الحيوانات)

وهذه قصة يذكرها بعض تلاميذه كمظهـر من مظـاهر احترامه لهذا العالم، والتي يتجلى من خلالها سمو السلوك الإسلامي مع الكون، يقول هذا التلميذ:(بدأ الجو يبرد شيئاً فشيئاً حيث الشتاء مقبل ونحن لازلنا على جبـل أرك، كنـا نتوقع هطول أمطار غزيرة وتسـاقط الثلـوج بكـثرة وكـان المكـان الـذي نبقى فيـه هـو على شـكل ربـوة او مرتفـع

---

1) انظر هذه النصوص في: السيرة ذاتية: 535.

صغير، فأراد الأستاذ ان نبني غرفة. فبدأنا ببناء الغرفة على هذا المرتفع، وعندما حفرنا الأساس وجدنا مملكة للنمل، ولما رأى الأستاذ النمل أمرنا بالتوقف. فسألناه عن السبب. قال:(هل يجوز بناء بيت بهدم بيت آخر؟ لا تخربوا بيوت هذه الحيوانات. احفروا في مكان آخر غيره)

قال: فبدأنا نحفر في مكان آخر فوجدنا مملكة أخرى ايضاً للنمل. وحفرنا ثالثة فوجدنا نفس الشئ. وهكذا تكررت العملية ثلاث مرات. فسألني أحد الطلاب الذي كان يساعدني في هذا العمل: هل سيستمر الأمر هكذا؟ علينا ان نحفر في مكان ما فإذا ظهر النمل واريناه التراب لئلا يراه الأستاذ ومن بعد ذلك نستمر بالحفر، وإلا فسوف نظل إلى العشاء ولما نقم بشئ، فليس في هذه المنطقة شبر الا وفيها مملكة للنمل.

قال: وعلى كل حال بنينا غرفة صغيرة للاستاذ هناك، فكان الأستاذ كلما يرى النمل ويشاهد مملكته في الغرفة يقدم له البرغل والسكر وفتات الخبز، فسألناه عن سبب تقديمه السكر للنمل فأجابنا ضاحكاً:(فليكن السكر شاياً لهم)[1]

وكان عندما يلتقي في تجوله صيادي الأرانب والطيور يقول لهم:(لا تروعوا هذه الحيوانات ببنادقكم ولا تؤذوا غيرها)

وبهذا الأسلوب كان ينصح الصيادين الهواة حتى جعل الكثيرين منهم يتخلون عن الصيد.

وكان عندما يلتقي الرعاة في السهول الخضراء وهم يرعون حيواناتهم في مروج بين الجبال والوديان والسهول، يلاطفهم ويقول لهم:(إنكم إذا ما أديتم الصلاة في أوقاتها الخمسة خلال اليوم يصير اليوم بكامله بمثابة عبادة لكم، لأنكم برعيكم هذا تقدمون خدمة كبيرة

1) السيرة الذاتية: 523.

للبشـرية فـان انتفـاع بـني البشـر من أصـوافها ولحومهـا وألبانهــا هــو بحكم الصــدقة لكم، فلا تــؤذوا إذن هــذه الحيوانات البريئة النافعة)

3 ـ الحكمة:

ينظر المؤمن إلى الخدمات الجليلة التي تفـاض عليـه من الكـون المسـخر، فيراهـا هـدايا ربانيـة، فيتمتـع بهـا، ويتعرف على مهديها، بينما يراها الغافل فرصة لاسـتغلالها أو الصراع معها والتغلب عليها.

والقــرآن الكــريم يلفتنــا إلى وجــوه الحكم في هــذا الكون المسخر، لنرعاها، ونتعامل معه وفق مقتضـاها، فلا نحيد بها عن مراد الله، بينما يتصوره الغـافلون الجاحـدون كونا مستباحا، لا قوانين تحكمه، ولا ضـوابط أخلاقيـه تقيـد التعامل معه.

وأساس النظرة الإيمانية ـ كما سبق بيانه ـ هو اعتقـاد المؤمن ملكية الله تعالى لهذا الكـون، وهـذه الملكيـة هي التي تجعل له وحده حق إباحة منافعه أو حظرهـا، وكيفيـة الانتفاع به، بخلاف النظرة المادية الجاحـدة الـتي تتصـوره مشاعا لا مالك له، فلا يخشون حسابا ولا عقابا.

وأساسها ـ أيضا ـ هو اعتقاده أن هذا الكون بـني على أحسن نظام وأدقه، وأن أي تغيـير فيـه على مـا هـو عليـه انحــراف كبــير وفســاد عظيم، ويشــير إلى هــذا القاعــدة المعروفة:(ليس في الإمكان أبدع مما كان)

قال الغزالي شارحا لها:(لا ريب أن الله عز وجـل لـو خلق الخلق كلهم على عقـل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلـق لهم من العلم مــا تحتملــه نفوســهم وأفــاض عليهم من الحكمـة مـا لا منتهي لوصـفها، ثم زاد مثـل عـدد جميعهم علمـاً وحكمـة وعقلاً، ثم كشـف لهم عن عـواقب الأمـور وأطلعهم على أسـرار الملكـوت وعـرّفهم دقـائق اللطـف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفـع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بمـا أعطـوا

من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرّة ولا أن يخفض منها ذرّة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض ـ إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ـ ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل)[1]

ثم علل ذلك بقوله:(ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل)[2]

ومن هذا المنطلق وردت الآيات القرآنية الكثيرة تتحدث عن منافع هذا الكون المسخر، وهي منافع تستدر حمد العبد من جهة، كواجب أخلاقي يقتضيه استشعاره للنعمة، وهي في نفس الوقت ضوابط تحد من التصرف العشوائي العبثي للكون بعيدا عن مراعاة الحكمة.

وإلى هذا المعنى الثاني الإشارة بقوله ﷺ:(بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت للحرث)[3]، وهذا الحديث إنكار شديد على الجاحدين العابثين بالثيران في الساحات بوحشية وقسوة.

---

1) الإحياء.

2) وقد نوقش الغزالي في هذا، وقد ذكرنا أدلة قوله هذا في رسالة (أسرار الأقدار)

3) رواه مسلم.

وإليه الإشارة كذلك بقوله ﷺ:(إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم)(4)

وبما أن لكل شيء في خلق الله حكم كثيرة لا يمكن إحصاؤها، أو أن إحصاءها يستدعي علوما كثيرة، فلذلك سنكتفي بأربعة مظاهر لحكم الله، هي مجامع لكثير من الحكم، ومن خلالها نرى ما يتطلبه التعامل مع حكمة الله في أكوانه، كما رأينا ما يتطلبه السلام معها.

الجمال:

لا يلفتنا القرآن الكريم إلى المنافع المادية الموجودة في الكون فقط، بل يدلنا على مظاهر الجمال المبثوثة فيه، وكأنه يأمرنا بالتطلع فيها والحفاظ على رونقها وبهائها.

فالقرآن الكريم يحدثنا ــ مثلا ــ عن البحر بهذا الأسلوب، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل: 14)

فالبحر في التصوير القرآني ليس ذلك الطوفان الهائج الذي ينقض على السفن فيغرقها، وإنما هو نعمة من نعم الله التي جمعت بين الفضل والمنفعة والجمال.

والقرآن الكريم يلفتنا إلى هذه المعاني جميعا، فـ (نعمة البحر وأحيائه تلبي كذلك ضرورات الإنسان وأشواقه. فمنه اللحم الطري من السمك وغيره للطعام. وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان، وغيرهما من الأصداف والقواقع التي يتحلى بها أقوام ما يزالون حتى الآن. والتعبير عن الفلك يشي بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال: وترى الفلك مواخر فيه، فهي

4) رواه أبو داود.

لفتة إلى متاع الرؤية وروعتها:رؤية الفلك مواخر تشق الماء وتفرق العباب)[1]

وهذه الآية وغيرها تنطوي على حكم تشريعي خفي، وهو وجوب المحافظة على هذه النعم الموجودة في البحر، وهو ما لم تأخذه المدنية الحديثة في الحسبان، فلوثت البحر، كما لوثت الجو، وأغرقت الأرض في طوفان من التلوث.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تأثير الانحراف في فساد الأرض والبحر بقوله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم:41)

وهكذا تقترن في القرآن الكريم مظاهر الجمال في المكونات بالضرورة والحاجة، لنتملى هذا الجمال ونستمتع به، ولا نحبس أنفسنا داخل حدود الضرورات والحاجات.

ومثل ذلك ما ورد عند التعبير عن منافع الأنعام، فمن منافعها، كما قال تعالى: وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (النحل:5 ـ 6)

ففي هذه الآيات إحصاء دقيق لمنافع الحيوانات لتشمل المطعم والملبس والمسكن،وتضيف إليها الناحية الجمالية (ففي الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، ومنافع في هذه وفي اللبن واللحم وما إليها. ومنها تأكلون لحما ولبنا وسمنا، وفي حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس. وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح. جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة)

ولهذه اللفتة قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة، فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة،

---

1) الظلال.

وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات.

ولهذا ينبهنا الله تعالى إلى النظر إلى مخلوقاته، وإلى ما أودع فيها من الحكمة والجمال، فيدعو إلى النظر إلى ما أودع في جسم الإبل من مظاهر الجمال والحكمة، قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية:17)

وينبهنا إلى النظر إلى السماء وكيفية رفعها قال تعالى: ﴿ وإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (الغاشية:18)

ويدعونا إلى النظر إلى الجبال وكيفية تثبيتها قال تعالى: ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية:19)

ويدعونا إلى النظر إلى الأرض وكيفية تسطيحها قال تعالى: ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:20)

وكما يشير القرآن الكريم إلى الجمال المودع في الكون يشير إلى الجمال الذي يساهم الإنسان في تكوينه، وكأنه يدعونا من خلال وصفه إلى مراعاته عند القيام بأي مشروع مرتبط بالكون:

فالقرآن الكريم يبدع في وصف مظاهر الجمال والتناسق التي قام بها السبأيون في مزارعهم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ:15)

ويبدع في وصف جنتي الرجل الكافر، قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (32)كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمَّ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً (33)﴾ (الكهف)

والقرآن الكريم لا يذم ذلك الترتيب الذي رتب الله به جنته، وإنما ينكر عليه غروره وكفره وجحوده لفضل الله.

ولهذا يمن الله على عباده بما أنبت لهم من حدائق

ذات بهجـة، قـال تعـالى: أَمَّنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِـهِ حَـدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَـةٍ مَـا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُـوا شَـجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْدِلُونَ (النمل:60)

التنوع:

وهو مظهر من مظاهر حكمة الله في الكـون، ودليـل من أدلة الوحدانيـة، لأن الربـط بين المختلفـات وتوجيههـا وجهة واحد لا يكون إلا من إله واحد.

وهذا التنوع شامل لجميع الأشياء، فالأشياء تتنـوع في المهام والوظائف والتراكيب الداخلية والأشكال الخارجية.

وعلى هذا التنوع جـاءت النصـوص لتـدل أولا على أن عظمـة اللـه تعـالى لا تبـدو في مجـرد إيجـاد الأشـياء من العدم، بل بإبداعها بهذه الصور المختلفة، ليكون ذلـك دليلا على توحيـد اللـه وإبداعـه، وهـذه هي الفائـدة المعرفيـة الكبرى في هذا التنوع، وهي التي سنتحدث عنها في كـون العارفين.

أما الفائدة العملية الثانية المرتبطة بالكون المسـخر، فهي الدعوة إلى المحافظـة على هـذا التنـوع المحسـوب بحساب دقيق.

ولذلك يدعونا القرآن الكـريم إلى النظـر إلى أصـناف النباتات ما تشابه منها وما لم يتشـابه، قـال تعـالى: وَهُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ نَبَـاتَ كُـلِّ شَـيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْـهُ حَبّاً مُتَرَاكِبـاً وَمِنَ النَّخْـلِ مِنْ طَلْعِهَـا قِنْـوَانٌ دَانِيَـةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَـابٍ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأنعام:99)ـ وكـأن هـذه الآيـة تدعو إلى التصنيف العلمي لأجناس الكائنات، والذي يكون أساسا للمحافظة عليها.

بـل هي تـدعونا إلى تأمـل الأطـوار الـتي تمـر بهـا الكائنات، وهي تسير في طريقهـا إلى اسـتكمال وجودهـا،

قال تعالى: انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ لتكون هـذه الدراسة سـبيلا للتعـرف على حاجتهـا، ثم رعايتهـا انطلاقـا من ذلك.

وهذه الآية تجمع مع قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَـأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُـهُ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُـوا مِنْ ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَـرَ وَآتُـوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ (الأنعـام:141) الحكم المرادة من أصناف الكائنات، فهي في الآيـة الأولى نظـر واسـتمتاع وعبـور منهـا إلى المبـدع، وهي في الآيـة الأخيرة استهلاك واستثمار وانتفاع.

فالآية الأولى تغذي الروح وجمال الروح، والآية الثانيـة تغذي الجسد وحاجات الجسد.

وكما نبه القرآن الكريم إلى النظـر إلى تنـوع أصـناف النباتات نبه إلى تنوع التضاريس والمناخ الذي يسـاهم في ذلـك التنـوع النبـاتي، قـال تعـالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَـاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَـابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيـلٌ صِـنْوَانٌ وَغَيْـرُ صِـنْوَانٍ يُسْـقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الرعد:4)

وسـنتحدث هنـا عن نـاحيتين وردت النصـوص بتنـوع المكونات فيهما، وهو ما يفيد وجوب المحافظـة على هـذا التنوع:

تنوع الأحياء:

من مظاهر حكمـة اللـه تعـالى في الأرض أن عمرهـا بأنواع الأحياء من النبات والحيوان، وذلك لإعالة الحياة من ناحية، وتحقيق التوازن البيئي من ناحية أخـرى، فقـد أودع الله تعالى فى مكونات البيئـة الحيويـة الكثـير من المنـافع الـتى سـخرها بقدرتـه وحكمتـه لخدمـة الإنسـان وتوفـير الحاجات المختلفة لحياته.

والباحثون يؤكدون[1] ـ اليوم ـ أن عالم الحيوان أشبه بالمدن الهائلة والشعوب المتعددة الأعراف والأعراق واللغات والعادات والأجناس التي لا حصر لها ويعجز العقل عن تصور أعدادها الهائلة والضخمة وأنسب وصف لهذه الكائنات ذوات الأعداد الهائلة هو مصطلح (الأمم) كما وصفها القرآن الكريم.

فعدد الطيور الجاثمة وحدها أكثر من 5000 نوع، وكل نوع من هذه الطيور هو أيضا أنواع عدة، فمثلا طيور الفران الأمريكية الإستوائية حوالي 221 نوعا صغيرة الحجم نوعا ما، وذوات عادات متنوعة جدا.

وهناك 223 نوعا من الطيور النملية والدج النملي والبيتا النملية مرتبطة ارتباط وثيقا بطيور الفران الأمريكية الجنوبية والوسطى.

وأما طيور كوتنجا المزركشة فتضم تقريبا 90 نوعا تقريبا من الطيور المزركشة والمبهرجة جدا.

كما تعد طيور الجنة ـ وسميت بذلك لأن لديها ريشا فاتنا جدا حتى اعتقدوا أنه آت من الجنة ـ فتبلغ أنواعه 42 تقريبا.

وأما طيور النمانم ـ وهي طيور صغيرة عاملة ـ فتضم أكثر من 60 نوعا، وهي طيور مدهشة جدا لما تصدره من أصوات البقبقة المرتفعة إلى درجة لاتصدق وتنتشر بكثرة في أمريكا.

كما تبلغ أنواع صياد الذباب أكثر من 1200 نوع.

وتضم آكلات الحشرات أكثر من 370 نوعا.

وهناك أكثر من 300 نوع من الطيور المخوضة والنوارس وطيور الأوك.

وتضم طيور زمّار الرمل أكثر من 60 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور النورس أكثر من 90 نوعا.

---

1) انظر: من آيات الله في الحيوانات، الأستاذ محمد محمد معافى علي، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

أما أنواع الحمام واليمـام فهنالـك حـوالي 290 نوعـا منها موزعة في أرجاء العالم، ويبلغ أنـواع الببغـاوات أكـثر من 500 نوعا.

وتبلغ أنواع البوم أكثر من 123 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور الضوع والسبد نحو 90 نوعا.

وتبلـغ طيـور الرفـراف حـوالي 87 نوعـا تتواجـد في أنحاء العالم.

كما يبلغ طير نقّـار الخشـب أكـثر من 200 نوعـا في جميع أنحاء العالم.

وفي عالم القرود تبلغ قـرود العـالم القـديم أكـثر من 60 نوعا.

وبالنظر إلى الزواحف نجدها أعدادا هائلة جدا وأنواعا لا حصر لها، فالحيات العمياء تبلغ أنواعها 150 نوعـا، وهي تعيش وتحيا تحت الأرض.

كمـا تشـتمل مجموعـة السـلحفيات على السـلاحف والحمسات ـ وهي سلحفة المياه العذبـة ــ وتضـم حـوالي 100نوع، وتبلـغ أنـواع السـحالي العملاقـة أكـثر من 700 نوع في مناطق العالم الجديد.

وتبلغ أنواع الحرباء حوالي 85 نوعا كما تبلغ السحالي السامة حوالي 3000 نوعـا من السـحالي ونوعـان فقـط منها يفرزان السم وهي السحالي المخرزة والهيلية.

والأفاعي أيضا أنواع شـتى، منهـا السـام، ومنهـا غـير السام، وهي متعددة الأشكال والألوان، فنـوع منهـا فقـط، وهي أفاعي الكوبرا والممبا تبلغ أكثر من 200 نوع تقريبا.

كما تشتمل الحيـات الخبيثـة على حـوالي 100 نـوع، وتقـول بعض المصـادر العلميـة أن عـدد أنـواع الثعـابين الحالية أكثر من 2700 نوع ثلثها فقط سام.

أما الخنافس فتضم أكثر من 300 ألف نوع.

وأما الثدييات عموما فتضم أكثر من 4200 نوع.

وتبلغ الخفافيش حوالي 900 نوع أو أكثر.

وتضم فصيلة الكنغر والولبات حوالي 55 نوعا متفاوتا في الحجم.

كما تضم مجموعة السنوريات حوالي 36 نوعا تعيش تقريبا في كافة أنحاء العالم عدا أستراليا والقطب الجنوبي، ويبلغ نوع سنور الزباد والرّباح والنمس حوالي 80 نوعا.

وهكذا يعتقد العلماء بإمكانية وجود أكثر من عشرة ملايين نوع أو جنس من الحيوانات في العالم، ومع ذلك، فقد تكون هناك أنواع أخرى أكثر بكثير بانتظار اكتشافها.

والقرآن الكريم يذكر تسخير البيئة الحيوية للإنسان، ويبين الوجوه الشرعية للانتفاع بها، وهو في ضمن ذلك يحث على وجوب المحافظة عليها.

قال تعالى عن عالم البحر وما يحتويه من أحياء: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:14)

والشكر في هذه الآية لا يعني فقط أن نقول: الحمد لله، بل رأس الشكر أن يتعامل مع النعمة وفق حكمة الله ومراده.

وقال تعالى عن عالم النبات: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يّس:80)

وقال عن عالم الحيوان: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل:5)

وقد وردت الأحاديث الكثيرة تحث على وجوب المحافظة على البيئة الحيوية:

فذكر ﷺ الأجر العظيم المعد لمن يساهم في زراعة الأرض، وهو أجر لا يقل عن أجور الصلاة والزكاة والحج، قال ﷺ:(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرا أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)(1)

1) رواه البخاري ومسلم.

وفي حـديث آخـر يشـير ﷺ إلى منـافع إحيـاء الأرض زيادة على الأجر المعد للمحيي بقولـه ﷺ:(مـا من امـرئ يحيى أرضا فتشرب منها كبد حرى أو تصيب منها عافية إلا كتب الله تعالى له به أجرا)(1)

بل إنـه ﷺ يحث على هـذه العبوديـة بغض النظـر عن المنافع المرجوة منها، قال ﷺ:(إذا قامت الساعة وفى يد أحـدكم فسـيلة فليغرسـها)(2)، وفي ذلـك إشـارة إلى أن منافع النبات لا تقتصر على الثمر.

وقد جاءت الأوامر التشريعية ترغب في إحياء الأرض، وتجـازي من يسـاهم في الإحيـاء، قـال ﷺ:(الأرض أرض الله، والعباد عباد الله، من أحيا مواتاً فهو له)(3)

بـل إن الأوامـر التشـريعية ــ للمحافظـة على البيئـة الحيوية ـ تمتد حتى في حال الحرب ــ الـتي تتناسـى فيهـا البشرية اليوم كل المقومات الأخلاقية ـ فقد كانت الأوامـر تصـدر صـريحة إلى قـواد المسـلمين تنهـاهم عن قطـع الأشجار أو تدميرها وضرورة المحافظة عليها.

والسـر في هـذه الـدعوة الحثيثـة على الاسـتزراع وحماية البيئة الحيوية ــ زيـادة على مـا سـبق بيانـه ــ هـو المنافع العظيمة الـتى تقـدمها البيئـة الحيويـة للإنسـان، إذ تلعب النباتات دوراً مهمـاً فى إحـداث التـوازن فى تركيبـة الهـواء خاصـة غـازي الأكسـجين وثـاني أكسـيد الكربـون والتوازن فى الدورة المائية من خلال عملية النتج، وحماية التربة من الجرف لما للغطاء النباتي من قدرة كبيرة على مقاومة عوامل الجرف المائي والهوائي.

كما أن للبيئة الحيوية أهمية طبيـة حيث تضـم نباتاتهـا وحيواناتها الكثير من المواد أو العناصر الفعالة فى صـناعة الدواء.

ولكن الفكر المنحرف لا يبالي ـ لا بالتوجيهات الربانية

1) رواه الطبراني في الأوسط.
2) رواه أحمد والبخاري في الأدب وعبد بن حميد.
3) رواه الطبراني في الكبير.

التي وردت في النصـوص، ولا بالمنـافع الـتي أثبتهـا العلم، ولا بالمخاطر التي حذر منها الحكماء ـ ولـذلك فـإن البيئـة الحيويـة ــ اليـوم ــ فى تـدهور مطـرد نتيجـة الاسـتغلال المفرط والجائر.

وتشير ورقة عمل أعدها برنامج الأمم المتحدة للبيئـة (اليونب) ومنظمـة الفـاو والبنـك الـدولي سـنة 1988 أن الغابات المدارية تختفي بمعدل 11 مليـون هكتـار سـنويا، وأن نصـف الغابـات المداريـة فى العـالم قـد اختفى منـذ بداية القرن الحالي، وأن هناك حاجة لاستثمار نحو 8 مليار دولار على مدى السنوات الخمس القادمة لتنمية الغابـات واحتواء الأثر الضار لإزالة الغابات.

ومثل الضرر الذي حصـل بعـالم النبـات حصـل بعـالم الحيوان، فانقرضت كثير من الحيوانات، وحيوانـات أخـرى تسير نحو الانقراض.

وهذا كله بسبب جشع الإنسان وحرصه.

وفي مقابـــل ذلـــك جـــاءت الشـــريعة الإســـلامية بالتشريعات التي تحافظ على هذا العالم، وقد ذكر العلماء الكثير من الأسرار والحكم المرتبطة بمـا أبيح أو حـرم من أنواع الحيوان، وأكثرها مما يرتبط بمصلحة الإنسان.

ونرى أن من الحكم الشـرعية ــ كـذلك ــ هـو حمايـة عالم الحيوان:

فلذلك وردت النصوص بإباحـة الحيوانـات الـتي يكـثر وجودهـا أو يسـهل تنميتهـا، بخلاف الحيوانـات الـتي ينـدر وجودها.

فنهى رسـول اللـه ﷺ عن كـل ذي نـاب من السـباع وكـل ذي مخلب من الطـير[1]، والسـر في ذلـك أن هـذه الأنواع من الحيوانات هي التي تحقـق التـوازن البيـئي من ناحية، وهي نادرة من ناحية ثانية بحيث يـؤدي صـيدها إلى انقراضها.. هذا بالإضافة إلى مـا ذكـره العلمـاء من الحكم

1) رواه أحمد والترمذي.

المرتبطة بالصحة.

وورد النهي عن أكل لحم القرد، قال ابن عبد البر: (أجمع المسلمون على انه لا يجوز أكل القرد لنهى رسول الله ﷺ عن أكل القرد)

وبخلاف هذا نرى الإباحة المطلقة لكثير من الحيوانات البحرية نظرا لكثرتها وعدم الخشية من انقراضها، بل يسرت الشريعة الأحكام المرتبطة بها.

وكأنها ـ من خلال هذا التسيير ـ تدعو إلى الاستعاضة بها عن الحيوانات المحرمة حفاظا على البيئة، بل إن القرآن الكريم يصف من محاسن الحيوانات البحرية ما يرغب في أكلها، قال تعالى ممتنا على عباده: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل:14)

فالآية الكريم تصف لحم الحيوانات البحرية بكونه طريا، وكأنها بذلك تثير الشهية إلى طلبه والرغبة فيه.

وفي آية أخرى تخص صيد البحر بالإباحة، وفي ذلك إشارة أيضا إلى الترغيب في التمتع بنعم الله في البحر، ليحصل التوازن بين البر والبحر، ويحفظ التنوع في كليهما، قال تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (المائدة:96)

والقرآن الكريم ينبهنا إلى أن الحياة بالصورة التي نتصورها لا تقتصر على هذه الأرض، فالكون مملوء بأحياء كثيرة لا يستطيع خيالنا المحدود أن يرسم لها أي صورة، قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (النحل:49)، بل اعتبرها من آياته الدالة على عظمته وقدرته ولطفه، فقال: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (الشورى:29)

وبـذلك تكـون الأرض مجـرد نمـوذج للأحيـاء.. وأنـواع الأحيـاء.. وفي ذلـك إشـارة بديعـة إلى أن هـذا الكـون العريض الذي لا نعرف له حدودا مملوء هو الآخر بأصـناف الحياة والأحياء، قـال النورسـي:(إن الكـرة الارضـية وهي واحدة من الأجرام السماوية، على كثافتها وضآلة حجمهـا، قد أصبحت موطناً لما لا يحد من الأحيـاء وذوي المشـاعر، حتى لقد أصبحت أقذر وأخسّ الأماكن فيها منابع ومواطن لكثـير من الأحيـاء، ومحشـراً ومعرضـاً للكائنـات الدقيقـة. فالضـرورة والبداهـة والحـدس الصـادق واليقين القـاطع جميعـاً تـدل وتشـهد بـل تعلن أنّ: هـذا الفضـاء الواسـع والسـموات ذات الـبروج والأنجم والكـواكب كلهـا مليئـة بالأحياء وبذوي الادراك والشعور. ويطلـق القـرآن الكـريم والشـريعة الغـرّاء على اولئـك الأحيـاء الشـاعرين والـذين خُلقوا من النور والنـار ومن الضـوء والظلام والهـواء ومن الصوت والرائحة ومن الكلمات والأثير وحتى من الكهربـاء وسائر السيالات اللطيفة الاخرى بـأنهم: ملائكـة.. وجـان.. وروحانيات.. ولكن كما أن الاجسام أجناس مختلفة كـذلك الملائكة؛ اذ ليس المَلَـك الموكّـل على قطـرة المطـر من جنس المَلَـــك الموكّـــل على الشـــمس. وكـــذلك الجن والروحانيات مختلف الأجناس الكثيرة)(1)

تنوع الألوان:

كمـا نبـه القـرآن الكـريم إلى تنـوع أجنـاس الكائنـات الحية تحدث عن اختلاف ألوانها، فقال تعالى عن الجبال: أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ ثَمَـرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْـرٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُهَـا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (فاطر:27)

وقـــال عن اختلاف ألـــوان الأنعـــام: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَـذَلِكَ إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (فاطر:28)

1) انظر: الكلمة التاسعة والعشرون، وهي تخص بقاء الروح والملائكة والحشر.

وفي القرآن الكريم نجد لونا خاصا لقي عناية خاصة، هو اللون الأخضر، فالله تعالى يصف أهل الجنة وهم على فرشهم في جو رفيع من البهجة والمتعة بقوله تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (الرحمن:76)، ويصف ألوان ثيابهم بقوله تعالى: عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (الانسان:21)

وفي كل ذلك إشارة إلى وجوب المحافظة على ألوان الأشياء وعدم إفسادها بما يفسدونها به الآن من التدخل في هندستها الوراثية.

وقد أثبت العلم الحديث(1) أهمية اللون في التدخل في صحة الإنسان، يقول أحد علماء النفس وهو أردتشام: (إن تأثير اللون في الإنسان بعيد الغور وقد أجريت تجارب متعددة بينت أن اللون يؤثر في إقدامنا وإحجامنا ويشعر بالحرارة أو البرودة،و بالسرور أو الكآبة، بل يؤثر في شخصية الرجل وفي نظرته إلى الحياة.

و يسبب تأثير اللون في أعماق النفس الإنسانية فقد أصبحت المستشفيات تستدعي الاخصاصيين لاقتراح لون الجدران الذي يساعد أكثر في شفاء المرضى وكذلك الملابس ذات الألوان المناسبة.

وقد بينت التجارب أن اللون الأصفر يبعث النشاط في الجهاز العصبي، أما اللون الأرجواني فيدعو إلى الاستقرار واللون الأزرق يشعر الإنسان بالبرودة عكس الحمر الذي يشعره بالدفء ووصل العلماء إلى أن اللون الذي يبعث السرور والبهجة وحب الحياة هو اللون الأخضر، لذلك أصبح اللون المفضل في غرف العمليات الجراحية لثياب الجراحين والممرضات.

ومما يمكن ذكره هنا تلك التجربة التي تمت في لندن

---

1) انظر: مع الطب في القرآن الكريم، للدكتور عبد الحميد دياب، والدكتور أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن دمشق.

على جسر (بلاك فرايار) الذي يعرف بجسـر الانتحـار لأن اغلب حـوادث الانتحـار تتم من فوقـه حيث تم تغيـير لونـه الأغـبر القـاتم إلى اللـون الأخضـر الجميـل ممـا سـبب انخفاض حوادث الانتحار بشكل ملحوظ.

والتفسير العلمي لذلك أن اللون الأخضر يريح البصر، وذلك لأن الساحة البصرية له أصغر من الساحات البصرية لبـاقي الألـوان كمـا أن طـول موجتـه وسـطي فليسـت بالطويلة كاللون الأحمر وليست بالقصيرة كالأزرق.

بل إن ما يسمى الآن بالطب البديل يتفق تماما مع ما ورد في القـرآن الكـريم من اسـتعمال الألـوان في خدمـة الصحة، وسنذكر هنا من مشكاة قولـه تعـالى: إِنَّهَـا بَقَـرَةٌ صَفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَـا تَسُـرُّ النَّاظِرِينَ)(البقـرة: 69) بعض مـا اكتشــفه هــذا النــوع من الطب(1) للإشــارة إلى وجــوب المحافظة على جمال الكون وألوانه كما خلقها الله تعالى.

ينطلق أصحاب هذا العلم من أن الله تعالى مزج بنية الانسـان بعناصـر وتموجـات كهربائيـة وإشـعاعات ذاتيـة، بحيت تتجـانس كليـة مـع العناصـر الموجـودة في الكـون المحيط به من موجات كهرومغناطيسية وإشعاعات كونية وذبذبات لونيـة، وكلاهمـا مكـون من درجـات مختلفـة من الذبذبات الموجية، مما يؤهل الإنسان الى الحياة بواسـطة هذه الطاقات الكهربائية والإشعاعية.

ويذكرون أن لكل شخص إشعاعات تختلف في طـول موجتها وعدد ذبذبتها وترددداتها عن غيره، وبذلك يكون كـل شخصا مستقل عن غـيره في الصـفات والطبـائع، وبـذلك يكون لكل شخص لـون خـاص يتمـيز بـه، أو طـول موجـة وذبذبة ترددية خاصة به مثلما هو الأمـر بالنسـبة لبصـمات الإصابع.

فكل إنسان تنبعث منه إشعاعات خاصة به، ويستقبل إشـعاعات من الكـون من الإشـعاعات والذبـذبات اللونيـة

1) انظر:: كتاب الوصفة الطبية للعلاج بالتغذية، ود.م / يحيى حمزة كوشك.

الـتى تحيـط بـه في البيئـة الـتي يعيشـها، وكـذلك تسـبب الإشـعاعات الموجيـة والذبـذبات الصـحة والمـرض -بـإذن الله- والحب والكراهية وذلك لو كانت الموجـات المرسـلة والمستقبلة بين شخص وآخر متقاربة نتج عن ذلـك تفـاهم ومحبة قوية، وكلما تنافرت كلما نتج عنها خلاف وكراهية.

انطلاقا من هـذه الافتراضـية الـتي تـدل عليهـا الأدلـة الكثيرة أخذ ما يمكن تسـميتهم بعلمـاء الألـوان في إجـراء الدراسات على تأثير الألوان على حالتنا النفسية والصحية، وطريقة تفكيرنا، فالشخص الذي يفضل لونا معينا ــ مثلا ـ على لـون آخـر يكـون لـه علاقـة بتـأثير ذلـك اللـون على إحساس ذلك الشخص.

فعندما يدخل اللـون ــ الـذي هـو عبـارة عن ضـوء أو طاقــة مشــعة مرئيــة ذات طــول مــوجي معين ــ إلى المســتقبلات الضــوئية في العين تنبــه الغــدة النخاميــة والصنوبرية، وهذا يؤدي الى إفراز هرمونات معينـة، تقـوم بإحــداث مجموعــة من العمليــات الفيســولوجية، وهــذا التفسـير يشـرح سـبب سـيطرة الألـوان على أفكارنـا ومزاجنا وسلوكياتنا.

ومن أمثلة ذلك أنهم ذكروا أن اللـون البرتقـالي مقـو للقلب ومنشط عام ومضـاد للإحسـاس بـالهبوط والفتـور والاكتئاب والنعـاس والإضـطهاد واليـأس وكافـة المشـاعر الســيئة، ويســاعد على الشــفاء من أمــراض القلب والإضطرابات العصبية وإلتهابات العينين..

واللـون البنفسـجي مهـدئ بوجـه عـام وخاصـة في الأمراض العصبية والنفسية.

واللون الـوردي لـه تـأثير ملطـف على الجسـم حيث يقوم بإرخاء العضلات.

واللــون فــوق البنفســجي مضــر في حالــة الإصــابة بــأمراض القلب والرئــتين ويســبب الإنفصــال الشــبكي بالعين، ولكنه مطهر وقاتل لبعض الجراثيم.

وهكذا سائر الألوان، وقد لا يكون بعض ما اكتشفه هؤلاء صحيحا، فهذا علم مع قدمه لا يزال من ناحية الجزم واليقين في بداياته، ولكنا نعتقد أن العلم ــ مستقبلا ـ سيكتشف الكثير من الحقائق القطعية حول الألوان، وورودها في القرآن الكريم بذلك التفصيل كاف واحده لقناعتنا بهذا الاستشراف المستقبلي.

ولكن قبل ذلك.. نحافظ على ألوان الكون قبل أن يدمرها جشع الإنسان وحرص الإنسان وصراع الإنسان.

التوازن:

خلق الله تعالى كل ما نراه أو ما لا نراه من الكون في توازن تام لا يتخلف، وبمقادير محددة مضبوطة في منتهى الدقة والإحكام، قال تعالى مبينا قانون ذلك: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(الفرقان: 2)

وذكر بعض تفاصيل ذلك:

فكل ما في الأرض وما عليها مقدر وموزون بميزان الله الدقيق، قال تعالى:﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر:19)

وحركات الأفلاك في مساراتها مقدرة تقديرا دقيقا لا تحيد عنه، قال تعالى:﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام:96)

وحركات الشمس وسيرها مقدر بحساب دقيق، قال تعالى:﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يّس: 38)

وبهذا النظام الدقيق والموازين المضبوطة قدر الله السموات جميعا، قال تعالى:﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: 12)

وقد شرح العلم الحديث بعض ما أشار إليه القرآن الكريم من الموازين الضابطة للكون، وسنقتبس هنا بعض

مـا ذكـره كنمـاذج للتـوازن الـدقيق للكـون وفـق الحكمـة الإلهية(1).

فالعلم ينص على أنه لو كـانت قشـرة الأرض أسـمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربـون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات.

ولو كان الهواء أرفع كثـيرا ممـا هـو عليـه، فـإن بعض الشهب الـتي تحـترق الآن بـالملايين في الهـواء الخـارجي كـانت تضـرب جميـع أجـزاء الكـرة الأرضـية، وهي تسـير بسـرعة تـترواح بين سـتة أميـال وأربعين ميلا في الثانيـة. وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق. ولـو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكـانت العاقبـة مروعـة. أمـا الإنسـان فـإن اصـطدامه بشـهاب ضـئيل يسـير بسـرعة تفـوق سـرعة الرصاصـة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره.

وينص على أن الهـواء سـميك بالقـدر اللازم بالضـبط لمـرور الأشـعة ذات التـأثير الكيميـائي الـتي يحتـاج إليهـا الـزرع، والـتي تقتـل الجـراثيم وتنتج الفيتامينـات، دون أن تضـر بالإنسـان، إلا إذا عـرض نفسـه لهـا مـدة أطـول من اللازم.

وينص على أن الأوكسـجين لـو كـان بنسـبة 50 في المائة مثلا أو أكثر في الهواء بدلا من 21 في المائـة فـإن جميـع المـواد القابلـة للاحـتراق في العـالم تصـبح عرضـة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شـجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر.

ولو أن نسـبة الأوكسـجين في الهـواء قـد هبطت إلى 10 في المائة أو أقـل، فـإن الحيـاة ربمـا طـابقت نفسـها عليها في خلال الدهور. ولكن في هذه الحالة كـان القليـل من عناصـر المدنيـة الـتي ألفهـا الإنسـان - كالنـار مثلا -

1) انظر: كتاب العلم يدعو إلى الإيمان، أ. كريسي مورسون رئيس أكاديمية العلوم في واشنطن.

تتوافر له.

ولا بأس أن نذكر هنا ــ من باب وجوه الحكمة في الكون ـ واقعة فيها مثل بارز على أهمية كل كائن حتى لو كان حشرة بسيطة قد لا يعيرها الإنسان أي اهتمام.

وهذه الواقعة حدثت منذ سنوات عديدة في استراليا حيث زرع نوع من الصبار. كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا، وزاحم أهل المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة. ولم يجد الأهالي وسيلة تصده عن الانتشار ؛ وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت، يتقدم في سبيله دون عائق.

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيرا حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار، ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار، وليس لها عدو يعوقها في استراليا. وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار. ثم تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية، تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد.

والقرآن الكريم من خلال عرضه لبعض نماذج توازن الكون يدعونا إلى تسخير العلم لخدمة هذا التوازن حفاظا على وجودنا ووجود غيرنا على هذه الأرض.

ولكن العلم الحديث وقع في بعض الأيدي الآثمة التي استسخرته في مصالحها، فاختل توازن الكون في كثير من النواحي.

ومن الأمثلة التي يصح ضربها هنا وصف القرآن الكريم السماء بكونها سقفا محفوظا، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الانبياء:32)

فإن في ذلك إشارة صريحة إلى وجوب المحافظة على هذا السقف المحفوظ، وهذا الوجوب يستدعي التعرف على كل ما يؤذيه لتجنبه.

والعلم الحديث يخدم هذا الجانب، ويؤكده، ويخبر أن هذه البيئة التي جهزها الله تعالى بكل مقومات الحياة لتصبح بيتاً آمناً للإنسان وتفي بكل متطلباته المعيشية قد حفظها الله تعالى وحماها من مخاطر الإشعاعات الكونية الفضائية والشهب والنيازك التى تندفع من القضاء الخارجي نحو الأرض.

لكن الفكر الجاحد الذي يتصور أنه يستمد من العلم الحديث يلغي كل هذه الاعتبارات، فلا يخضع إلا لسلطان الهوى، فيغلب المصالح الوقتية البسيطة على مصلحة الأرض جميعا.

وهذا الفكر هو الذي استسخر التكنولوجيا لتدمير هذا السقف المحفوظ، وسنشرح باختصار ماذا فعل هذا الفكر المصارع لتوازن الكون، وما سيمكن أن يصنعه إن لم يرعوي عن هذا السلوك.

فنسبة ثاني أكسيد الكربون نسبة مقدرة تقديراً دقيقاً، وهي تلعب دوراً مهماً جداً فى إعالة الحياة على سطح الأرض.

فالبيئة بهذه النسبة الضئيلة جداً من ثاني أكسيد الكربون المقدرة تقديراً هادفاً استطاعت أن تحتفظ فى غلافها الجوي القريب من سطح الأرض حيث يتركز معظم ثاني أكسيد الكربون (80 بالمائة) بدرجة حرارة مناسبة تسمح بوجود الحياة على سطحها.

فالله تعالى قد أودع في هذا الغاز خاصية امتصاص الموجات الحرارية الأرضية (الأشعة تحت الحمراء) والاحتفاظ بها فى الغلاف الجوي بما يعطي لهذا الغلاف هذه الدرجة المناسبة من الحرارة التى تسمح بوجود الحياة.

ومعني هذا أن الاخلال بنسبة هذا الغاز زيادة أو نقصاناً تعني زيادة أو نقصاناً فى درجة حرارة الغلاف الجوي وما يحمل هذا الأمر من مخاطر كثيرة.

وقد حصل هذا الأمر، فنسبة ثاني أكسيد الكربون في زيادة مطردة فى الغلاف الجوي منذ الخمسينات من هـذا القرن.

ومن مخاطر هـذه الزيـادة ازديـاد حـرارة الأرض ممـا يسـبب انصـهار كميـات كبـيرة من الثلـوج فى منـاطق القطبين والجبـال، وهـذه الميـاه تتحـرك لتسـهم فى رفـع منسوب مياه البحار والمحيطات.

وهذه الزيـادة قـد تتسـبب في تعـرض مـدن سـاحلية كثيرة للغـرق، وتشـير سـجلات المـد والجـزر فى منـاطق كثيرة من العالم أن منسوب مياه البحار قد ارتفع بمقـدار 45 ملليمـتراً فى الفـترة من 1890 -ـ 1940، وأخـذ المنسوب في الارتفاع بمعـدل 3 ملليمـترات سـنوياً حـتي عام 1970، ثم ازداد المعدل ليصل إلى 14 ملليمـتراً فى الوقت الحاضر.

وقد تبين للعلماء أن تزايد نسبة ثاني أكسيد الكربـون لاترجع فقط إلى تزايد استهلاك مصادر الوقـود الأحفـوري (الفحم ـ النفط ـ الغاز الطبيعي)، وإنما جاءت أيضـاً نتيجـة التدهور الذى أصاب الغطاء النبـاتي الـذي يعـد المسـتهلك الرئيسي لثاني أكسيد الكربون.

وخطورة هذا الوضع هي التي دعت إلى عقـد مـؤتمر دولي فى لنـدن فى فـبراير 1989 لمناقشـة الإجـراءات والوسائل الكفيلة بضبط إطلاق ثاني أكسـيد الكربـون فى الغلاف الجوي وتنمية مصادر استهلاكه لوقف هذه الزيـادة المطردة ومحاولة العودة بنسبته كما قدرها الله تعالى.

ومن الأمثلة التي يصح ضـربها هنـا ـ أيضـا ـ مـا نص عليه قوله تعـالى: وَالْأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَـا فِيهَـا رَوَاسِـيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (الحجر:19)

فالآية الكريمة تشير إلى أن عناصر البيئة - الحية منها وغير الحية - تتفاعـل وترتبـط ببعضـها في تناسـق دقيـق، يتيح لها أداء دورها بشكل متوازن ومتكامل، بحيث تحافظ

على وجودها دون أن تتسبَّب في خلخلة منظومة الحياة، وتهدِّد سائر الأحياء.

وهي تدل على أن أيَّ خلل في هذا النظام، يعني الخطر العام على الأحياء جميعا، وللتدليل على ذلك نورد مثالا يتعلَّق بالنسيج الغابي، الذي عملت فيه يد الإنسان قطعا واقتلاعا، لتلبية حاجاته ونهمه إلى الخشب في مساكنه وقصوره.

فإنَّ تعرية البيئة الغابية، سيؤدي إلى اختفاء معظم الأشجار التي تعتمد عليها كثير من الحيوانات، ملجأ وأوكارا، ومصدرا للغذاء.. وسيؤدي بالتالي إلى تعرِّي التربة وتعرُّضها للانجراف، وما يعقب ذلك من عجز الأرض عن امتصاص الماء، وازدياد خطر التصحُّر.. وسيؤدي ذلك إلى خلخلة دورة الأوكسيجين وثاني أوكسيد الكربون، باعتبار الأشجار مصدرا بل مصنعا متجدِّدا للأوكسيجين، ومستهلكا لأوكسيد الكربون، ونقصان الأشجار يزيد في درجة التلوُّث الهوائي.. وسيؤدي ذلك أخيرا إلى تقليل تبخُّر الماء الناتج عن الأشجار، بسبب قطعها، فتصاب المنطقة بالجفاف وتقل الأمطار.

هذا نموذج بسيط، وهيِّن من تصدُّع المنظومة البيئية بسبب الإنسان.

ولو تعرَّضنا للآثار الخطيرة الناجمة عن الصناعات الكيماوية ومركَّباتها العملاقة، وآثار نفاياتها السامَّة على الأنهار والبحار، والحياة المائية، وعلى الغلاف الجويِّ، وتسمُّم الهواء، لأفضى بنا الحديث إلى مجلدَّات من الحقائق المرَّة، والمخاطِر الحقيقية التي تعاني منها الحياة، ويدفع ثمنها الباهظ الإنسان نفسُه، بما نجم عنها من أمراض مزمنة وتشوُّهات خِلقية.

الانتفاع:

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يتيح لهذه المخلوقات التي تعمر الكون انتفاع بعضها ببعض بحسب

درجاتها المختلفة.

وكان من رحمة الله المقترنة بحكمته أن أتاح للإنسان الانتفاع بكل ما في الأرض من منافع، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:29)

وفي عالم الأنعام أخبر تعالى أنه خلق الأنعام لينتفع بها في الوجوه المشروعة، فقال تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل:5)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل:66)، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ (النحل:80)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (المؤمنون:21)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (غافر:79)

ومن هذا الباب الوحيد أتيح للإنسان أن يتصرف بما قد يبدو ضارا بهذه الأحياء.. ومع ذلك، فإن المؤمن ينتفع بهذا النوع من الانتفاع، وهو ممتلئ بالرحمة، يستشعر منة الله الذي أتاح له أن يتنعم بهذا الضرر الذي يصيب غيره، وقد روي أن رجلا قال:(يا رسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها)، فقال:(إن رحمتها رحمك الله)(1)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(من رحم ذبيحة رحمه الله يوم القيامة)،وفي رواية:(من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة)(2)

وقال بعضهم لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إني لأجد

---

1) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.
2) رواه الطبراني في الكبير.

العنز لأذبحها فأرحمها قال: (وإن رحمتها رحمك الله)[1]

ومع ذلك، فإن النصوص المقدسة فرضت من الآداب ما يخفف من شدة الضرر الذي يصيب الكائنات عند انتفاعنا بها:

فقد أرشدنا ﷺ إلى الكيفية المثلى للاستفادة من الحيوان مع عدم إيذائه ما أمكن، فقد رأى رسول الله ﷺ رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ:(أتريد أن تميتها موتات، هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها)[2]

ومر رسول الله ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها، فقال رسول الله ﷺ:(دع أذنها وخذ بسالفتها [3]) [4]

وذكر ﷺ بعض وجوه الإحسان في الذبح، فقال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[5]

ومن هذا الباب ما سنه الشارع من الذبح بدل غيره مما تمارسه الجاهليات المختلفة، وقد تفطن القدماء إلى دور الذبح في إزالة الألم، فهذا ابن الجوزي يقول:(وأما ألم الذبح فانه يستر، وقد قيل أنه لا يوجد أصلا لأن الحساس للألم أغشية الدماغ، لأن فيه الأعضاء الحساسة، ولذلك إذا أصابها آفة من صرع أو سكتة لم يحس الإنسان بألم فإذا قطعت الأوداج سريعا لم يصل ألم الجسم إلى محل الحس ولهذا قال عليه الصلاة والسلام إذا ذبح أحدكم فليحد شفرته وليرح ذبيحته)[6]

ومثل ذلك نص العلم الحديث على أن الذبح من العنق هو أنجح وسيلة للإجهاز السريع على الحيوان بغير

---

1) رواه الطبراني في الكبير وفيه عثمان بن عبد الرحمن الجمحي قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به.
2) رواه الطبراني والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.
3) السالفة مقدم العنق.
4) رواه ابن ماجة.
5) رواه مسلم.
6) تلبيس إبليس.

تعذيب ولا تمثيل إذ أنه من الثابت علميا أن الرقبة حلقة الوصل بين الرأس وسائر الجسد فإذا قطع الجهاز العصبي شلت جميع وظائف الجسم الرئيسية، وإذا قطعت الشرايين والأوردة توقف الدم عن تغذية المخ، وإذا قطعت الممرات الهوائية وقف التنفس وفي جميع هذه الحالات تنتهي الحياه سريعا.

بالإضافة إلى هذا، فإن الذبح يرتبط بمصلحة الإنسان نفسه.. فالدم هو المجرى الذي تلقى فيه مواد الايض أو التمثيل الغذائي كلها ففي ما هو مفيد وما هو ضار مؤذى، والكائنات المتطفلة في الجسم تفرز سمومها في الدم ناهيك عن وجودها في الدورة الدموية في بعض مراحل تطورها، ولهذا فالدم غذاء محرم في الإسلام.

وقد كان أهل الجاهلية يجبون أسنمة الإبل ـ وهي حية ــ ويقطعون أليات الغنم وكان في ذلك تعذيب لهذه الحيوانات، فلهذا حرم الرسول ﷺ الانتفاع بهذه الأجزاء، فقال: (ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة)(1)

ومن هذا الباب نهيه ﷺ عن التمثيل بالبهائم، فقد (نهى رسول الله ﷺ أن يمثل بالبهائم)

ومنه نهيه عن صبر البهائم، ونهيه عن صيد الحيوان أو قتله لغير غرض، قال ﷺ:(لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا)

ومنه نهيه ﷺ عن الرمية، فقد روي أن النبي ﷺ نهى عن الرمية أن ترمي الدابة، ثم تؤكل ولكن تذبح ثم يرموا إن شاءوا، وقد مر ابن عباس على أناس قد وضعوا حمامة يرمونها فقال موجها:(نهى رسول الله ﷺ أن يتخذ الروح غرضا)

4 ـ الطهارة :

كل ما نراه في الكون ـ في أصل خلقته ــ طاهر لم

---

1) رواه البزار.

يتدنس بأي أذى يجعل من منفعته مضرة، ومن مصلحته مفسدة.

ولهذا الأصل ينص الفقهاء على أن (الأصل في الأشياء الطهارة)، وهي قاعدة لا تعني المعنى التعبدي فقط، بل تعني كذلك الحفاظ على الكون المسخر بالهيئة التي خلق عليها، لأن أي تغيير قد تنقلب عواقبه على عكس المراد.

ولعل أخطر ما يصيبه التلوث، وأسهل ما قد يتعرض للتلوث هو الماء باعتبار سيولته المستعدة لتحلل أي شيء فيه.

ولهذا أولى القرآن الكريم أهمية كبيرة للماء، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم 49 مرة، وامتن الله به على عباده ذاكرا وجوه الحكم في خلقه، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْه شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُل الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11)﴾ (النحل)

ولكل هذه الخيرات النابعة من نعمة الماء يصفه القرآن الكريم بأنه مبارك أي كثير العطاء، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ (قّ:9)

ولكن كل هذه المنافع مقيدة بوصف الطهر، قال تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ (الفرقان: 48، 49)

وفي ذلك إشارة إلى أن منافعه تقتضي وجود طهوريته، فإن سلبها تحول من دور الإحياء الذي نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ) (الانبياء: 30) إلى دور الإماتة.

والعلم الحديث أيد هذه النظرة القرآنية، ففصل في

المنافع الجمة التي ورد القرآن الكـريم ببيانهـا، فنص على أن الماء يشـكل 70% من مسـاحة اليابسـة ويشـكل في المتوسط 65% من وزن الإنسان والكائنات الحية.

وحكمة هذه النسبة المرتفعـة للمـاء هـو دوره الكبـير في سـير التفـاعلات الكيميائيـة داخـل أجسـام النباتـات والحيوانات.

وسر ذلك مـا يملكـه من خـواص كيميائيـة وفيزيائيـة، منها بناؤه الفريد الذي يجعل جزيئاته متماسـكة ومرتبطـة بروابـط هيدروجينيـة، ويصـبح كـل جـزيء مرتبطـاً بأربعـة جزيئات مجـاورة، وكـل منهـا بأربعـة، وهكـذا تبـدوا جميـع الجزيئـات مرتبطـة ببعض في شـبكة فراغيـة متماسـكة، ولولا هذا لكانت درجة غليان الماء (-80م) ودرجة تجمـده (-100 م) ولاستحال جود الماء على شكل سائل وصـلب على سطح الأرض ولاستحالت الحياة.

وهو لهذا يمتص قدرة حرارية كبـيرة لكي يتبخـر حيث كـل غـران من المـاء السـائل يحتـاج إلى 540 حريـرة ليتحول إلى بخار، وهذه الخاصية تعطي المـاء دوراً فريـداً في نقل القدرة من مكـان لآخـر، فالمـاء الـذي يتبخـر من المحيطات تسوقه الريـاح مئـات وآلاف الكيلومـترات إلى أماكن باردة فعند تبرد البخار وتحببه وتساقطه على شكل قطرات مطر ينشر معه الطاقة التي أمتصها أثناء تبخـر ه فيسـاهم في رفـع درجـة الحـرارة في تلـك المنـاطق وتلطيف حرارة الجو وكذلك في أثناء تساقط الثلـوج فكم هذه الحرارة المنتشرة كبيرة إذا علمنا أنه يتبخر كـل عـام 520 ألف كيلوا متر مكعب من الماء.

إلى غـير ذلـك من الخـواص، الـتي تنتج عنهـا المنـافع الكثيرة.

والعلم الحـديث بين كـذلك ضـوابط اسـتعمال المـاء والمخاطر التي تنجر عن سوء التعامل معه، ومن أخطرها ما يسمى بالمطر الحامضـي، الـذي يشـير وصـف القـرآن

الكريم للماء بالطهر على وجوب الحذر منه.

لكن المدنيــة الحــديث لا تبــالي بهــذا النهي الربــاني المؤيد بالعلم حتى أصبح المطر يسقط في مناطق كثـيرة ـ خاصة فى البيئات الصناعية ـ مطراً حمضياً يهلك الحـرث والنسـل، فقـد بلـغ الأس الهيـدروجيني للمطـر فى بعض المناطق الصناعية درجة عالية تجعل ميـاه الأمطـار عاليـة الحموضـة محدثـه أضـرار كثـيرة، فقـد فقـدت مئـات من البحيرات فى أمريكا الشمالية وشمال غرب أوربا ـ نتيجــة ارتفاع درجـة حموضـة مياهها بسـبب المطـر الحمضـي ـ معظم ما بها من ثروات سمكية وأصـبحت 90 بحـيرة فى منطقة جبال أدروندك فى ولايـة نيويـورك ــ مثلا ــ خاليـة تماماً من الأسماك تحت تـأثير الحموضـة المتزايـدة لميـاه البحيرات وهي حموضة قاتلة للأحياء.

ولا يقتصر تأثير المطر الحمضـي على الأضـرار بميـاه الأنهار والبحيرات وإنما يمتد تأثيره إلي مخاطر كثيرة فقـد أعلن فريق من الباحثين فى جامعة نيوها مبشير بالولايات المتحـدة الامريكيـة (1985) أن المطـر الحمضـي يمنـع حاسة الشم عند سمك السالمون، ولهذا يفقد قدرته على إيجاد طريقة نحو مجاري الأنهار العليا من أجل وضع بيضة وإتمام عملية الفقس، كما بـدأت تضـر الأمطـار الحمضـية بالمحاصيل الزراعية تحت تأثير ترسب كميـات كبـيرة من المواد الحمضية فى التربة مما يغير من تركيبها الكيمــاوي فى اتجاه الحموضية المتزايدة التى تضر بل تقتل النباتـات إذ تعمل الحموضـة الزائـدة فى التربـة على إفقـار التربـة نتيجـة إزالـة الكاثيونـات " الأيونـات الموجبـة " منهـا الـتى تعتبر القاعدة الأساسـية لتغذيـة النباتـات مثـل الكالسـيوم والمغنيسيوم والبوتاسيوم.

كمـا يـؤدي المطـر الحمضـي إلى تـدمير الكثـير من الأشجار والنباتات حيث تصاب بظاهرة المـوت الـتراجعي، حيث تموت الأشجار واقفه كمـا يقولـون إذ تتلـف الأوراق

العلوية المعرضة مباشرة للمطر الحمضي الذى يقتل المادة الخضراء فيها ثم ينتقل التأثير بعد ذلك الى الأوراق التحتية فقد أوضح تقرير من ألمانيا الاتحادية (1980) أن مساحة من الغابات تقدر بنحو 560 ألف هكتار أي حوالي 7ر7% من مجموع مساحات الغابات في ألمانيا قد دمرت أو أتلفت بدرجات متفاوته نتيجة المطر الحمضي والضباب الحمضي.

وعندما نتساءل عن سبب هذا الانحراف عن الحكمة الإلهية في الحفاظ على طهارة المياه، نجده الجشع والحرص على الكسب بغض النظر عن المفاسد الحاصلة، فعندما نستخدم الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية مثلاً بدرجة كثافة عالية، خوفا من الجوائح، وحرصا على الكسب، وسعيا إلى زيادة إنتاجية المحاصيل الزراعية نصل إلى إفساد البيئة والإنتاج معاً، لأن الاستخدام المكثف لهذه الكيماويات تسرب كميات كبيرة منها إلى الهواء ومصادر المياه وإفسادهما، فضلاً عن إنتاج محاصيل ملوثة كيمائيا.

وفي تقرير صادر عن دول مجموعة التعاون الاقتصادي الأوربي (1988) حذر من تفاقم التلوث المائي الناجم عن تكثيف استخدام الأسمدة الكيماوية، ودعا التقرير إلى الحد من الاستخدام المكثف (الإسراف) لهذه الأسمدة الكيماوية لما لها من مخاطر كبيرة على الأحياء المائية.

فإذا قيل لهؤلاء: كفوا عن هذا الإفساد في الأرض، قالوا كما نص القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة:11)، ويعقب القرآن الكريم على قولهم هذا بقوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:12)

* * *

وكمثال آخر على حث الشريعة على وجوب الحفاظ

على طهـارة البيئـة الحيويـة النهي عن الجلالة[1]، وهي مـا يأكـل القـاذورات من الحيوانـات، أو هي الدابـة الـتي تتبـع النجاســات وتأكــل الجلــة ، وهي البعــرة والعــذرة، ففي الحديث: (نهى رسول الله ﷺ عن الإبل الجلالـة أن يؤكـل لحمها ولا يشرب لبنها ولا يحمل عليها إلا الأدم ، ولا يذكيها الناس حتى تعلف أربعين ليلة)[2]

بــل ورد النهي عن ركوبهــا، ففي الحــديث: (نهى رسول اللـه ﷺ عن الجلالـة في الإبـل أن يـركب عليهـا أو يشرب من ألبانها) [3]، وقد علـل ذلـك بأنهـا ربمـا عـرقت فتلوث بعرقها.

ومن هــذا البــاب نهي الشــرع أن تلقى في الأرض النجاسات ونحوها، وقد روي عن بعضهم قال:(كنـا نكـري أراضي رسول الله ﷺ ونشـترط على من يكريهـا ألا يلقي فيها العذرة)[4]

1) وهي الدابة التي تأكل العذرة أو غيرها من النجاسات.
2) رواه الدارقطني والبيهقي.
3) رواه أبو داود.
4) رواه البيهقى.

رابعا ـ الكون المقروء

ينظر العارفون بحـزن إلى المختـالين بسـبب رحلتهم إلى القمر، أو تجولهم في الفضاء، أو مـا يحلمـون بـه من رقي في الكـواكب، أو مـا يوهمـون بـه أنفسـهم من غـزو للفضـاء، لأنهم يعتـبرونهم لم يفعلـوا سـوى أن رحلـوا من كون إلى كون..

رحلـوا من تـراب الأرض ليقعـوا على تـراب القمـر، وتخلصوا من جاذبية الأرض لتحتضنهم جاذبية القمر.

أما رحلة العارفين، فهي من الكون إلى المكون، كمـا قال ابن عطاء الله:(لا ترحل من كون إلى كـون، فتكـون كحمار الرحى يسير والـذي ارتحـل إليـه هـو الـذي ارتحـل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكـون: وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (النجم:42)

ولذلك يعتبرون سكون الإنسان للأشياء وعدم عبـوره منها وقوفا، بل سقوطا:

يقول أحدهم معبرا عن ذلـك:(لـو أن رجلا دخـل إلى بستان فيه من جميـع مـا خلـق اللـه تعـالى من الأشـجار، عليها من جميع ما خلق اللـه تعـالى من الأطيـار، فخاطبـه كل طائر منهـا بلغتـه، وقـال: السـلام عليـك يـا ولي اللـه، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يدها أسيرا)

ولذلك ينظرون إلى الكـون المسـبح قبـل أن ينظـروا إلى الكون المسخر، فيجتهدون في تفقه أسرار تسـابيحه، قـال الغـزالي:(فـإذن جميـع أقطـار ملكـوت السـموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسـمه وشخصـه، فهـو من مطالعـة جمال الملكوت في جنة عرضها السـموات والأرض. وكـل عـارف فلـه مثلهـا من غـير أن يضـيق بعضـهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقـدر تفـاوتهم

في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند اللــه ولا يدخل في الحِصر تفاوت درجاتهم)[1]

وهذا الرحيل هو سنة رسول الله ﷺ، روى ابن عباس أنه بات عند نبي الله ﷺ ذات ليلة فقـام نـبي اللـه ﷺ من الليل، فخرج فنظر إلى السماء، ثم تلا هذه الآية الـتي في آل عمــران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْــقِ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ﴾ (آل عمـران:190) إلى آخر السورة. ثم قـال: (اللهم اجعـل في قلـبي نُـورا، وفي سَـمْعي نـورا، وفي بَصَـري نـورا، وعن يمينـي نـورا، وعن شمالي نـورا، ومن بين يَـدَيّ نـورا، ومن خَلْفي نـورا، ومن فَوْقي نورا، ومن تحتي نورا، وأعْظِم لي نورا يوم القيامـة)[2]

وأخــبر ﷺ عن بعض الحجب الـتي تحـول دون تأمـل خلــق اللــه، فقــال ﷺ:(انتهيت إلى الســماء الســابعة، فنظرت فإذا أنا فوقي برعد وصواعق، ثم أتيت على قــوم بطونهم كـالبيوت فيهـا الحيـات تـرى من خـارج بطـونهم، فقلت:(من هؤلاء؟) قال:(هؤلاء أكلـة الربـا) فلمـا نـزلت وانتهيت إلى سماء الدنيا فـإذا أنـا بـرهج ودخـان وأصـوات فقلت:(من هؤلاء؟) قال:(الشياطين يحرفـون على أعين بـني آدم أن لا يتفكـروا في ملكـوت السـماوات والأرض، ولولا ذلك لرأت العجائب)[3]

وسـنتجول في هـذا الفصـل مـع العـارفين في بعض جنان الملكوت، لنعيش بعض أشـواقهم، ونـذوق من بعض شرابهم.

ونحن نقـر في بدايـة هـذا الفصـل صـعوبة الكلام في هذا الباب من نـواح متعـددة، منهـا مـا لـه علاقـة بالـذوق، ومنها ما له علاقـة بـالتعبير، ومنهـا مـا لـه علاقـة بالعقـل، ومنها ما له علاقة بأولئك المترصدين لكـل كلمـة ليحكمـوا

1) الإحياء.
2) رواه البخاري ومسلم.
3) رواه أحمد.

من خلالها بالكفر أو البدعة.

ولذلك سنحاول أن نبسط الكلام في الموضـوع بقـدر الطاقة، ونحاول أن نلتمس من التعابير ما لا يثير أحـدا من الناس.

1 ـ الفناء:

أول خطوة يبـدأ بهـا السـالكون طريـق المعرفـة هي إعدام رؤية الكون الذي يتوهمونه، والذي لا حقيقة وجودية له.

فلا حقيقة للكون القائم بذاته، أو الذي يستمد وجـوده من ذاته، كما يستمد تدبيره من ذاته.

وهذا الإعدام يعبرون عنه بالفناء(1) عن رؤية الأكـوان، ويعرفونه بأنه (اضمحلال مـا دون الحـق)، فيضـمحل عن القلب والشهود.

قـال الغـزالي عنـد ذكـره لمـراتب السـالكين في التوحيـد:(الرابعـة أن لا يـرى في الوجـود إلا واحـداً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفنـاء في التوحيـد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً، فلا يـرى نفسـه أيضـاً، وإذا لم ير نفسه لكونـه مسـتغرقاً في التوحيـد، كـان فانيـاً عن نفسـه في توحيـده، بمعـنى أنـه فـني عن رؤيـة نفسـه والخلق)(2)

ويقـول ابن القيم شـارحا هـذا الحـال: (وإن لم تكن ذاته فانية في الحال مضـمحلة، فتغيب صـور الموجـودات في شهود العبد، بحيث تكون كأنها دخلت في العـدم، كمـا كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى ذو الجلال والإكرام وحده في قلب الشاهد، كما كان وحده قبل إيجاد العوالم)

---

1) يقصد بالفناء في كلام العارفين أمران:

1 ـ فناء سلوكي، وهو تغيير معنوى للسالك بإفناء ميوله ورغباتـه جميعـا من المخالفـة إلى الموافقة.

2 ــ فنـاء بمعـنى التجريـد العقلى وعـدم الالتفـات إلى المـدركات والأفكـار والأفعـال والأحاسيس وذلك بانحصاره فى التفكير فى الله، وهذا ما نريده هنا.

2) الإحياء: (4/212).

(1)

وهذا الفناء مرحلة من مراحل السير، أو هو لمعة تلمع في ذهن العارف ووعيه بعد المكابدة والتأمل، ليعود بعدها إلى الكون الحقيقي، وهو الكون المؤسس بنور الله، والموجود بإبداع الله، ليقرأه باسم الله.

فالعارف لا يحتقر الكون بإعدامه، وإنما يرفعه بأن يلبسه لباس العبودية والتوجه إلى الله.

وكما أن أي لا بس يحتاج لخلع ثوبه القديم ليلبس الجديد، فكذلك العارف يفني الكون القديم، أو لباس الكون القديم، وهو لباس لا اسم له، ليلبسه لباس الانتماء إلى الله.

ولذلك لا يوجد من يحترم الكون كاحترام العارفين، ولا يوجد من ينسب الكون إلى مصدره كما ينسبه العارفون، فهم لا يقصرون الشرك على الاعتقاد بوجود الند لله، بل يعتبرون من الشرك أو أساس الشرك نسبة الوجود الذاتي للأشياء.

وعلى هذا المعنى اتفق العارفون، وقد جمع ابن عطاء الله كل أقوالهم في ذلك بعبارة مختصرة فقال: (الأكوان ثابتة بإثباته، وممحوة بأحدية ذاته)

فالأكوان ـ كما يراها العارفون، وكما هي في حقيقة الحال ـ عدم محض من حيث ذاتها، وما ثبوتها إلا بإثباته تعالى وإيجاده لها وظهوره فيها.

وهم يستشهدون لهذا المعنى بالمعنى الإشاري المبثوث في ثنايا قوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه) (القصص: 88))، فيفهمون منها أن كل ممكن هو باعتبار ذاته هالك، أو هو عدم محض ونفي صرف، وإنما له الوجود من جهة ربه، فهو هالك باعتبار ذاته، موجود بوجه ربه، أي أن وجوده قاصر على جهة ربه.

وربما سياق الآية قد يفيد هذا المعنى، فهو قد ورد

1) مدارج السالكين:3/370.

في أثناء الدعوة إلى توحيد الله في الدعاء والعبادة، ليقول من جهة لا تتخذ أي ند تدعوه من دون الله فسيأتي اليوم الذي يهلك فيه، فلا يبقى شيء غير الله، وقد تفيد ما يريده خالعو لباس الكون المعدوم من نفي الوجود الذاتي، فلذلك يكون من دعا غير الله، متوجها بالدعاء إلى الوهم، قال تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:88)

ولا تنافي بين المعنيين، ولا تصادم بينهما، ولا يلغي أحدهما الآخر، بل إن المعنى الأول مؤسس على المعنى الثاني.

وهكذا يفهم العارفون من كل النصوص الواردة في إثبات وحدانية الحق أو أحديته أو أحقيته:

وقد كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل قال من ضمن دعاء التهجد:(أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق) (1)

ففي قوله ﷺ:(أنت الحق) أي واجب الوجود؛ فأصله من حق الشيء أي ثبت ووجب، فوجود الله هو الوجود الحقيقي إذ وجوده لنفسه، لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم؛ وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويجوز عليه لحاق العدم، ووجوده من موجده لا من نفسه، فهو معدوم باعتبار ذاته في كل الأحوال، كما قال العارف:

الله قل وذر الوجود إن كنت مرتاداً
فالكل دون الله أن عدم على التفصيل
واعلم بأنك والعوالم لولاه في محو وفي
من لا وجود لذاته من فوجوده لولاه عين

1) رواه البخاري ومسلم.

والعـارفون بـربهم لم سـوى المتكـبر

وعـبر الآخـر عن انشـغال العـارف باللـه عن الكـون بقوله:

شـغل المحب عن في حب من خلـق

والعـارفون عقـولهم عن كـل كـون ترتضـيه

فهم لديه مكرمون وفي أحـوالهم مجهولـة

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمـة قالهـا الشـاعر، كما ورد في الحديث كلمة لبيد(1): ألا كل شيء ما خلا الله باطل(2).

* * *

والقـرآن الكـريم يـدلنا على التأمـل ومعايشـة هـذه المعاني من خلال ذكره لمبدأ خلقـه الأشـياء، وكأنـه يردنـا إلى عدمها الأصلي، ليصاحبنا معنـاه في تعاملنـا معهـا، فلا نعطيها من الوجود فوق ما تستحقه:

وقـد قـال تعـالى عن مبـدأ الإنسـان: هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (الانسان:1)

وأخبر تعالى أن الغفلة عن أولية الإنسان هي السـبب في جحوده وكبريائه، فقال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (يّـس:78)، ولهذا صحح له هذا الجهل بقوله تعالى: قُلْ يُحْيِيهَـا الَّذِي أَنْشَـأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (يّـس:79)

ومثلما جاءت الآيات الكثيرة تبين أولية الإنسان لتـدل على أنه ليس قائما بذاته، بل هو قائم بقيوميـة اللـه، جـاء الحـديث عن خلـق الأشـياء جميعـا، بـل جـاء الحث على السير في الأرض لاكتشاف مبدأ الخلق، ومن ثم اكتشـاف

1) وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة منها أشعر كلمة تكلمت بهـا العـرب، وفي روايـة أصدق كلمة قالها شاعر، وفي أخرى أصـدق بيت قالـه الشـاعر، وفي أخـرى أصـدق بيت قالته الشعراء، وفي أخرى أصدق كلمة قالتها العرب.

2) رواه البخاري ومسلم.

أنها مخلوقة وليست قائمة بذاتها، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت:20)

ومن هذا الباب جاءت أسماء الله تعالى التي نص عليها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:3)

فالتأمل في المعاني العميقة التي تحملها هذه الأسماء يلبس الأشياء جميعا ثوب العدم، ليبقى الحق وحده هو المتفرد بالوجودالحقيقي.

يقول سيد قطب مبينا عمق المعاني التي تدل عليها هذه الأسماء الحسنى:(وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى، لعلها أضخم وأقوى. حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة. فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:3)

ويقول عن المعاني التي يستشعرها، وهو يعيش في ظلال هذه الأسماء:(الأول فليس قبله شيء. والآخر فليس بعده شيء. والظاهر فليس فوقه شيء. والباطن فليس دونه شيء.. الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان. وهما مطلقتان. ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله. وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه. حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمدا من وجود الله. فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده. وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته. وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود)

(1)

وقد عبر القرآن الكـريم ــ كـذلك ــ عن هـذا المعـنى باسم الله (الأحـد) في قولـه تعـالى: ﴿ قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ (الاخلاص:1)، وهو اسم عظيم يحوي ـ مع التأمل ـ الكثـير من الدلالات، ولهذا لما خشي رسـول اللـه ﷺ أن لا يقـدر حق قدره ـ كما قد لا تقـدر المعـاني الـواردة في السـورة حق قـدرها ــ ذكـر أن هـذه السـورة ــ الـتي تحـوي هـذه الحقيقة الجليلة ـ والتي نتوهمها صغيرة تعدل ثلث القـرآن كما روي عن أبي سعد، أن رجلا سمع رجلا يقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الاخلاص:1) يرددها، فلما أصبح جـاء إلى النـبي ﷺ فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالهـا - فقـال النـبي ﷺ: (والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن)(2)

ولهـذا كـان بلال في رمضـاء مكـة في بدايـة الإسـلام يصيح بها في نشـوة عظيمـة، وقـد فـني عن كـل العـذاب المحيط به:(أحد أحد)

ولا غرابة في كل هذا ـ كما يقول سيد قطب ـ (فـإن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: قل هو الله أحد . هـذه الأحديـة عقيـدة للضـمير، وتفسـير للوجـود، ومنهج للحياة)(3)

ولهذا ـ خلاف ما قد نتصور ـ فإن غاية رسـالة رسـول الله ﷺ لم تكن الدعوة والتربية على معنى التوحيـد الـذي ينفي الشـريك فقـط، وإنمـا الـدعوة والتربيـة على معـنى الأحدية الذي ينفي الوجود الذاتي لغير الله.

وعلى كليهما تقوم حياة المؤمن، ومن كليهما يسـتمد العارف.

وقد شرح سيد قطب بتعبيره الجميـل المعـاني الـتي

---

1) في ظلال القرآن.

2) رواه ابن حبان، وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(أيعجز أحدكم أن يقرأ في كل ليلة ثلث القـرآن قـالوا نحن اعجـز من ذلـك واضـعف قـال: (إن اللـه عـز وجـل جـزا القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله احد جزا من أجزاء القرآن)رواه أحمد ومسلم.

3) في ظلال القرآن.

يعيشها العارف، وهو في ظلال هذا الاسم الجليل، فقال:(إنها أحدية الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية)[1]

وهذه الحقيقة هي التي تتأسس عليها كل حقائق المعرفة والسلوك، وهي النهاية التي ينتهي إليها سلوك العارف ليبدأ بها استمداده، فهو ما دام ينظر إلى الوجود نظرة الشريك الذي يزاحم ربه في وجوده، لا يستمد من هذا الوجود غير الجهل والتشتت، لكنه إن خلع عنه هذا الوجود المشرك، وحلاه بحلية الأحدية، فإن الوجود كله يصبح عيونا تفيض بالمعارف على قلبه.

ولهذالا يفهم العارفون من قول (لا إله إلا الله) ما يفهمه الكثير من قصر معناها على (لا معبود بحق إلا الله)، بل يفهمون ذلك، ومعه يفهمون أن (لا موجود بحق إلا الله)

* * *

ولم يخالف أحد من العلماء في صحة هذه المعاني التي يتحدث عنها العارفون[2].

فهي معان شرعية تدل عليها النصوص الكثيرة، بل يدل عليها العقل، ويستطعمها الذوق.

والرمي لأجل هذا بالبدعة والضلال لا دليل عليه، ولا مبرر له.

وبما أن بعض الناس ممن يدعون الانتساب إلى ابن القيم أو ابن تيمية يخول لنفسه الحكم بالبدعة والضلالة بسبب هذه المقولات، فإنا سنود رأيهما هنا، لا من باب الجدل الذي نهينا عنه، وإنما من باب إلزامهم بما يلزمون به أنفسهم.

---

1) في ظلال القرآن.

2) باستثناء بعض الحرفيين الذين لم تستطع عقولهم أن تفهم هذه المعاني العميقة، ولم تتح لهم أذواقهم أن تستشعرها.

تحدث ابن القيم عن الفناء والبقاء في كتبه الكثيرة، ومما قاله في مدارج السالكين عند حديثه عن منزلة الفناء:(الفناء ضد البقاء، والباقي إما باق بنفسه من غير حاجة إلى من يبقيه، بل بقاؤه من لوازم نفسه وهو الله تعالى وحده، وما سواه فبقاؤه ببقاء الرب، وليس له من نفسه بقاء، كما أنه ليس له من نفسه وجود، فإيجاده وإبقاؤه من ربه وخالقه، وإلا فهو ليس له من نفسه إلا العدم، قبل إيجاده والفناء بعد إيجاده)(1)

ويرفع توهم أن المراد بأن نفسه وذاته اقتضت عدمه وفناءه بقوله:(إنما الفناء أنك إذا نظرت إلى ذاته بقطع النظر عن إيجاد موجده له كان معدوما، وإذا نظرت إليه بعد وجوده مع قطع النظر عن إبقاء موجده له استحال بقاؤه، فإنه إنما يبقى بابقائه كما أنه إنما يوجد بإيجاده فهذا معنى قولنا إنه بنفسه معدوم وفان فافهمه)(2)

أما ابن تيمية، فتحدث في رسائلة كثيرا عن هذه الحال، وإن كان يعيب عليه نقصه عن الكمال وهو يتفق في ذلك مع كل من تحدث عن هذا الحال..

يقول في مجموع الفتاوى:(الفناء الذي يوجد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور: أحدها فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو فى الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته وتألهه وإنابته وتوجهه إلى الله وحده لاشريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا، وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: 89)، وهو سلامة القلب عن الإعتقادات الفاسدة ومايتبع ذلك.

وهذا الفناء لاينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء،

---

1) مدارج السالكين: 3/369.
2) مدارج السالكين: 3/369.

فيكون العبد فانيا عن إرادة ما سواه وإن كان شاعرا بالله وبالسوى وترجمته قـول (لا إلـه إلا اللـه)، وكـان النـبى ﷺ يقول:(لا اله الا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضـل وله الثناء الحسن) وهذا فى الجملة هو أول الدين وآخره.

الأمر الثانى فناء القلب عن شـهود مـا سـوى الـرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فنـاء عن الشـهاده، ذاك فنـاء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فنـاء عن العلم بـالغير والنظر إليه، فهذا الفنـاء فيـه نقص، فـإن شـهود الحقـائق على ما هي عليـه، وهـو شـهود الـرب مـدبرا لعبـاده آمـرا بشرائعه أكمل من شـهود وجـوده أو صـفة من صـفاته أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سـوى ذلـك) (1)

وقال في موضع آخر:(.. وهذا فنـاء عن ذكـر السـوى وشهوده وخطوره بالقلب، وهذا حال ناقص يعـرض لبعض السالكين، ليس هو الغاية، ولا شرطا في الغاية، بل الغاية الفنـاء عن عبـادة السـوى.. وهـو حـال ابـراهيم ومحمـد الخليلين ـ صـلى اللـه عليهمـا وسـلم ـ فإنـه قـد ثبت في الصـحاح عن النـبي ﷺ من غـير وجـه أنـه قـال:(إن اللـه اتخـذني خليلا كمـا اتخـذ ابـراهيم خليلا)(2).. وحقيقـة هـذا الفناء هو تحقيق الحنيفية، وهو إخلاص الـدين للـه وهـو أن يفني بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشـيته عن خشـية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيمـا سـواه والبغض فيه، فلا يكون لمخلـوق من المخلـوقين لا لنفسـه ولا لغير نفسه على قلبه شركة مع الله تعالى)(3)

فهذه النصوص وغيرها تدل على أن حال الفناء الـذي تحدث عنه أهل الله حال معتبر عند ابن تيميـة وابن القيم، وأن ما يدعيـه من يـدعي صـحبتهما من الـدعاوى لا دليـل

1) مجموع الفتاوى:10/337.
2) رواه الحاكم.
3) الرد على المنطقيين: 517.

عليه، وهو محض أحقاد تمتلئ بهـا النفـوس، لا علم معتـبر يمكن أن يناقش.

أما ما ذكراه من نقص هذه الحال، فهو صحيح لا شك فيه.. والمتوقف عند هذه الحال والمسـتلذ لهـا انقطـع بـه الطريق.. أولم يفهم الغاية منه.. فالخالع للكون الفاني لن يفهم مراد اللـه من رسـائل الكـون حـتى يعيـد لبسـه من جديد، باسم الله لا باسمه الذي لا وجود له.

ولكن استنقاص العارفين المتحـدثين عن هـذه الحـال غير صحيح.. ومقارنتهم في ذلك بالسلف الصالح، واعتبــار كلامهم بدعة بسبب ذلك أبعد عن الصواب.

ذلــك أن الكلام في هــذه المســألة يشــبه الكلام في التفسير والفقه.. وغيرها من علوم الشريعة.

فكلام المفسر في تفسير غريب القـرآن ربمـا يكـون بدعة لم يخض فيها السلف، لا لكونهـا بدعـة، ولكن لكـون ذلك الغريب كان مشهورا غير غريب عندهم.

والكلام في دقــائق الفقــه، وتقســيمه إلى ســنن وفرائض وموانع وأسباب .. وغير ذلك بدعة بالنسبة لفقهاء السـلف.. فلم تـدعهم الحاجـة في وقتهم إلى مثـل هـذه المصطلحات.

وهكذا الأمر في هذا الباب..

فأهل الله الـذين اختصـوا بـالبحث في هـذا الجـانب.. ودرسوا الأحوال التي يمر بها السالك في رحلتـه إلى اللـه لاحظوا هذه المرحلة الخطـيرة والمهمـة.. فلـذلك تحـدثوا عنها بصنوف من الأحاديث..

منها ما يرغب فيها، ويعتبرها قمة من قمم السـلوك.. وهو صـحيح.. لأن من وصـل إليهـا بـدأ البدايـة الصـحيحة.. والبداية الصحيحة لابد أن توصل إلى النهاية الصحيحة.

وليس ذلك نقصا.. وليس القيام بأداء ظواهر العبودية أكمل من هذا..

ذلك أن تلك الظواهر قد يقوم بها من لا حال لـه، بـل

من لا إيمان له.

أمـا كلام العـارفين فهـو في أحـوال البـاطن، وهي أحوال دقيقة تستدعي تفاصيل دقيقة كتلك التفاصيل التي يتحدث فيها الفقهاء عن دقائق الفقه، ما يقـع منهـا ومـا لا يقع.. ولم يقـل أحـد من النـاس أن كلام الفقهـاء في هـذا قصور عن درجة السلف.

ولكن العارفين مـع هـذا ينبهـون السـالكين إلى عـدم الوقوف مع أي حال، وهم يرددون لهم في كل حين قولـه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ {النَّجم:42}

* * *

قد يقال بعد هذا: فما الذي يميز العارفين؟

ولماذا لا يستوون مع سـائر المؤمـنين في النظـر إلى الكون؟

ولمـــاذا تمتلئ الكتب بهـــذه المعـــاني الواضـــحة الصحيحة؟

والجواب عن ذلك: أن هذا العلم يتحول عند العارفين إلى معرفــة، فالعــالم يــدرك الشــيء، والعــارف يذوقــه ويعايشه.

وعنــدما يعيش العــارف أو الســالك هــذه المشــاعر النبيلة، فإن وديان البلاغة تفيض من لسانه لتعـبر عن تلـك المشاعر..وهذا سر تلك الكنوز العظيمة التي خلفها أولياء الله.

2 ـ البقاء:

بعد أن يخلع العـارف لبـاس الكـون المعـدوم، والـذي كان حجابه الحائل بينه وبين عبادة ربه ومعرفته، يعود إلى الكـون المنتسـب إلى اللـه، والـدال على اللـه، والمعـرف بالله.

فالعارفون جميعا متفقون على أن حالـة الفنـاء الـتي يمر بها السـالك ــ والـتي تعـبر عن حقيقـة عقديـة، وذوق عرفـاني ــ هي بدايـة المعرفـة لا نهايتهـا، فـإن الفنـاء هـو

مقدمة ما يسمونه بالبقاء.

فالباقي بالله، والذي يرى الأكون، ويصاحبها في الله أكمل من الذي فني عن الأكوان

وفي ذلك يقول ابن عطاء الله يعبر عن الحالين: (صاحب الحقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، فهو عبد مواجه بالحقيقة، ظاهر عليه سناها سالك للطريقة قد استولى على مداها، غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكره على صحوه وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره)

فهذه هي حال الفاني الذي شغله الله عن كل شيء، وهي حال شريفة، وصاحبها من الخواص، لكنه وإن كان كاملاً بالنسبة لأهل الغفلة ناقص بالنسبة لخواص الخواص الذين جمعوا بين الأمرين وهم أهل المعرفة.

فلذا قال ابن عطاء الله معقبا على أوصاف الفاني: (غير أنه غريق الأنوار) قد غرق في بحار التوحيد والأحدية (مطموس الآثار) قد طمست بصيرته عن النظر إلى الآثار والعبيد، (قد غلب سكره) وعدم إحساسه بالآثار على صحوه وهو إحساسه بها، وهو رؤية الحق وحده على فرقه، وهو رؤية الحق والخلق، فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق.

أما الباقي، فحاله أكمل، قال ابن عطاء الله بعد ذكره لحال الفاني:(وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً، وغاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطي كل ذي قسط قسطه ويوفي كل ذي حق حقه)

فهذا العارف الباقي بربه قد جمع بين المزيتين، (فباطنه مكمل بالحقيقة، وظاهره مجمل بالشريعة، فيشكر الخلق والحق لا يغيب عن الحق في حال مخالطة الخلق، ليعطي كل ذي قسط قسطه)

وقد جمع ابن عطاء اللـه حـال السـالكين والواصـلين في قوله:(من عـرف الحـق شـهده في كـل شـيء، ومن فني به غاب عن كل شيء)

فالعارف في حال البقاء يـرى الخلـق والحـق، فـيرى الحق تعالى ظاهراً في كل الأشـياء وقائمـاً بهـا، مـع عـدم غيبتـه عن نفسـه وحسـه، بخلاف الفـاني عن نفسـه وعن الأكـوان، فإنـه لا يـرى في الوجـود ظـاهراً إلا اللـه تعـالى، ويغيب عن كل شيء سواه حتى عن نفسه وحسه.

والعـارفون يشـيرون بالبقـاء، الـذي هـو العـودة إلى الكون إلى استيقاظ الفاني من حـال الفنـاء والاصـطلام.. إلى حال الصحو والتحقيق، وهي مـراتب قـد يمـر ببعضـها السالك، وقد يتجاوزها إلى مقامـات أرفـع وأعلى من غـير أن يمر عليها.

ويعبرون بها عن بقاء الكون بالله، فالبقاء هو الـدوام، واستمرار الوجود.

3 ـ القراءة:

بعـد أن يمحى الكـون اللاموجـود ــ المؤسـس على الـوهم ــ في ذهن العـارف ووجدانـه، ثم يعـود من جديـد بخلعة أخـرى، هي خلعـة الانتسـاب للـه، فيعـود لـه البقـاء باسـم اللـه، يتحـول إلى كتـاب يقـرؤه العـارف لـيرى من خلاله صفات ربه وكمالاته.

فـالكون المقـروء هـو المرحلـة الثالثـة من علاقـة العارفين بالكون، أو هو المرحلة الأولى للعرفان.

فالعارف هو الذي لديه القدرة على حل رموز الكون، أو هو الخبير الذي لديه المفـاتيح الـتي يفـك بهـا الشـيفرة التي يختزنها الكون، أو هو صاحب البصيرة الـذي يـرى مـا يخبأ بين سطور الكون.

ولهذا كان أول ما أمر به رسول الله ﷺ، بل ما أمرت به أمته ـ كما يشير العارفون ـ هـو أن تعـاد قـراءة الكـون باسم الله، كما قال تعـالى: اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ

(العلق:1)، فالآية تحتمل من حيث الإشارة أن يكون اسم الموصول مفعولا به، ويصير المعنى حينئذ (اقرأ باسم ربك الأشياء التي خلقها)

والقرآن الكريم مليئ بهذا المعنى مما قد لا يحوجنا إلى هذا المعنى الإشاري الذي يفهمه العارفون، بل فيه الدلالة على كيفية قراءة الكون باسم الله.

فالله تعالى يأمرنا بقراء الرحمة الإلهية من خلال حياة الأرض بعد موتها، قال تعالى: فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (الروم: 50)

ويأمرنا بالاستبشار تفاؤلا بفضل الله، وفرحا بالله، وتنسما لرحمة الله عند هبوب الرياح التي يرسلها الله، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (لأعراف:57)

ويعلمنا أن نقرأ لطف الله وخبرته المحيطة بكل شي من خلال حروف الماء الساقطة على الأرض المخضرة، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (الحج:63)

ويعلمنا أن نقرأ علم الله وقدرته من خلال السطور المبثوثة في تقلب الزمان بأعمارنا، قال: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (النحل:70)

ويرينا قوة الله القاهرة، وقدرته الشاملة باستعراض تفاصيل دقيق المكونات وجليلها:

فالسموات التي ننبهر لضخامتها لا تعدو أن تكون شيئا حقيرا جدا أمام عظمة الله، قال تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:67)

والقرآن الكـريم يرشـدنا من خلال هـذه الآيـة إلى أن سبب الجهل بقدر الله هو عدم قراءة الكـون باسـم اللـه، فهـؤلاء نظـروا إلى عظم السـموات والأرض غـافلين عن خالقهما.

وليس من الغريب لهـذا أن تحـوي سـيدة آي القـرآن الكريم(1) الحديث عن خلـق اللـه لتسـتدل بـه على اللـه، قال تعالى:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقـرة: 255)

فالآية الكريمة تدلنا على طريق العبور من السـموات والأرض إلى الحي القيوم، لأنه لا يكون هذا الإبداع العظيم في هذا الخلق العظيم إلا بحياة المبدع وقيوميته، فالتوازن والتكامل والبقاء في المخلوقات دليل قيام خالقها بها.

ومن هـذه الأبـواب الـتي يفتحهـا لنـا القـرآن الكـريم للتعرف على الله من خلال كتاب الكـون مـا ورد فيـه من استدلالات على البعث، فهي ـ عند التأمل ـ أدلة على اللـه أكثر من دلالتها على البعث.

وهي تدل على اللـه قبـل البعث، لأن الأسـاس الـذي أوقع الدهريين والمنكرين للبعث هو اعتقـادهم بالاسـتحالة العقلية لعودة العظم الرميم للحياة، كما قال تعالى ضـاربا المثـل ببعضـهم:﴿ وَضَـرَبَ لَنَـا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يّـس:78)

والقـرآن الكـريم ــ لينفي هـذه الشـبهة، ويرفـع هـذا الالتباس ـ لا يتكلف كلاما عقليا جافا كالكلام الـذي يتعمـده

---

1) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:(يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتـاب الله معك أعظم؟)، قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (يا أبـا المنـذر أتـدري أي آيـة من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (البقـرة: من الآية 255)، فضرب في صدري وقال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر) رواه مسلم.

الفلاسفة، بل يكتفي بأمرنا برفع أبصارنا وحواسنا للنظر إلى الأرض الخاشعة كيف تتحول بالماء الرباني إلى جنة من جنان الحياة، قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فصلت: 39)، وقال تعالى: وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (الزخرف:11)، وقال تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (فاطر:9)

أو يرشدهم إلى استعادة تذكر ما سبق من النشأة الأولى، قال تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (يّس:79)

ويخاطب الذين قالوا ــ مغترين بما لديهم من المعارف ـ: أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (الاسراء: 49)، بأمرهم بأن يتحولوا إلى أي شيء شاءوا مما يتعتقدون قوته: قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ (الاسراء: 50-51)، فإذا بقيت حيرتهم حينها ويقولون: مَن يُعِيدُنَا، فإن الجواب القرآني يكتفي بتذكيرهم بالنظر إلى مبدأ خلقهم، قال تعالى: قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وحينذاك يبدل هؤلاء الغافلون عن كنوز المعارف المخبأة في السموات والأرض الموضوع، فيسألون عن موعد ما لا يؤمنون به،وكأن عدم تحديد الموعد هو الدليل على ما ينكونه، قال تعالى:فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً (الاسراء: 51)

أما صعوبة تحقيق ذلك، فالقرآن الكريم يدل عليه بالنظر في السموات والأرض، فيستدل بالقدرة على النشأة الثانية بقدرته تعالى على النشأة الأولى، قال تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (يّس:81)

فكل شيء يسير على الله، والكون كله يدل على ذلك اليسر، قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (العنكبوت:19)، وقال تعالى: أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (قّ:15)

ويرد على غلاظ القلوب من بني إسرائيل الذي صورت لهم عقولهم الغارقة في أوحال المادة أن الله ـ تعالى عما يقولون ـ يلحقه العياء، فرد عليهم تعالى في قوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الاحقاف:33)

وهذه النظرة العرفانية لسطور المكونات تكسبها من الجمال ما لا يكسبها أي وصف بشري، فلا مقارنة بين من يرى ذات الزهرة التي سرعان ما تذبل، فيحزن لذبولها بقدر ما سره تفتحها، وبين من يرى في ابتسام الزهرة لطف الله ورحمته وجماله.

وقد ذكر النورسي الفرق في آثار النظرة العرفانية والناظرة الغافلة للكون بقوله:(ثم إن الإيمان أراني بفضل أسرار القرآن الكريم أراني أحوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم - كما ظنّ في بادئ الأمر - بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية قد أتمّت مهامها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين)(1)

وشبه عبور المؤمن للكون الحسي الذي يستوي في النظر إليه العارف والغافل، بالنظر إلى المرآة، فهي من حيث أنها زجاجة، نرى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينما إن كان القصد من النظر الى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح

1) اللمعة السادسة والعشرون (رسالة الشيوخ)

أمامنا بينما يبقى زجاج المرآة أمراً ثانوياً.

وقد وضع اصطلاحين لذلك، ليوضح من خلالها النظرة القرآنيــة العرفانيــة للكــون، اســتفادهما من اصــطلاحات النحويين هما (المعنى الاسمي للكون، والمعـنى الحـرفي له، فالاسم ما دل على معنى في نفسه، أما الحـرف فهـو الذي: دلّ على معنى في غيره.

والنظـرة القرآنيــة الإيمانيــة إلى الموجـودات تجعلهـا جميعا حروفاً، تعبّر عن معنى في غيرها، وهذا المعـنى هـو تجليات الاسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

وكما أن الكون من حيث صورته المادية يحتــوي على عناصـر محـددة تتكـون منهـا جميـع أشـكال الموجـودات، ويسـمون الجـدول الـذي يحـوي هـذه العناصـر بالجـدول الدوري، فبمثل ذلك يتحدث العارفون عمـا يمكن تسـميته بالجدول الأسمائي للكون.

وهذا الجدول يستخلص صفات الله من خلال أشــكال المكونات وأنـواع واختلاف تـدبيرها، وقـد شـرح النورسـي بعض مـا يرتبـط بهـذا الجـدول بقولـه:(إن في كـل شـئ وجوهاً كثيرة جـداً متوجهـة - كالنوافـذ - الى اللـه سـبحانه وتعالى، بمضمون الآية الكريمة وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْدِهِ)(الاسراء: 44) إذ أن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند إلى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقـة كـل شــئ تســتند الى اســم من الاســماء أو إلى كثــير من الاسماء. وأن الاتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم من الأسماء) (1)

ويضرب بعض الأمثلة على ذلك بالعلوم الماديـة الـتي تنقلب بهــذه النظــرة إلى علــوم روحيــة، فعلم الحكمــة الحقيقي يســتند إلى اســم اللــه (الحكيم)، وعلم الطب يستند إلى اسم الله (الشافي)، وعلم الهندسة يسـتند إلى

1) الكلمة الثانية والثلاثون.

اسم الله (المقدّر)، وهكذا كل العلوم تستند الى الأسماء الحسنى تبدأ منها، وتنتهي إليها.

ولهذا اتفق العارفون على أن حقائق الأشياء، إنما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق..

قال الشيخ عبد السلام بن مشيش مخاطباً مريده الشيخ أبا الحسن الشاذلي في وصية له:(حدد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء، وعند كل شئ، وقبل كل شئ، وبعد كل شئ، وفوق كل شئ، وتحت كل شيء، قريباً من كل شئ، ومحيطاً بكل شئ، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو.. كان الله ولا شئ معه، وهو الآن على ما عليه كان)

وتشبيهنا القراءة الأسمائية للكون بالجدول الدوري للعناصر تشبيه من حيث الأسس التي يقوم عليها كليهما، فالكون من حيث تركيبه يتركب من تلك العناصر، ومن حيث أسسه يقوم على تلك الأسماء.

أما من حيث الكم والمحدودية، فالفرق كبير بينهما، فعناصر الكون المادية محدودة، ولكن حقائق الأسماء الحسنى المستندة للمكونات غير محدودة، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (لقمان:27) فلو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً وأمد بسبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات اللّه الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً.

ولم تذكر السبعة من باب الحصر، وكيف يحصر ما لا نهاية له، بل ذكرت على وجه المبالغة، كما قال تعالى:

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (الكهف: 109)

ولهذا يختلف العارفون المستمدون من بحار الكون في قراءة حروف الكون بحسب أحوالهم ومراتبهم، فما يدفع هذا إلى الرجاء قد يدفع الآخر إلى الخوف، لأن كل واحد منهم يلاحظ في كل حين ما لا يلاحظ الآخر، بل يلاحظ في الأوقات المختلفة المعارف المختلفة.

وكمثال على تقريب ذلك ــ وللـه المثل الأعلى ــ ما نقرؤه نحن من رؤية الدموع، فقد تعبر عن الفرح، وقد تعبر عن الحزن، وقد تعبر عن الخشوع الذي دعا إليه الرجاء، وقد تعبر عن الخشوع الذي دعا إليه الخوف.. وقد تعبر عن أشياء كثيرة لا يمكن حصرها.

ويشير إلى هذا المعنى ما أخبر به رسول اللـه ﷺ من أحوال القيامة وأهوالها، حيث (يجمع اللّه الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون)

في ذلك الموقف يقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟

فيبدأون بآدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك اللّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيذهبون إلى نوح عليه السلام، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك اللّه عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد

بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

وهكذا يذهبون إلى إبراهيم عليه السلام، فيقول:(إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى)

فيقول موسى عليه السلام:(إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى)

فيقول عيسى عليه السلام:(إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمداً ﷺ)

فيأتون محمداً ﷺ، فيقولون: يا محمد أنت رسول اللّه وخاتم الأنبياء، وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟

قال ﷺ في بيان ما يفعل ذلك اليوم:(فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عزَّ وجلَّ، ثم يفتح اللّه علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفه تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب؟ فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى)[1]

ففي هذا الحديث إشارات جليلة إلى القراءات

1) رواه البخاري ومسلم.

المختلفة لأفعال الله، فبينما اقتصر نظر الأنبياء عليهم السلام ـ مع جلالتهم ــ في ذلك الحين ومع تلك الأهوال على النظر إلى غضب الله عرف رسول الله ﷺ أن ذلك الغضب يحمل معاني الرحمة الأزلية، فقرأ رحمة الله من خلال مظاهر الغضب، كما نقرأ رحمة الله بالغيث مع دوي الرعد.

وفي قوله ﷺ:(ثم يفتح اللّه علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي) دليل على عدم انحصار المعارف الإلهية.

وقد كانت هذه المعارف هي الحادي الذي حدا بيعقوب عليه السلام إلى الطمأنينة لأمر الله، قال تعالى في حكاية ما كان يقوله لهم قبل رجوع يوسف عليه السلام: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: 96)

ويروي المفسرون عن حنة امرأة عمران، أنها كانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتهت الولد فدعت اللّه تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب اللّه دعاءها.

فكانت قراءتها لرحمة الله التي وهبت ذلك الطائر فرخه هي السر الذي ألهمها أن تدعو الله.

وكأن الله تعالى يبين من خلال المكونات قدراته المختلفة ووجوه تدبيره، لنفتقر إليه كما يفتقر إليه كل شيء.

فالتجليات التي تحملها المكونات لا نهاية لها، وكل واحد يقرأ بحسب استعداده ومرتبته وهمته، وسنذكر هنا بعض قراءات العارفين، ولكن قبل ذلك، وللاستشهاد على بعض ما تحمله المكونات من حقائق الأسماء الحسنى، نستشهد بذلك العارف بالله الذي آوته الجبال والغابات أياما طويلة من عمره الإمام بديع الزمان النوسي، الذي جعل من رسائل النور مفاتيح لقراءة حروف الكون.

فقد ذكر أنه يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسماً

من الأسماء على ظاهر كـل ذي حيـاة فحسـب، ولتقـريب هذه الحقيقة الدقيقة والعظيمة الواسعة، استشهد بالمثال التالي، والذي نتصرف فيه من باب مراعاة الاختصار بعض التصرف.

فذكر أنه لو أراد فنان بارع في التصوير والنحت رسم صورة زهرة فائقة الجمال، أو نحت تمثال بديع، فإنـه يبـدأ أول ما يبدأ بتعيين بعض خطوط الشكل العام لهمـا، وهـذا التعـيين يتم بتنظيم، ويعملـه بتقـدير يسـتند فيـه إلى علم الهندسـة، فيعيّن الحـدود وفقـه بعلم وبحكمـة، لـذا تحكُم معاني العلم والحكمة وراءَ التنظيم والتحديد.

ثم إن تلك الاعضاء الـتي عُيّنت وفـق العلم والحكمـة أخذت صيغة الصنعة المتقنـة والعنايـة الدقيقـة، لـذا تحكمُ معاني الصنع والعناية وراء العلم والحكمة.

وقابلية الحسن والزينة في الظهور يدل على أن الذي يحرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصـد التزيين، فهما إذن يحكمان من وراء الصنعة والعناية.

وعنـدما يبـدأ الفنـان بإضـفاء حالـة التبسـم لتمثالـه، وشرع بمنح أوضاع حياتية لصـورة الزهـرة، يكـون قـد بـدأ بفعلَي التزيين والتنوير، ويحركهما معنيا اللطف والكرم.

وهكذا.. يحرك معاني الكـرم واللطـف، ومـا وراءهمـا معاني التودد والتعرف، أي تعريـف نفسـه بمهارتـه وفنـه، وتحبيبها الى الآخرين.

وهذا التعريف والتحبيب آتيان من الميـل إلى الرحمـة وإرادة النعمة.

ومعاني الترحم والتحنن هذه، لا يسوقهما الى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غير ما في ذاته من جمال معنوي وكمال معنوي يريدان الظهور، فأجمل ما في ذلـك الجمال، وهو المحبة، وألذ ما فيه وهـو الرحمـة، كـل منهـا يريد إراءة نفسه بمرآة الصنعة، ويريد رؤيـة نفسـه بعيـون المشتاقين.

فالجمال والكمال محبوب لذاتـه، (يحب نفسـه أكـثر من أي شـئ آخـر، حيث أنـه حُسـن وعشـق في الـوقت نفسه، فاتحاد الحسن والعشق آتٍ من هذه النقطة.. ولما كان الجمال يحب نفسه، فلابـد أنـه يريـد رؤيـة نفسـه في المرايــا، فــالنعم الموضــوعة على التمثــال، والثمــرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعةً براقة من ذلك الجمــال المعنــوي - كــل حســب قابليتــه - فتُظهــر تلــك اللمعــات الســاطعة نفســها الى صــاحب الجمــال، والى الآخرين معاً)[1]

فعلى منوال هذا المثال الذي أورده بـديع الزمـان تتم قراءة العارف للكون، وللأسماء الحسـنى الـتي تتجلى في مرآته، قال النورسي:(وعلى غرار هذا المثال الـذي ينظم الصــانع الحكيم ــ وللــه المثــل الاعلى ــ الجنــة والــدنيا والسـموات والارض والنباتـات والحيوانـات والجن والانس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سبحانه جميـع الأشياء كليّهـا وجزئيهـا.. ينظمهـا جميعـاً بتجليـات أسـمائه الحسـنى ويعطي لكـل منهـا مقـداراً معينـاً حـتى يجعلـه يستقرىء اسم:المقدر، المنظم، المصور) [2]

ففي النظر إلى زهرة واحـدة جميلـة صـحائف كثـيرة جداً من صحائف التعرف على الله:

فصحيفة هيئة الشئ التي تبين شكله العام ومقـداره، تلهج باسماء: يا مصور يا مقدر يا منظم.

وصحيفة صور الاعضاء المتباينة المنكشفة ضمن تلك الهيئــة البســيطة للزهــرة، أســماء كثــيرة أمثــال: العليم، الحكيم.

وصــحيفة إضــفاء الحســن والزينــة على الأعضــاء المتباينة بأنماط متنوعة من الحسن والزينة تكتب في تلك الصحيفة أسماء كثيرة من امثال: الصانع، البارئ.

---

1) الكلمة الثانية والثلاثون.
2) الكلمة الثانية والثلاثون.

وصحيفة الزينة والحسن البديع الموهوبان لتلك الزهرة تقرأ اسماء كثيرة امثال: يا لطيف. يا كريم.

وصحيفة تعليق ثمرات لذيذة على تلك الزهرة يجعلان تلك الصحيفة، تستقرئ اسماء كثيرةً أمثال: يا ودود يا رحيم يا منعم.

وصحيفة الإنعام والإحسان تقرأ أسماء أمثال: يا رحمن يا حنان.

وصحيفة ظهور لمعات الحسن والجمال الواضحة في تلك النعم تكتب وتقرأ اسماء: يا جميل ذا الكمال يا كامل ذا الجمال.

فهذه زهرة واحدة تلهج بجميع هذه المعارف التي تحتوي من الأعماق ما لا حدود له، فإلى أي حد من السمو والكلية تستقرىء جميع الازهار، وجميع ذوي الحياة والموجودات الاسماء الحسنى الإلهية.

* * *

وهذه القراءة التي يتنعم بها العارفون لا تكون من طرف واحد، كما هي العادة في جميع كتب الدنيا.. حيث يكون الكتاب مفتوحا، وعين القارئ هي التي تكد لترى ما تنطق به الحروف.

فكتاب الله الذي يسمونه صامتا نطق عند العارفين.. فصاحت كل ذرة تعرفهم بحقيقتها وانتمائها..

يقول الغزالي:(بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون)(1)

واستدرك للذين لا يفهمون من العبارات إلا ظواهرها بقوله:(ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز

---

1) الإحياء.

الأصوات، فإنّ الحمار شريك فيه، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم، وإنما أريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي) (1)

وقد ذكر النورسي بعض ما يسمعه العارفون من هذه الأحاديث، فقال: إن كنت تريد أن تشاهد تلك الحقائق الرفيعة عن قرب، فاذهب إلى بحرٍ هائج، وإلى أرض مهتزة بالزلازل، وأسألهما: ما تقولان؟ ستسمع حتماً أنهما يناديان: يا جليل.. يا جليل.. يا عزيز.. يا جبار..

ثم اذهب إلى الفراخ والصغار من الحيوانات، التي تعيش في البحر أو على الارض، والتي تُربى في منتهى الشفقة والرحمة، وأسألها: ما تقولين؟ لابد أنها تترنم: يا جميل.. يا جميل.. يا رحيم.. يا رحيم.

ثم انصت الى السماء كيف تنادي: يا جليل ذو الجمال!

وأعر سمعك إلى الارض كيف تردد: يا جميل ذو الجلال.

وتصنّت للحيوانات كيف تقول: يا رحمن يا رزاق.

واسأل الربيع، فستسمع منه: يا حنان يا رحمن يا رحيم يا كريم يا لطيف يا عطوف يا مصوّر يا منوّر يا محسن يا مزيّن.. وأمثالها من الأسماء الكثيرة.

واسأل إنساناً هو حقاً إنسان وشاهد كيف يقرأ جميع الاسماء الحسنى، فهي مكتوبةٌ على جبهته، حتى اذا أنعمت النظر ستقرؤها أنت بنفسك.

وكأن الكون كله موسيقى متناغمة الالحان لذكر عظيم. فامتزاج أصغر نغمة وأوطئها مع أعظم نغمة وأعلاها ينتج لحناً لطيفاً مهيباً.. وقس على ذلك)(2)

وانطلاقا من هذه النظرة العرفانية يقبل العارف بالله على التعرف على خلق الله، فيبحث في جل العلوم

---

1) الإحياء.
2) الكلمة الرابعة والعشرون.

والمعارف بنشوة عظيمة، وهو يرى ما سطر فيها من كلمات الله.

وهكذا في الوقت الذي ينحجب فيه الغافل بالعلوم التي يطلقون عليها علوما مادية، يعرج من خلالها العارف إلى بحار معرفة الله، لتصبح في نظره علوم الروح والقلب والسر.

قال الغزالي عند بيانه لانشعاب العلوم المادية من القرآن الكريم:(ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال)(1)

ثم ذكر بعض النماذج عن ذلك بقوله:(فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام تعالى: واذا مرضت فهو يشفين ، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله، اذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه) (2)

ومن النماذج تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، والتي نص عليها قوله تعالى منبها إلى النظر فيهما: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (الأنعام: 96) وكل ما يرتبط بالفلك إلا (من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه)

ومثل ذلك تركيب الإنسان (فلا يعرف كمال معنى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ (الانفطار:6ـ 8) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها) (3)

* * *

1) جواهر القرآن.
2) جواهر القرآن.
3) جواهر القرآن.

قد يقال ـ هنا ـ فما الميزة التي يستحقها العارف دون العامي، وكلاهما يقرأ الكون، وكلاهما يفهم منه دلالته على الله.

وما الميزة التي يتميز بها العارف، والمتكلم يقرأمن صفحات الكون ما لا يقرؤه العارف، وعالم الطبيعة يعرف من معارف الكون ما لا يطلع عليه العارف.

وللجواب على ذلك نذكر ما تتميز به المعرفة عن العلم، فالعلم اكتشاف قد يدفع إليه الفضول، والمعرفة معايشة يدفع إليها الشوق والاحتراق.

ولهذا تختلف نظرة العارف عن العالم للأشياء، كما اختلفت نظرة يعقوب عليه السلام وأبنائه حول قميص يوسف.

فأبناء يعقوب عليه السلام لم يروا في قميص يوسف سوى خيوط متجمعة لا تختلف عن أي خيوط، بينما رأي يعقوب عليه السلام ـ المكتوي بنار العشق ـ في تلك الخيوط ابنه يوسف عليه السلام، بل إنه شم رائحته من بعيد، قال تعالى يحكي هذه المواقف المتناقضة نحو الشيء الواحد حاكيا قول يوسف عليه السلام: ﴿ {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95)﴾ (يوسف: 93 – 95)

وهذه الآيات الكريمة فيها إشارات جليلة ترتبط بذوق العارف، والتفريق بينه وبين ذوق العامي، فالقميص الذي يحمل رائحة يوسف عليه السلام كالكون الذي يحمل ختم خالقه ومبدعه، والعمى الذي وجده إخوة يوسف عليه السلام هو عمى العامي عن رؤية ذلك الختم، وعود البصر ليعقوب عليه السلام كعود البصيرة للعارف بعد اكتحاله برؤية الختم المطبوع على الأشياء.

فالأشياء واحدة، ولكن الشأن ليس في وحدة الأشياء، وإنما في النظر إلى الأشياء والمواقف من الأشياء.

فالفرق جليل بين من يوحد الله بنفي غير اللــه، وبين من يوحده بالإثبات المحض، فلا يرى غيرا يحتاج إلى نفيه.

وفرق كبير بين من يرى الكون قائما بذاتــه، وبين من يراه ظلمة لولا نور الله، كما قال ابن عطاء اللــه:(الكــونُ كلُّه ظُلْمةٌ، وإنَّما أَنارَهُ ظهورُ الحـقِّ فيـه، فمن رأى الكـونَ ولم يشهدُهُ فيه أو عنده أو قَبْلَه أو بَعْدَه فقد أَعْـوَزَهُ وجـودُ الأنوارِ، وحُجبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بسُحُبِ الآثار)

وفرق كبير بين النظر الإيماني إلى المكونات والنظــر الطبيعي، فالنظرة واحدة ولكن القلب المستقبل للنظــرة مختلف، كالأرض تسقى بمطر واحد لكن بعضها ينتج زهرا والآخـر شـوكا،: يُسْـقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (الرعد: 4)

وقد ذكر الغزالي الفـرق بين الرؤيـتين رؤيــة الموحـد ورؤية الطبيعي بقوله:(وكل ما نظرنا فيه فـإن الطبــيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضـلاله وشـقاوته، والموفــق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسـعادته. ومـا من ذرّة في السـماء والأرض إلا واللــه سـبحانه وتعـالى يضـل بهـا من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هـذه الأمـور من حيث إنها فعل اللــه تعـالى وصـنعه اسـتفاد منـه المعرفــة بجلال اللــه تعـالى وعظمتـه واهتـدى بـه، ومن نظـر فيهـا قاصراً للنظر عليها من حيث تـأثير بعضـها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وارتد) (1)

وقد ذكر النورسـي الفـرق بين الرؤيـتين بتفريقــه بين توحيدين:

توحيد العامي الذي يقول:(لاشريك لــه، ليسـت هـذه الكائنات لغيره)، وهذا يكون عرضــة لتـداخل الغفلات، بـل الضلالات في أفكار صاحبه.

وتوحيد حقيقي، هو توحيد العـارف الـذي يقـول:(هـو الله وحدَه له الملك، وله الكون، له كل شئ) فيرى سـكتّه

1) الإحياء.

على كل شئ، ويقرأ خاتمه على كل شئ، فيثبته لـه اثباتـاً حضورياً.

ومثل هذه التوحيد، ومثل هـذه الرؤيـة لايمكن تـداخل الضلالة والاوهام فيها أبدا(1).

ولتقريب الصورة للأذهان نذكر هذا المثال الذي أبــدع فيه بديع الزمان أيما إبداع فقـد ذكـر أن حاكمـا عظيمـا ذا تقــوى وصــلاح وذا مهــارة وإبــداع أراد أن يكتب القــرآن الحكيم كتابة تليق بقدسية معانيه الجليلـة، فـأراد أن يُلبِس القــرآن الكــريم مــا يناســب إعجــازه الســامي من ثــوب قشيب خارق مثله.

فبدأ بكتابة القرآن الكريم كتابة عجيبة جـداً مسـتعملاً جميع أنواع الجواهر النفيسة ليشير بهـا إلى تنـوع حقائقـه العظيمة، فكتب بعض حروفه المجسمة بالالماس والزمرد وقسـماً منهـا بـاللؤلؤ والمرجـان وطائفـة منهـا بـالجوهر والعقيق، ونوعاً منها بالذهب والفضة، حـتى أضـفى جمـالاً رائعاً وحسناً جالباً للانظار يعجب بهـا كـل من يراهـا سـواء أعلم القراءة أم جهلها.

ثم عرض هذا القرآن البـديع الكتابـة، الرائـع الجمـال، على فيلسـوف أجنـبي ــ ونحن نشـير بـه هنـا إلى النظـر السطحي للعامي ـ وعلى عالم مسلم. وأمرهما بأن يكتب كل منكما كتاباً حول حكمة هذا القرآن.

فكتب الفيلسوف كتاباً، وكتب العالم المسلم كتاباً.

أما كتاب الفيلسوف، فاقتصر على البحث عن نقوش الحروف وجمالها، وعلاقة بعضها ببعض، وأوضاع كل منهـا، وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها، ولم يتعرض في كتابه إلى معاني ذلك القرآن العظيم قط، بل لم يدرك أن ذلـك القرآن البديع هو كتاب عظيم تنم حروفه عن معان جليلة، وإنما حصر نظره في روعة حروفه وجمالها الخارق.

ومع هذا فهو مهندس بارع، ومصـور فنـان، وكيميـائي

1) المثنوي العربي النوري.

حاذق، وصائغ ماهر، لذا فقد كتب كتابه هذا وفق ما يتقنه من مهارات ويجيده من فنون.

أما العالم المسلم ـ ونحن نشير به هنا إلى العارف ـ فما إن نظر إلى تلك الكتابة البديعة حتى علم أنه: كتاب مبين وقرآن حكيم، فلم يصرف اهتمامه الى زينته الظاهرة، ولا أشغل نفسه بزخارف حروفه البديعة، وانما توجه كلياً ـ وهو التواق للحق ــ الى ما هو أسمى وأثمن وألطف وأشرف وأنفع وأشمل مما انشغل به الفيلسوف الاجنبي بملايين الاضعاف، فبحث عما تحت تلك النقوش الجميلة من حقائق سامية جليلة وأسرار نيرة بديعة، فكتب كتابه تفسيراً قيماً لهذا القرآن الحكيم، فأجاد وأتقن.

والنورسي يشير بالقرآن الجميل الزاهي إلى هذا الكون البديع، وبالحاكم المهيب إلى سلطان الازل والابد تعالى، أما الرجلان، فالأول هو العامي ولو كان عالما بالعلوم القديمة والحديثة، وأما الآخر، فهو العارف الذي تتلمذ على أنوار القرآن الكريم.

فالفرق كبير بين الرؤيتين، فالعارف ينظر إلى الكون ـ كما يقرأ القرآن الكريم ــ فـ (ينظر الى الموجودات - التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر اليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل)، وهذا النظر هو الذي يكشف الجمالَ الحقيقي للكائنات.

أما العلم المجرد عن المعرفة فهو غارق في تزيينات حروف الموجودات، مبهوت أمام علاقات بعضها ببعض،، قد انصرف عن النظر عن قراءة حروف الكون الدالة على كاتبها، فإذا رأى شيئا من جمال الكائنات قال:(ما أجمل هذا) بدلاً من:(ما أجمل خلق هذا)[1]

1) الكلمة الثانية عشرة.

***

ولأهمية هذا النوع من القراءة الكونية، ولعلاقته الوثيقة بالإيمان، بل بأرفع درجات الإيمان يثني القرآن الكريم على المؤمنين الذين أمضوا حياتهم في قراءة رسائل الله إليهم عبر مكوناته.

وأول هؤلاء، وعلى رأسهم العارفون الذين يعبر عنهم القرآن الكريم بأولي الألباب(1)، وهم الذين خرجوا من ظواهر المكونات إلى بواطنها، ولم تحجبهم الصور المزخرفة للمكونات عن الحروف المسجلة فيها.

ولعل أعظم وصف قرآني لهم هو ما ورد في أواخر سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران:191)

وقد كان لهذه الآيات محل خاص من قلب رسول الله ﷺ كما تروي كتب السنة، فقد روي أن رسول اللّه ﷺ كان يقرأ هذه الآيات وما يليها من آخر سورة آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، قال ابن عباس: بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول اللّه ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران:190) الآيات، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح (2).

وفي هذه الآيات برهان جلي على الأثر الذي تتركه القراءة الإيمانية لحروف المكونات، فالقرآن الكريم قدم الفكر على الذكر، وقدم القراءة على التسبيح، ثم ذكر أن

1) نرى أن القرآن الكريم يعبر عن العارفين بمصطلح أولي الألباب.
2) أصل الحديث رواه البخاري ومسلم.

أول ما يقوله هؤلاء العارفون، أو أول ما يقرؤونه هو أن هذا الخلق العظيم لم يخلق عبثا.

ومن العبثية أن نقصر دلالة كل المكونات على مجرد احتياجها إلى خالق، ثم لا نرحل من ذلك إلى التعرف على هذا الخالق الذي دلت على وجوده هذه المكونات.

وهؤلاء العارفون الذين يخبرنا القرآن الكريم عن أحوالهم بمجرد امتلاء قلوبهم بالمعاني التي يدل عليها الكون انفجرت ألسنتهم بدعاء الله ومناجاته، وكأنهم رأو الكون، وهو يمد يديه بالافتقار والاضطرار إلى الله، فمدوا أيديهم معه.

وكل ما ورد من أدعيتهم يدل على قراءة متأنية عميقة لحروف المكونات.

ومن الآيات المتحدثة عن هذا الصنف قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (الزمر: 21)

ونلاحظ هنا كذلك أن هؤلاء العارفين لا يقتصرون على النظر إلى المكونات، بل يبحثون في حركاتها وسكناتها وعجيب ما يحدث لها من التحولات، ليتعرفوا من خلال ذلك على الله، وكأن الحسين كان ينظر من مشكاة هذه الآية عندما قال في مناجاته:(إلهي! قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك أن تتعرف إلي في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء)

ويلي هؤلاء ــ الذين تعمقوا في معرفة الله نتيجة تعمقهم في معرفة الكون ــ أصحاب العقول الراجحة الذين يمدون أبصارهم لتأمل جميع المكونات في البر والبحر والسماء والأرض، قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ

مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ (البقرة:164)

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة التفصيل في ذكر أنواع المكونات، ثم الإخبار بأن هذه الآيات خاصة بالذين يعقلون، وفي ذلك إشارة إلى الفريق الثاني ممن يستفيدون من آيات الله، وهم الذين يستعملون عقولهم في الاستدلال على الخالق، وقد مثل هؤلاء علماء التوحيد والكلام، بخلاف الآيات السابقة التي عبرت عن العقل باللب.

ومثل هذه الآية ما ورد من تفاصيل قد لا يدرك أكثرها إلا العلماء المختصون، والمعبر عنهم في القرآن الكريم بالذين يعقلون، قال تعالى:﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد:4)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون صنف المفكرين، وهم الذين يمزجون بين الرؤى المختلفة للكون ليستنتجوا منها المعارف الإلهية، قال تعالى عنهم:﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(3) ﴿ (الرعد: 3)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون أصحاب الحواس المرهفة، أو الذين شفت حواسهم لتدرك ما يختزن الظاهر من حقائق الباطن، قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(67)﴾ (يونس: 67)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون العلماء، قال تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:22)

وقد قصر الخشية من الله على هؤلاء، قال تعالى بعد تعداد آيات الكون: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:28)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون المؤمنون، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:99)

ومن هذه الأصناف القارئة المنيبون والمتقون، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (غافر:13)

ومنهم العابدون الموحدون، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت:37)

ومنهم الشاكرون الحامدون، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص:73)

وقد يجمع القرآن الكريم بين هذه الأصناف في نسق واحد، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ(3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(5) ﴾ (الجاثية)

ونرى أن التأمل والتعمق في فواصل هذه الآيات يكشف عن معارف جليلة ترتبط بهذه الأصناف، ونوع المكونات التي تتأملها، وطريقة تأملها، وهو تصنيف أساسي له علاقة كبيرة بالسلوك، وقد نتحدث عنه في

المناسبات المرتبطة به.

ولهذه الأصناف جميعا ورد قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: 53)، فهذه الآيات موجهة لهؤلاء، أو هي بعبارة أخرى موجهة لجميع الناس، ولكن لا يستفيد منها غير هؤلاء.

أما غيرهم من المعرضين عن آيات الله الذين يقصرون نظرهم على شهواتهم، فلا يرون في الكون غير سوق لتغذية هذه الشهوات، فالقرآن الكريم يضعهم في صنف المعرضين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الإنبياء:32)، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف:105)

وهؤلاء هم الأميون في عالم الحقائق، وإن قرأو جميع حروف العالم، وحللوا جميع لغاته، فالعجب كل العجب ـ كما يقول الغزالي ـ ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته؟)[1]

4 ـ اليقين:

بعد القراءات المتواصلة للحروف التي تبرزها المكونات، والمعاني التي ترسمها رسائلها الإلهية يطل العارف على واحة اليقين، كما يطل الظمآن على مورد الماء العذب الذي يسد له كل ظمأ، ويطفئ له كل حرقة.. فاليقين هو الغاية التي يصل إليها العارف بعد قراءته المتواصلة لسطور الكون.

---

1) الإحياء.

ولهذا اعتبر القرآن الكريم تفصيل الآيات وتعديدها علة لليقين وطريقا إليه، فقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد:2)

ولأجل هذه القيمة التي يحتلها اليقين في سلم السير إلى الله اعتبره القرآن الكريم غاية الغايات، فقال: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:99)

واعتبر الغاية التي قصدت من إشهاد إبراهيم عليه السلام لملكوت السموات والأرض هي وصوله إلى درجة اليقين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:75)

فطريق اليقين الذي تحقق به إبراهيم عليه السلام هو ما رآه من ملكوت السموات والأرض، والقرآن الكريم يعبر عن رؤيته بـ ﴿ نُرِي ﴾، وفي ذلك إشارة إلى أن رؤية إبراهيم عليه السلام كانت رؤية بالله، لا بنفسه، أي أنه صار باقيا بالله بعد أن فنى عن نفسه.

ويحكي القرآن الكريم بعض ما أريه إبراهيم عليه السلام وما قرأه، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام:76)، ثم رأى القمر بازغا، ﴿ قالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: 77))، ثم رأى الشمس بازغة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 78)

والكثير قد يتصور أن ما ذكره إبراهيم عليه السلام هو من باب التمثيل والاحتيال لإرشاد قومه، ونحن لا ننكر هذا، ولا ننكر كذلك أن الله تعالى يصف لنا الطريق الذي سلكه إبراهيم عليه السلام للوصول إلى الله، لا إلى اعتقاد وجوده أو تفرده بالألوهية فحسب، وإنما إلى معان أخرى أعمق وأجل.

ولا يـرد على ذلـك مـا ذكـره من ربوبيـة الأشـياء، فالربوبية غير الألوهية، وقد قال تعـالى حاكيـا عن يوسـف عليه السلام: ﴿ وَقَـالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَـاجٍ مِنْهُمَـا اذْكُـرْنِي عِنْـدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْـرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّـجْنِ بِضْـعَ سِـنِينَ﴾ (يوسف:42)، ولهذا لم يقل إبراهيم عليه السلام:(هـذا إلهي)، بـل قال:﴿ هَـذَا رَبِّي ﴾، فلعـل مـراده هنـا هـو مـا اعتقـده من منافع الأشياء، فلما أفلت تبين له عجزها، وأن اللـه تعـالى هو المتفرد بالنفع والضر(1).

ولأجل هـذا المحـل الرفيـع لليقين في سـلم الطريـق إلى الله أخبر اللـه أن أئمـة الهـدى العـارفين باللـه الـذين جعلهم اللـه نجومـا لهدايـة الخلـق هم الـذين زاوجـوا بين الصبر واليقين، أو المجاهدة والمعرفة قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَـا لَمَّا صَـبَرُوا وَكَـانُوا بِآيَاتِنَـا يُوقِنُـونَ﴾ (السجدة:24)

وآيات الله بأنواعها المختلفة لا يفهمها ولا يصـدقها ولا يقدرها حق قـدرها سـوى الموقـنين، قـال تعـالى:﴿ وَقَـالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:118)

ومن هـذه الآيـات آيـات اللـه الكونيـة المتجليـة في الأرض، قـال تعـالى:﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَـاتٌ لِلْمُـوقِنِينَ﴾ (الذريات:20)، أو المتجلي في الإنسان والكائنـات الحيـة، قـال تعـالى:﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَـا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَـاتٌ لِقَـوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:4)، فكـل هـذه الآيـات لا يـدركها سـوى الموقنين.

---

1) وقد أول بعضهم ذلك، فذكر أن المراد منه درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل عليه السلام في ترقيه، ففسر الكوكب بأنه وصل إلى حجاب من حجب النور فعبر عنـه بـالكوكب، ولم يـرد هـذه الأجسـام المضـيئة، فـإن آحـاد العـوام لا يخفى عليهم أن الربوبيـة لا تليـق بالأجسام بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليـل عليه السلام، انظـر: الإحياء:1/337، وهو تأويـل بعيـد حكـاه الغـزالي عن بعضـهم، فلا يصـح أن نعـدل بألفـاظ القرآن الكريم عن دلالاتها الظـاهرة، إلا أن يكـون ذلـك من بـاب الإشـارة، فلا حـرج فيـه بشرط الإقرار بظاهر المعنى.

ومثل ذلك آيات الله المستقبلية المرتبطة بمصير الإنسان أومصير الأرض لا يؤمن بها غير الموقنين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:82)

وحقائق القرآن التي هي بصائر البصائر لا يراها ولا يعرفها ولا يهتدي بها ويرحم غير الموقنين، قال تعالى: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: 20)

والمعارف المرتبطة بالله لا يفهمها، أو يذعن لها، أو يستشعر سموها سوى الموقنين، قال تعالى: ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الدخان:7)

وأحكام اللهَ لا يدرك حكمها، ويستكنه أسرارها، ويعرف وجوه المنافع والمصالح فيها سوى الموقنين، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:50)، والآية تشير إلى أن إدراك الحسن المتغلغل في ثنايا الأحكام لا يقلب صفحاته سوى الموقنين، ولعله لأجل هذا لم يتصد للبحث في أسرار الشريعة ومقاصدها سوى من جمعوا بين العلم والتقوى، أو بين اليقين والإرادة.

ولهذا كان ﷺ يرغبنا في أن نسأل الله اليقين معتبرا إياه خيرا من العافية، وكيف لا يكون كذلك، وهو عافية القلب، قال ﷺ:(عليكم بالصدق، فإنه مع البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور، وهما في النار، وسلوا الله اليقين والمعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله) [1]

وفي هذا الحديث إشارة صريحة بأن اليقين من المواهب الربانية التي تتنزل على من تحقق بأسبابها، فأسباب اليقين كسبية وحقيقته وهبية.

1) رواه أحمد والبخاري في الأدب وابن ماجة.

وقد كان ﷺ يعلمنا أن نـدعو اللـه بـأن يرزقنـا اليقين، كهذا الدعاء الشـامل الجـامع الخاشـع:(اللهم إني أسـألك رحمة من عندك تهدي بها قلـبي، وتجمـع بهـا أمـري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفـع بهـا شـاهدي، وتـذكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصـمني بها من كل سـوء، اللهم أعطـني إيمانـا ويقينـا ليس بعـده كفر، ورحمة أنال بهـا شـرف كرامتـك في الـدنيا والآخـرة اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننـا وبين معاصـيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهون علينـا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنـا، واجعله الوارث منا؛ واجعل ثأرنا على من ظلمنـا، وانصـرنا على من عادانـا، ولا تجعـل مصـيبتنا في ديننـا، ولا تجعـل الـدنيا أكـبر همنـا ولا مبلـغ علمنـا، ولا تسـلط علينـا من لا يرحمنا)(1)

فالرسـول ﷺ يشـير في هـذا الـدعاء الجـامع إلى أن اليقين هو قاتل الكفر، فيستحيل على من بلغ درجة اليقين أن يتحول إلى الكفر، وأن اليقين كذلك قاتل الأحزان، فهو الذي يهون مصائب الدنيا ويرفـع آلامهـا، كمـا قـال ﷺ:(لا ترضين أحدا بسخط الله ولا تحمدن أحدا على فضـل اللـه ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك اللـه فـإن مـا رزق اللـه لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره وإن اللـه بعدلـه وقسـطه جعـل الـروح والفـرح في الرضـى واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)(2)

وقد أخبر ﷺ أن الأجور المعدة للأعمال متوقفـة على اليقين قال ﷺ:(إن اللـه تعـالى قـد افـترض عليكم صـوم رمضـان، وسـننت لكم قيامـه، فمن صـامه وقامـه إيمانـا واحتسابا ويقينا كان كفارة لما مضى) (3)

وفي نبوءاته ﷺ الغيبية الصـادرة من حرصـه ﷺ على

1) رواه الترمذي.
2) رواه الطبراني في الكبير وفيه خالد بن يزيد العمرى واتهم بالوضع.
3) رواه النسائي والبيهقي.

هذه الأمة يخبر ﷺ عن الخطـر المحـدق بأمتـه النـاتج عن ضعف اليقين، قـال ﷺ:(مـا أخـاف على أمـتي إلا ضـعف اليقين)[1]

***

ومن هــذه المنطلقــات القرآنيــة والنبويــة أجمــع العارفون بالله على أن اليقين هو البـذرة الـتي تنبت منهـا جميع المحاسن التي ينضح بها العرفان.

وقــد أجمعــوا على اعتبــاره المــركب الــذي يحمــل السالكين إلى الله، وبقدر سلامة المركب يكون الوصـول، ولهذا ورد في وصية لقمان لابنه:(يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامــل حتى ينقص يقينه)

وقـد قـال أبـو سـعيد الخـراز معـبرا عن هـذا الـدور: (العلم ما استعملك واليقين مـا حملـك)، فلـولا اليقين مـا سار ركب إلى الله ولا ثبت لأحد قدم في السلوك إلا به.

وقــد أجمعــوا كــذلك على أن اليقين لا يســاكن قلبــا يسكن لغير الله، وقـد وقـال ذو النـون: (اليقين يـدعو إلى قصر الأمل وقصر الأمـل يـدعو إلى الزهـد والزهـد يـورث الحكمة وهي تورث النظر في العواقب)، وقال:(ثلاثة من أعلام اليقين: قلــة مخالطــة النــاس في العشــرة وتــرك المدح لهم في العطية والتنزه عن ذمهم عند المنـع وثلاثـة من أعلامه أيضا النظر إلى اللــه في كـل شـيء والرجـوع إليـه في كـل أمـر والاسـتعانة بـه في كـل حـال)، وقـال السري:(اليقين سكونك عند جـولان المـوارد في صـدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا)، وكل هذه التعاريف تدور حول التجرد المحض لله.

وأجمعوا على أن الطريق لليقين هو التقوى، قال ابن عطاء: (على قـدر قـربهم من التقـوى أدركـوا من اليقين، وأصل التقوى مباينة النهي وهـو مباينـة النفس فعلى قـدر

1) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي.

مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين) وهذا التعريف كالـذي سبقه يدور حول توحيد الهمة المتوجهة لله، فلا يجتمع في قلب الموقن التوحيد مع الشرك.

ويشــير الجنيــد إلى أن اليقين لا يعــني مــا يتصــوره البعض ـ ممن يشحنون حياة العارفين والأولياء بالكرامـات مع مـا قـد يلابسـها من خرافـات وأسـاطير ــ فـالموقن لا يحتاج لأن يمشي على الماء ليثبت صحة يقينه:(قد مشـى رجال باليقين على الماء ومـات بـالعطش من هـو أفضـل منهم يقينا)

***

نتساءل بعد هذا عن سر كون اليقين هو الدرجة العليا التي تصب فيها كـل الـدرجات مـع أنـه من المعـاني الـتي يفهمها الجميع، ويعيها الجميـع، بـل يـدعيها الجميـع.. فـأي فضل للعارفين بعد هذا؟

والجواب عن ذلـك من خلال النصـوص المقدسـة هـو أن اليقين درجات بعضها فوق بعض، وليس مرادنا منها هنا إلا أعلاها، وهي درجـة المقـربين.. وهم ــ أيضـا ــ درجـات بعضهم فوق بعض.

وأولى درجات اليقين التي يتحدث عنها العـارفون هي الدرجة التي تبدأ من الإدراك التام للأشـياء إدراكـا مشـابها لإدراك السـمع والبصـر، كمـا قـال تعـالى عن المجـرمين: ﴿ وَلَوْ تَـرَى إِذِ الْمُجْرِمُـونَ نَاكِسُـو رُؤُوسِـهِمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَـا أَبْصَــرْنَا وَسَــمِعْنَا فَارْجِعْنَــا نَعْمَــلْ صَــالِحاً إِنَّا مُوقِنُــونَ﴾ (السجدة:12)، فقد اعتبروا إدراكهم للحقائق إدراك سماع وبصر يقينا.

ولهذا، فإن أولى علامات العارف أن يكون قلبه مـرآة تتجلى فيها الحقائق بوضوح تام، كما قال شاعرهم:

إذا ســكن الغــدير على وجنب أن يحركـــــــه

بــدت فيــه الســماء بلا كـذاك الشـمس تبـدو

كــذاك قلــوب أربــاب يرى في صـفوها اللـه

وهذا هو الفرق الأساسي بين العلم والمعرفة، فالعلم بحث واستدلال، والمعرفـة شـهود وعيـان، والعلم مكابـدة وشك، والمعرفة راحة ويقين.

ففي الوقت الذي يتيـه فيـه العلمـاء بحثـا عن الأدلـة، ويتنـازعون وفـق مـا تقتضـيه أنظـارهم، يجلس العـارفون المتخلصون من كثافة حجاب العقـل المقيـد بقيـود الحس والوهم في أرائك جنة المشاهدة والمكاشفة واليقين.

فالعـارف يـرى مـا يـؤمن بـه ويعيشـه، أمـا العـالم أو طالب العلم فيكتفي بأن يبحث عن أدلـة مـا يسـمع عنـه، وقد يحجب بالأدلة عن المدلول، وبالطريق عن الغاية.

وفي الوقت الذي يقلب فيـه العـالم صـفحات الكـون ليستدل به على ربه، ينطلـق العـارف من بـه ليسـتدل بـه على الكون، قال ابن عطاء الله:(الكون كله ظلمة، وإنمـا أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعـده فقـد أعـوزه وجـود الأنـوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار)

فالكون في نظر العارفين ـ بالنظر إلى ذاته ـ لا يـزال خـاملا في ظلمـة العـدم المحض، فلا وجـود لـه لـولا نـور الموجد، فلولا ظهور الحـق فيـه، ظهـور إيجـاد وتعريـف لا ظهور حلول وتكييف لما كان له أي وجود.

وهذا هو الفرق العظيم بين العارف والعالم، فالعارف في محـل الرؤيـة قـد تجـاوز فيـافي الاسـتدلال وصـحراء النظـر ومتاهـات البحث، أمـا العـالم فلا يـزال تنقطـع بـه السبل دون حصول ذلك اليقين الذي ينعم به العارف، قال ابن عطاء الله: (شتان بين من يستدل به أو يستدل عليـه، المستدل بـه عـرف الحـق لأهلـه، وأثبت الأمـر من وجـود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليـه. وإلا فمـتى غاب حتى يستدل عليه؟ ومتى بعد حـتى تكـون الآثـار هي التي توصل إليه؟)

ولهذا ينطلق العارفون من الله إلى الكون، ويأخـذون الأشياء من الله قبل أخذها من الكـون، ولهـذا لم ينحجبـوا بـالكون عن المكـون، بـل انحجبـوا بـالمكون عن الكـون، الكون باعتباره أصلا لا باعتباره فرعا وتابعا.

وقـد سـمى الغـزالي هـذا اليقين (علم المكاشـفة) وعرفه بأنه عبارة عن نور يظهـر في القلب عنـد تطهـيره وتزكيته من صفاته المذمومة.

وهذا النور المتجلي على القلب تنكشف بـه الحقـائق الكثيرة الـتي كـان ـ في مرحلـة العلم ـ يسـمع من قبـل أسماءها، ويتـوهم لهـا معـاني مجملـة غـير متضـحة، وقـد ينتشر له من بعض تلك المعاني ما يوهم التناقض أو يدعو إلى الشـك، ولكن في مرحلـة اليقين الـذي يرفـع الحجب يبصـر الحقـائق كمـا هي، (فتتضـح إذ ذاك حـتى تحصـل المعرفة الحقيقية بذات اللـه سـبحانه، وبصـفاته الباقيـات التامات، وبأفعاله، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجـه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوّة والنبـيّ، ومعنى الوحي، ومعـنى الشـيطان، ومعـنى لفـظ الملائكـة والشياطين، وكيفيـة معـاداة الشـياطين للإنسـان، وكيفيـة ظهـور الملـك للأنبـياء، وكيفيـة وصـول الـوحي إليهم، والمعرفـة بملكـوت السـموات والأرض، ومعرفـة القلب وكيفية تصـادم جنـود الملائكـة والشـياطين فيـه، ومعرفـة الفرق بـين لمة الملـك ولمـة الشـيطان، ومعرفـة الآخـرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحسـاب، ومعنى قوله تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (الإسراء:14)، ومعنى قولـه تعـالى: وَإِنَّ الـدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُـونَ (العنكبـوت: 64)، ومعـنى لقـاء اللـه عـز وجـل والنظـر إلى وجهـه الكـريم، ومعنى القرب منـه والـنزول في جـواره، ومعـنى حصـول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبـيـين، ومعـنى تفـاوت درجـات أهـل الجنـان حـتى يـرى بعضـهم

البعض كما يرى الكوكب الدرّي في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله)[1]

وقد تاه الخلق الذين لم يجاوزا مرحلة العلم في هـذه المعارف جميعا، وكـثر الخلاف بينهم، لأن كـل واحـد منهم ينظـر إلى هـذه المسـائل، وهـو متلبس بحجـاب العقـل، بخلاف من جاوزه وترقى إلى المشاهدة.

1) الإحياء.

هذا الكتاب

هذه الرسالة من سلسلة [حقائق ورقائق] تدعو إلى النظر إلى الكون نظرة جديدة تنطلق من قراءته باسم الله، وتنتهي بصحبته في الله.

وقد حاولت حصر أوصاف الكون ــ انطلاقا من النصوص المقدسة ـ في أربعة أوصاف كل واحد منها معراج من معارج السلام، ورقية من رقى السعادة.

وهذه الأوصاف الأربعة هي: الحياة، والعبادة، والتسخير، والمقروئية.

فمعرفتنا بالكون الحي تشعرنا بالأنس، وتملؤنا ينشوة الصداقة الحميمة، فلا يمكن أن نصادق جمادا.

ومعرفتنا بالكون العابد تعرفنا بوظيفتنا، وتجعلنا نلهج بالتسبيح في حلقة ذكر الكون الواسع.

ومعرفتنا بالكون المسخر تجعلنا نتناول الأشياء من يد الله، لا من يد الطبيعة، ونتناول الأشياء بالله، لا بأيدينا.

ومعرفتنا بالكون المقروء تعبر بنا من الكون إلى المكون، وتزج بنا في رحاب الحضرة المقدسة، فنبصر من خلال الأشياء مشيئ الأشياء، فنصادق مع قطرات الندى، وتفتح الزهر، وهبوب النسيم، رب الكون ومبدعه.